

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190571

UNIVERSAL
LIBRARY

عَلَاءُ قُيُشْتِ

رواية تاريخية غرامية

في الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية

✽ تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة ✽
✽ الامام علي وما نجم عن ذلك من ✽
✽ التفتة وواقعة الجمل وواقعة صفين ✽
✽ الى تحكيم الحكمين وخروج مصر ✽
✽ من خلافة الامام علي ✽



✽ تأليف ✽

محمدي زيدان

(منشء الملال)

نشرت ملحمة بالسنة السابعة من الملال

(طعت مطبعة الملال بشارع النجالة بمصر سنة ١٨٩٩)

السيرة المتصلة

✽ رواية غرامية تاريخية • الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

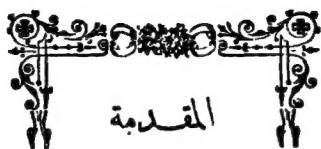
قد ادرجت فيها الحوادث المصرية وفي عرابي والمتهمدي السوداني وما تحلل ذلك من الاحوال والاعمال بحيث يحل القارى ان شاهد تلك الاماكن عيانا وحضر كل الوقائع وقد دخلت في هذه الرواية ايضا حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق الشام ومن اطالها عرابي وكيف نشأ والمهدي وكيف ظهر وهيكس باشا وكيف نكب وغوردون باشا وكيف قتل والمخروطوم وكيف سقطت وتصل الحوادث الغرامية من اولها الى آخرها • ثمن النسخة عشرة غروش مصرية واجرة البوسطة غرشان (تحت الطبع)

جهد المحبين

✽ رواية ادبية غرامية ✽

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

تشتمل على حوادث غرامية ادبية حدثت وقائعها في العهد الماضي من هذا القرن في مصر والاسكندرية وفيها ما يدل على اسما ما يقاسو المحبون جهادا في سبيل الحب • ثمن النسخة ٦ غروش مصرية او فرنك ونصف واجرة البوسطة غرش ونصف



✽ عذراء قريش ✽

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية التي نشرها تباعاً في الهلال نبسط فيها تاريخ الإسلام على أسلوب الرواية تشويقاً للمطالعة وتمثيلاً للحوادث حتى تقرب من اذهان القراء . فالحلقة الاولى هي « فتاة غسان » نشرناها في جزئين مثلاً فيها حوادث التاريخ الاسلامي من ظهور الدعوة الى فتح الشام والعراق . والثانية « ارمانوسة المصرية » شرحنا فتح مصر بنفاصيله . واما الثالثة فهي « عذراء قريش » هذه وهي تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين الى تحكيم الحكيم وخروج مصر من خلافة الامام . وهي اول فتنة ظهرت في الاسلام

وقد نشرنا « عذراء قريش » ملحقاً بالسنة السابعة من الهلال ولكن ما احدثته من حركة الازهان وما آتت من استحسان القراء لها واعجابهم بها حيا بنا طبعها ونشرها على حدة . ونسعين الله في مواصلة نشر هذه السلسلة التاريخية الإسلامية رواية اثر رواية الى آخر تاريخ الاسلام . واول رواية سنشرها بعد هذه تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وخروج الخلافة من اهل البيت الى بني امية سنظهر تباعاً في السنة الثامنة من الهلال . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الأول

❖ قباء ❖

قباء قرية على ميلين من المدينة (يثرب)^(١) اشتهرت بعد الهجرة بنزول صاحب الشريعة الاسلامية فيها اثناء هجرتهم الى المدينة فبنى فيها مسجداً هو اول مسجد بني في الاسلام^(٢) وله كرامة خصوصية لانه اسس على التقوى واول من بنى فيه هجرًا صاحب الشريعة نفسه^(٣) وكانت قباء في خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين قد اشتهر امرها وعرفت كرامة مسجدتها على اثر انتشار الاسلام واتخاذ الخلفاء كرمي ملكهم في المدينة مع ما بذلوه من العناية في تحسين ذلك المسجد وخصوصاً الخليفة عثمان فانه وسعه وزاد فيه ووقف عليه المحراب والخدمة . على ان ذلك لم يزد شيئاً كثيراً في سكان قباء نفسها

وكان لذلك المسجد في اواخر خلافة عثمان خادم طاعن في السن اسمه عامر شهد ببناء المسجد بنفسه ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هناك وامر ببناء المسجد فوقف حياته لخدمته فاقام في قباء هو وعياله يقضي نهاره في حراسة الجامع ويقوم بتنظيفه وسدائه فاذا فرغ من ذلك خرج مع اولاده لرعاية اهل بعض اغنياء المدينة في بعض الادوية او المستنعمات التي تكثر في ذلك الجوار

ففي مساء يوم من ايام سنة ٢٥ للهجرة خرج الشيخ لرعاية الابل فاوغل في بعض الادوية فاقترب الغروب وهو لا يعلم فاسرع بالرجوع فركب ناقته وارضى لها الخطام واستخرج مسلة كان قد غرسها في شعر رأسه المتليد ووخز بها الناقة بين جنبتيها استخفافاً لما في السير فطارت به واولاده يتبعونه بقية النوق وقد ركب اصغرهم وهو عاري على ناقة عارية وركب آخر على أخرى وامامه بعض الاخشاب او العيدان وقد جمعها من متساقطات الشجر ليقودوا نارم بها . والجمال يحملها غفل من الخطم اي انها سانية بلا ارسان . وكان الشيخ اكثر الجميع عجلة يلتصق بالمسجد قبل ان تغيب الشمس فينوت وقت الصلاة ورأى الشمس تسرع في الموط فحبل له انها نسيابة فجعل

(١) حم ياقوت (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن هشام

بمغت ناقته جهد طاقته غير مال بحمال تلك الساعة وهي احمل ما تكون في
 الصحراء وقد استطالت الاظلال حتى اختلط بعضها ببعض فلم تعد يتميز اظلال
 النخيل من اظلال اللسان او السط وامتزجت اظلال الاشجار باظلال الادميين
 او اللوق وقد غل شجينا نخلجو ولحنو عن شذاه الریحان والفصعين وغديها من نبات
 الصحراء ولم يستوقف سمعة شدو الیلال ولا تبقی الضفادع . على انه لم يكد يشرف على
 قباء من اكمة حتى سمع رعاء الجمال وصهيل الحیل مجوار الحجد فاسرع فرأى هناك
 ركبا ومعهم الجمال والاحمال ولم يستغرب ذلك وقد تعود ان يرى كثيرا من امثاله
 كل عام لان القوافل يذهابها الى المدينة كانت تمر قضاء فتقف للراحة والاستقاء .
 لمجل له انها قافلة اسمى المساء عليها فارادت المبيت هناك او الاستراحة فازداد
 رغبة في العجلة ليقوم بخدمة القادمين مخافة ان يسبقه الى النصور . وحول وجهه
 الى الورا فنادى احد اولاده وقال له اسرع ناوودي الى البيت فاحمل الخي جرة
 الماء لعل هؤلاء الركب يجناجون الماء شرب

الفصل الثاني

على فراس الموت ❁

وما زال الشيخ مسرعا وهو كلما اقترب من المجد ونوق ان يبين الوحوش عارضة
 تكائف التنق حتى اقترب فاذا هم ركب ومعهم الافراس والجمال وبصرة رجال وفتاة
 وقد تجمعوا جميعا يجنو ولحنه حول هودج عليه الاستار وفيه مريض شديد الدف
 بجاولون اخراجه الى مقعد في خيمة تصبونها بالقرب منه فتفرس الشيخ في اولئك
 الناس فعلم انهم قادمون من الشام الى المدينة فعجب لمرورهم بقباء وهي ليست في
 طريقهم اليها . ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام من القباء والرداء
 والعمامة ويحانيو شاب حسن البزة عليه عباءة من القصب وسيفه مرصع ووراءه خادم
 يحمل له الرمح والنبال . وعلى مقربة منه فتاة غضة الشباب قد اشرق وجهها صحة ونشاطا
 على رأسها كوفية مشدودة بعقال وقد ارسلت اطرافها الى ظهرها حتى تجلي نور وجهها

بما اكتسبه من التورود على أثر التعب وركوب المجازد اياماً في طريق الصحراء . فلما رآها التبع اجندبت بصره واستلثنت استباهه لما آتته فيها من الاهتمام بامر ذلك المريض وتسليطها على اذهان رفاقها لآلتها كانت ترتد في كيفية حملو ومداراته في قلبه ووضعوه فترجل التبع عن ناقته وصاح يا هلا بوجه العرب وتقدم لمساعدتهم وتفرس في المريض فاذا هو امرأة في حدود الاربعين قد بلغت حد الثام وتولاها الصعف حتى لا يجالها الناظر الأميته . فعرض عامرسة للخدمة فاشارت اليه الفتاة ان لا يدوم من المريضة لانهم انما يريدون حملها باسمهم على اذرعهم فتخى وامر اولاده ان يساعدوا الخدم في نصب الخيم وإزال الاحمال وسقاء الخيل والامراس وغير ذلك وسار هو الى المسجد للاداء والصلاة

فاشتغل الرك في نقل المريضة واكثرهم عناية في ذلك الفتاة واسمها اسماء فانها لم تعمل عن اعداد كل وسائل الراحة في نقلها حتى حملتها على ذراعها . ولا عجب فان المريضة والدتها وقد شبت على حيا . ولما الكهل هو زوج المريضة واسمها يزيد وكان قليل العناية في امرها الا بما توجه اليه الفتاة . ولما الشاب الحسن الذرة فاسمة مروان وكان الاعجاب ظاهرا على وجهه لما يعلم من نواذه لقراجه من الحليفة عمان و عمان

الفصل الثالث

عذراء قریش

فلما نقلت المريضة الى فراشها جلست اسماء الى جانب رأسها وأخذت تمسح لها العرق عن وجهها بمديبلها والأُم غائبة عن الصواب واسماء شاخصة اليها والدموع ملء عينها ولكنها كانت تتجمل وتصر نفسها فتهرق أسانها لئلا يغلب البكاء عليها فتسمع والدتها نحيبها فيزداد تألما . فكادت تمسح دموعها بالمندبل خلصة ونظرها لا يتحول عن وجه المريضة لحظة لا تلتفت بمة ولا بصر . وكان الليل قد سدل غايه فجاءه عامر بمصباح أدخلوا الخيمة والفتاة لا يبعها الا النظر الى والدتها لعلها تنفع عينها أو تحرك شفيتها

أو تلمس أمراً فتقدمه إليها لا نعباً بالدها ولا بذلك الشاب الذي قطع البراري والقفار في خدمتها لعله يكتسب قلبها وهي تكرر أن تراه . وكان قد طلب الاقتران بها منذ كانوا في الشام فرضي الوالد ولم ترضِ الوالدة ولا الفتاة . والوالد انما رضي بذلك رغبة في الدنيا ولعلها بمصعب ينال من الخليفة عثمان بواسطة مروان اذا صار صهرًا له . ولم يكن فيو حق الوالد لانه يعلم كما تعلم امرأته نفسها ان تلك الفتاة ليست ابنته ولكنها لم يكن يعرف والدها لانه تزوج أمها سيرة من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة واسما في السنة الثانية من عمرها . فلم يكن يهتم بمعرفة والدها وبعد فتح الاسكندرية عاد الى الشام فأقام فيها مع أقارب من بني أمية فلم تلد له أولاداً

وكان يزيد كلاً أشمط الشعر قصير القامة خفيف العسل متعبد الوجه غائر العينين طامعاً يحب المال فوق كل شيء . بني الخلق لا ذمة له ولا ذمام . وكان أهل الشام يعتقدون ان اسماء ابنته ولكن الناقد يرى لا أول وهلة انها تختلف عنه خلقاً وخلقاً فقد كانت من الهيبة والجمال على جانب عظيم جمعت لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهن لا يستطيع الناظر إليها الا أن يحترمها واذا خاطبها آس فيها رقة وإنه ودعة وعزة . وكانت ربة الثمام ملائمة الجسم حنطية اللون سوداء العينين حادتها طويلة الاهداب مقللة الحاجبين صغيرة المم سهلة الجبين عظيمة الهيبة لا يستطيع الناظر إليها أن يتفرد في ملامح وجهها لعظم هيبتها فاشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن فأحبها مروان وجعل يتفرد منها وهو يحسب تقربة منه وكرماً وكان يظنها لا تلبث ان تعلم يبلو حتى تطير فرحاً لأن حالها من الدنيا ينحط عن حاله كثيراً فهي من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان . وكان هذا الخليفة كمالاً يحظى بؤثر ذوي قرابته من بني أمية ويقدمهم في مناصب الدولة ويشيخ لهم أبواب الرزق الا المر الذي آل الى قيام المسلمين عليه حتى تحوّلوا في عزله وكانت الفتنة المشهورة . وما زال مروان يتردد الى منزل يزيد وكلاهما من بني أمية فيختلف يزيد ويود لو أنه يتزوج ابنته فيعطى لدى الخليفة بمنصب رفيع حتى حدث مروان في ذلك فاجابه وأكد له انه نائل الفتاة لا محالة اعتماداً على عادة تلك الابام في أمر الزواج فقد كان الرأي راجعاً الى الوالد في كل شيء

ولكنه ما لبث ان خاطب امرأته في الامر حتى آس منها اعراضاً واباء ولكنها لم

تكن تعارضة دفعة واحدة لم كانت تدفعه وبماطله . وإدركت النشأة ما بينها من أجلها
فاظهرت بنورها من مروان لأنها لم تكن تعنه بخاراف الدنيا ولكنها كانت مهوى الشهامة
وكرم الأخلاق فلم يقع مروان من نهمها موقعا مقبولا فتمكنت الوالدة من الرفض ويزيد
يزداد الحاحا . فخافت ان يستعمل العنف في تنفيذ ما ربه فوقعت في حيرة ولشدة ما
قاسته من المقاومة أصيبت بالحسرة ووهت قواها فخافت الموت قطعت ان يحملوها
الى المدينة فقيهم الى ظلمهم هناك فتعلم لتسدها أما مروان فسر لذلك السر لانه
اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان فاذا عادت الوالدة الى التردد
هددها بفضيه . فخافا في قافلة ومعهم الخدم من رجال مروان فكان ذلك السفر سهيا
في اشتداد المرض واساء لا تعلم السر في ذلك الانتقال . فخلت ذات يوم بوالدها
وعاتبها على ما حملت منها من المشقة فأسرت اليها انها انما تنوي الالتجاء الى علي بن
أبي طالب لعله ينقذها من أيدي الظالمين لما انتهره من غوث المظلومين وما له من
المكانة عند الخليفة وغيره من المسلمين . وما زال المرض يشتد بها يوما عن يوم وزوجها
ومروان يودان ان تقضي نحبها قبل الوصول الى المدينة لأنها تنبأ شيئا من حبة
غرسها فكانا يطيلان مدة المسير ويقودان القافلة في طرق طويلة وفي جملة ذلك
مرورهم بقاء وهي في الجنوب الشرقي من المدينة ^(١)

فتصد وصولم اليها اشتد المرض عليها حتى عابت عن الصواب وكان الهارقد
افضى فانزلوها هناك كما تقدم

الفصل الرابع

❁ سر ذاهب الى القبر ❁

وكانت تلك المريضة كحلة في نحو الاربعين من عمرها بيضاء اللون رومانية
الملاح كبره العينين اسمها مريم وقد رادها الضعف حموظا وما اعكت منذ قتلوها الى
الفراس وهي في سبات عميق واساء الى حالها وسدها المتدبل تمنع به جوار والنتها
وتستلقي به دموعها لا تأذن لاجد ان يأتي حركة لتلا يزغج انانمة . ولكنها لم تكن

تستطيع الفرس في ذلك الوجه المتع وتترك العين الجاحظين والفتى المكدنين
والعق المستنق وقد غشاد من الجامين شعر اسود بحالته بعض الشيب فلما بلاه
عرق الحمى تجمع خصلًا متلاصقة . وما كان يجرها موع ضاحك ذلك الصدر الذي
يكاد يكون عاترا لفرط السبع وذلك انهم تنبوا مع واستقال حتى رر قنأه
واستق الانف وظهر مارزا . فلم تكن اماء تتأمل ذلك حتى يجتاج قلبها وتحذف
الموت على والفتا في تلك الرمة وكانت بعد الى يدها معها لمحقق حرارتها فترى
العرق البارد يسكب عن امامها فبرعد فرانها وما رادها ملا . وتقاء انواندها ما
برح منذ نزولهم هناك عذرا يبروان في حبه . لا يدخل ح . امرته اذ قنأه فاذا دخل
تظاهر بالاهتمام وسأل عنها والمكر والراء والاهران على وجهه . ولما مروان فكان
اذا دخل الحيمة دخل متعبرا لا مد ومن البراس واذة يدار الى اماء وينهم كأنه
يداعها وفي لا تستطيع الاتسام ولا تفر ولا تفر اليه

فلما كان العشاء حركت الامانة رأ . ما ونفس . عينا وحولت حذفتها نحو اماء .
وقد بهتتا من شدة الضعف فمت الثناء واذة وكما آزار لثباتي أوامرهما وسألها اذا
كانت تحتاج الى شيء . فادارت ثلث الماء فابعدت الى قدح فيه ماء اذنة من
شبهها فشربت منه قليلا فانبط وجه اماء وعاداه لما اليه واحصبت تتعطر ما تأمرها
به فلما لم تقل شيئا انحت على حياء اذنة وامسكت يدها بلطف وقالت لما هل
تريد شيئا يا اماء

فاجابها بصوت ضعيف وعيها شاخصتان اليها قائلة « لا لا اريد شيئا غير
سلامتك ولكنني اراني لا استطيع الوصول الى المدة ولا اضفي اعيش الى الغد فقد
شعرت بدنو الاجل » قالت ذلك والدموع تنساقط من عينيها فتخط بعرقها
فلما سمعت اماء كلامها ورات دموعها اقتصر جسمها وخفق قلبها ولكنها تجلجت
وتظاهرت بالاشماع قائلة لا سمح الله سوب بعينك يا اماء فملك ستعجبين في خير
فتركب معا الى المدينة باذن الله

فبسمت نساء يمازجه بكاء وقالت « لا يا ولدي لا ارجو ما الى الغد وما اما
آسنة على هذه الدنيا ولكن في نفسي امرا اود قضاءه قبل الوفاة »
قالت اماء وما هو ذلك الامر يا اماء

قالت هو ان الذي علي من ابي طالب فاحلته وتعتين قل الموت

قالت عدا لنتي في المدة - فحاربه

قالت « قلت لك ابي لا ارجو ان ارى صباح الود ماولدي »

فنهضت اما والدتها نسلها وهي تحاول حبس السمع فسمتها مرم الى صدرها
بنوع لم تكن اسماء بعد ما فيها وعاشتها تساقطت دموع اسماء بالرغم عنها ثم احسبت
بدموع اسماء تساقطت عن عفتها بحجة تازج ذلك العرق البارد . فاوغلت كفتها في
انكسار . واكر اسماء خال . عن والدتها من « دى فنهضت وقضاهرت بالتملذ وقالت
لا مأس عليك يا اما . بل تعالين عني لهما شئ شأني

قالت هم ونساء آخر هو سر . سنة في ضيبي اعوانا طولا وقد ان لي
ان ابوح .

فقال ما العزاز

قالت . لا تدوم في دولق له . ان امراء على فراس الموت تلمس لتيك لتيك
سرا وتسكنات امرا

فنهضت اسماء الى الخارج فرأت والدتها ومروان واقفين ماراء لحظة في الظلام
كما هما يداران ولما راياها خارجة اسرعا نحوها معا وقالا كبر والدتك لعلها في خبر
فاجابت امها قد افقت وطلست ان ترى علي من ابي طالب

قال والدتها وكبر . لكن ان امراء الآن وهو في المدينة

قالت لقد طلست اسماء امها اليها بالحاج

قال مروان استقدمه !! ومن يستدع ذلك

قالت اظن لا يأتي الحية اذ قبل له ان امراء في حالة التلف تلمس مقابلتك
وهو في ما انتبهرو من كرم الاخلاق

قال لا انكر كرم اخلاقه ولكنه الآن في شغل كبير من حال المسلمين واختلافهم
على الخليفة

قالت واي اختلاف

قال سمعت قبل خروحننا من الشام ان اهل الاعمال ناقمون على عمان لا يؤثرو
قوي قراعتهم في المال منهم ويعزل الذين ولائم اسلافة . وبلغني ان اهل

مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشكلوا امرهم الى علي لعله يتوسط في ما بينهم ويمن عثان . وكذلك فعل أهل الصرة وأهل الكوفة وأظهم وصلوا المدينة الآن فاذا وصلوها كان علي في شغل لا يأذن له بالخروج

قالت وقد ملأت الجهد ان والدتي تطلب علياً بالحاح فما علينا الا ان نبعث في طلبه قال فلبعث واحداً من رجالي واذهب أنا في أثره استعجلة في انقاذ المهمة . قال ذلك طأمر واحداً منهم ركب واسرع نحو المدينة ثم ركب مروان في أثره وعادت اماء الى والدها فاذا هي قد عادت الى الغيبوبة واستغرقت في السبات

فبكثت ساعة في انتظار الرسول فلما استبطأته برحت الخيمة ونظرت نحو المدينة والقيام حالك فلم تر احداً فصعدت الى مرتفع اشرفت منه على ابنية المدينة عن بعد فلم تر منها الا المسجد النبوي لما فيه من الانوار التي تشعشع في بعض جوانبه ولولم تصعد الى ذلك المرتفع لم تنرف على المدينة لانها قائمة في منبسط من الارض تصدق بها جبال تغدو منها السيول على اثر الامطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآباراً تجمع فيها المياه مدار السنة وتنمو حولها اشجار الصنصاف والبساتين والفضيل وكثير من الاعشاب فلما اطلت اماء على المدينة ظهر لها ما بينها وبين قباه من مجنمات المياه وقد اسكس على سطها اشعة الكواكب ضئيلة لعد المسافة غير ان ذلك لم يكن ليشغلها عن مواجهتها في مرض والدها فعادت مسرعة الى الخيمة فرأت بزيئاً قد توسد الارض خارج الخيمة ونام فأسفت لما رأت من قلة اكتراثه وضعف احساسه . لكنها لم تستغرب ذلك ووالدها صرحت امامها غير مرة ان هذا الرجل ليس والدها الحقيقي وكانت تلمح في استطلاع اسم والدها وانها تعدها بالجواب من وقت الى آخر فلما رأت ما بلغت اليه والدها من الضعف في تلك الليلة خافت اذا اصابها سوء ان يبقى والدها الحقيقي مجهولاً عندها فدنت من فراشها وهي لا تزال غائبة فامسكت يدها الباردة ولمست جبينها الرطب بما يمسقط عنه من العرق فاضطرت جوارحها وخافت ان يصيب والدها سوء وم في ذلك الفتر واستنكفت ان تخاطب والدها في الامر احتقاراً له فهتت بالخروج لاستقدام خادم الجامع لعلمها تشاهد عندها امرأتها تناس بها فرأت والدها تحرك رأسها ويرفع يدها كما بها تشير اليها ان تدنو منها فدنت وهتت بها فقبلتها وقالت ماذا تريدن يا أماء

قالت ألم يأتي علي بعد
 قالت لم بعد رسولنا
 قالت أخاف أن لا يعود وقد ندد صبري وطارت قواي . استقدموا علياً قبل أن
 تنفث الفرصة
 فقالت لا يلبث علي أن يأتي . ألا نوحين لي بما تريدن أن تقوليه . ألم يأن
 لي أن أحرف من هو والدي
 قالت سترينه متى جاء علي . ثم تنهدت وقالت آه متى يأتي

الفصل الخامس

❖ المدينة المنورة ❖

فلما سمعت أسماء ذلك ثارت الحمية في رأسها وملئت الانتظار مع ما تعلت من
 غرض مروان فخافت أن يكون ذهابة في أثر الخادم سباً في ذلك التأخير والوقوع
 ثوب فعمّلت على السير نفسها وهي لم تدخل المدينة قبل ذلك الحين ولكنها استسلمت
 كل صعب في سبيل مرضاة والدها مع شدة رغبتها في استطلاع ذلك السر فشدت
 الكوفية حول رأسها وثامت بها حتى لم يبق ظاهراً إلا عيناها وتزلت بالمعابة فوق
 نياها فأخفت رداءها النسائي وركبت جوادها وكان لا يزال مسرجاً ولم يقظت
 والدها طويلاً ووالدها خيراً وهمت بالخروج فلم يثارعهما قلبها خوفاً على والدها
 فوقفت مغيرة ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته
 عن امرأتها فقال هي في خدمتك وناداهما فجاءت فإذا هي عجوز ولكنها نشيطة سمحة
 الوجه فاوصبها أن تساعد والدها في السهر على والدها في أثناء غيابها وخرجت ولم
 تخبر والدها لئلا تمنعها من الذهاب واخذت انوار المسجد النبوي وجهتها وهرت الجواد
 وكان من اصائل الخيل فجرى وهو تارة ينفوس في مستنقع وطوراً يصعد على آكة وهي
 لا ترى شيئاً لفرط قلقها واضطرابها إلا اصباح التبل والبنسان وربما حبسها لسرعة جري
 الجواد إليها صامعة لهموما . وكانت كلما سمعت فرقة او صليلاً تحسب رسولها عاتقاً لم لا

نرى احداً وفي الحقيقة لم نسمع الاً تيق الضنادع وصرير الصراصر ووقع حوافر الفرس حتى دنت من سور المدينة واهتدت الى بابها فدخلت منه الى اسواق ضيقة متعرجة لا يكاد الفرس يستطيع المرور فيها ' ' فرأى على ضيقها مزدحمة بالناس واكثرهم من الغريباء فعلمت ان ما قاله مروان صحيح فسال رجل يبيع الفرس عن منزل علي فدلها عليه وهو يحبسها رجلا فهزمت الجواد واسرعت فلم تبلغ باب المنزل حتى كسا جوادها فسهطت وكادت تصيب حنثها فاستلقت الارض سديها واصاب رأسها نخلة قائمة امام الباب فتهشم قليلاً ولكنها لم تنال بل نهضت وانست باب المنزل ولم تكن تدركه حتى سمعت صريراً فوقفت تنتظر ففقه فخرج اليها منه شاب طويل القامة لم تبين وجهه لعل الظلام وكان قد سمع كيو الجواد فاسرع نحو فرأى فارسة قد وقف وهو لا يزال ملأفاً فاستقبله وسأله عن خبره وهو يظنه رجلاً

فالتت أماء العلى مولانا علياً في المنزل

قال كلاً ليس هو هذا الآن ماذا تبغي منه وارى من لفتك ومجنتك انك آت لي
أمر ذي بال فما عبرك

قالت نعم لقد جئت بأمر هام ولكني لا أقوله الاً لعلني بفسو . اين هو
قال انه خرج في الغروب الى المسجد وقد مضت صلاة الغروب وصلاة العشاء
ولم يعد نهل تذهب معي للتنشيش عنه هناك

قالت نعم هلم بنا والجامع على مقربة منها فمشيا وكل منها يتوقع الوصول الى باب
المسجد ليرى وجه رفيق في الضوء لعله يعرفه . وكان الشاب أكثر رغبة في ذلك لانه
استغرب صوت اسماء ولم يتبين شيئاً من ثيابها لانهما بالبهاء والكوفة اما هي فمشت
تفود جوادها وراءها حتى وصلا الجامع فاذا هو مزدحم بالناس بين جاث وواقف
ولم يبق موقف لطفل وكلهم صامتون وقد تكاثفت اناسهم وانبعثت من باب الجامع
حارة ممتجة بروائح أجسامهم واطيابهم حتى لقد يشعر المار بالازدحام وان لم ير الناس
فلما وصل الرفيقان الى الباب واستنارا بصباح الجامع نظر كل منهما الى ليلو لعله
يعرفه فأتت اسماء ان رفيقها رجل حسن اللباس يظهر من مجمل حاله انه من كبار
الصحاباء وبعض اولادهم . اما هو فلم ير غير اللام فاستغرب ثلثها والحشة مستعفن القري

الفصل السادس

❖ عثمان بن عفان ❖

وارادت اسماء الدخول الى الجامع فامتنع عليها المرور لكثرة الازدحام وهيبة الاجتماع فوقفت عند الباب وهي على مثل الجمر والرفيق الى جانبها وقد تنذر من ذلك الانتظار فارتاحت لما آسئت من شعوره معها وعلت ان الدخول الى علي يستحيل اذ ذاك فدعاها الرجل للارتاحة على البطحاء وهي مقاعد من الحجر أو الخشب أنشأها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاستراحة أو المهادنة أو المناشئة فلم تستطع اسماء جلوساً لعظم قلعها ولكنها التمت مكاناً تربط فرسها فيه اذا اضطرت لدخول الجامع فأمر رفيقها غلاماً ممن يلتفتلون النوى في اسواق المدينة وهم كثيرون^(١) ان يمسك الفرس فامسكته وسار به الى مواقف الخيول بين الاشجار هناك أما اسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على مسدود رجلاً ربعة ليس بالطويل ولا القصير حسن الوجه لولاً ما عليه من اثر الجدري كبير اللحية عظيمها وقد صترها بالحناء اسمر اللون اصلم الرأس عظيم الكرادير عظيم ما بين المنكبين وكان واقفاً على الممر^(٢) وقد توكأ على سيف واجال نظره في المحصور وم بالكلام . فنظرت اسماء الى رفيقها مستنهة عن الرجل

فقال انه الخليفة عثمان بن عفان يخاطب في الناس

فقالته العله هذا الجمع كله من اهل المدينة

قال كلاً بل هم وفود اهل مصر والبصرة والكوفة وقد جاؤا يشكون عثمان هذا ويتذمرون من تصرفو معهم فشكوه الى علي فأبى علي في هذا الصباح فاستدعاهم الى هذا المسجد ليخاطب فيهم واطنة سلتهم لنفسو عذراً فلنسمع ما بقوله

فنظرت اسماء الى الخليفة وعيناها لا تتفان عنه لتضع حواسها فرأت بجانبه رجلاً عرفت انه صاحبها مروان فقالت في نفسها شئ الشاب هو لقد جاء الى ابن عمو وسي المهمة التي جعل نفسه متبرعاً في انعامها . وجالت بنظرها في الجمع متفرسة لعلها

تري علياً على ايها لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها ألا ترى علياً بين المجموع
قال اظنني رأيته . نعم اني اراه جالساً جثواً بقرب المنبر وقد أطرق ينكر .
فتطرت اليه فاذن هو فوق الرتبة فخم العضل جميل الخلفة وقد وخطه الشيب فلم
يصغ شعره وأست فبو على شدة هواجسه ابتساماً ظاهراً في وجهه فشعرت عند رؤيته
بارتياح ^(١) وأستأنت بطلعتو وحدثتها نفسها ان تخترق الجماهر اليه فاقفها الحياء
وطمت ايها اذا فعلت ذلك شوشت الاجتاع فضلاً عما في هذا العمل من الوقاحة .
فلنت تنتظر فروغ الخطيب من خطابه وهي كأنها على الجمر

أما عثمان فانه انتصب كما تقدم ويئاء على السيف وهي ترتش لعظم تأثر ثم
مسح لحية يسراه ومشط شعرها بأصابعه والارتعاش ظاهر عليه لعظم الاضطراب .
فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ثم قال وصوته ينقطع :

« يا اهل الامصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبونني بامور لم أكن انا الذي
ارتكبتها وحدي فان صاحبي اللذين نوليا اموركم قبلي (يريد ابا بكر وعمر) قد
ظلموا انفسهم . وإن رسول الله (صلى) كان يعطي قرابة . وإما في رمط اهل عملة
وقلة معاش فسقطت يدي في شيء من ذلك لما اقوم بوفيو فان رأيتم ذلك خطأ
فردوني فامري لامركم تبع . وإما ما تريدونه من الفتنة او الخلع فانكم قد اسرعت في ما
عزمت و والله لمن فارتكم ما اتمنون ان عمري كان عليكم مكان كل يوم سنة لما سترون
من الدماء المسفوكه والاحن والاثرة الظاهرة والاحكام المغيرة » ^(٢)

وكان علي في اثناء الخطاب مطرقاً مصغياً لا يهدي حراكاً حتى اتي عثمان على
الفترة الاخيرة فحرك علي حاجبيه وحنى رأسه تصويهاً لقولوه « لما سترون من الدماء
المسفوكه الخ ... »

وإما اسباب فلا نسل عن قتلها وملها وكان رفيقها واقفاً الى جانبها وقد شغل عنها
بما نار من عياطوه عند سماعه كلام عثمان ومال بكليته الى اتهام رفيقها المثلث جليلة الخبر
تشفياً من عثمان . ولكنه اراد قبل ذلك ان يعرف من هو . فتقدم اليها ان تحسر
اللائم فاجابت ايها شخصه بعدئذ . فتضم من لهجتها صوتاً نائياً ولكنه استكبران يظهن
في النساء مثل هذه الهمة فصر نغمة رفيقاً ينقضي الخطاب وقال لها « اراك يا سيدي

خالي الذهن من مغزى كلام الخليفة وان تنهه اوضحه لك باختصار . فاعلم ان خليفة هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاهما عزل الولاة الذين كانوا قبله ممن ولاهم الامام عمر (رضه) وولى مكانهم رجلاً من بني امية اي من اقاربهم ووسع ابواب الوزارة لاهله ودينتها على سواهم فنار المسلمون في الاعمال (الولايات) وهم اهل مصر والكوفة والبصرة اما اهل الشام فانهم على دعوى عثمان لان عاملهم هو معاوية بن ابي سفيان من اقرباء الخليفة واما اهل الامصار الثلاثة الباقية فتقبلوا على هذا الرجل وجازوا في رجالهم يطالبونه بما اقترفته ويطلبون خلعة وتولية غيره مكانه . ولا يلحق ما عدا ذلك من هؤلاء جميعهم الا علي بن ابي طالب فانه ابن عم النبي (صلم) ووصيه . ولكن بين الصحابة الذين يطعون بالخلافة الآن اثنين آخرين هما طلحة والزبير . فالخلافة اذا خلع عثمان نازعها ثلاثة علي وطلحة والزبير فوجد مصر يريدونها لعلي ووجد الكوفة يريدونها للزبير ووجد اهل البصرة يريدونها لطلحة ولكنهم متفقون جميعاً على خلع عثمان هذا . واما علي فلا رغبة له في الخلافة ولقد نجف الفتن بين المسلمين بسبب ذلك الخصام

وكانت اماء تسمع كلام رفيقها وهي لا تفهم منه شيئاً لعظم اضطرابها واكتها لم تكن ترى بداً من الصبر لان عثمان لا يزال يتكلم وما اتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعملت انهم خارجون فحمدت الله على قرآنه فتفتت ريفها فخرج الجميع وقد شاعت عيناها وهي تدرس في الجماهر لعلها ترى علياً خارجاً معهم . فخرج الكل ولم تر علياً بينهم فقولت نحو الجامع وكان ربهما قد ستمتا اليه فوقفت تنتظر فماد رجلاً فلما استقبلها سألها هل رأت علياً خارجاً فقالت انها لم تره فعمل يبحث بين الناس وسألهم عنه فلم يجبهوا بخبره احد

الفصل السابع

الحجرة النبوية

فماد الى الجامع وقد خلا من المصلين واخذ الختبة في اطفاء المصابيح فحافت اماء ان يمتدوا من الدخول ولكنهم لما رأوا رفيقها ومعلمها فعلت انه من كبار النعم

فدخلنا صحن الجامع ومنه الى المسجد . فرأت الملائكة خالفاً فوقف الرجل ووقفت
اسماء وجلسا يفكران وبعد رهة قال الرجل « أظنه دخل حجرة امرأتى فاطمة بنت
النبي (صلم) فانها مدفونة في حجرة بازاء هذا المسجد وكثيراً ما كنا نراه يدخلها
لزيارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الانتظار ريثما يخرج »

فقلت لا صبر لي يا مولاي على الانتظار دعني أدخل البو وأخاطب فان الامر
الذي جئت من أجله يستدعي العجلة وهب اني اسأت الادب في استجباله فنتي عرف
السبب عذرتي . دعني أدخل الحجرة

فاجابها بصوت خافت « تهمل يا صاح لتأكد دخوله اليها » وشبا الموبنا وهما
حافيان لا يسمعا لمشيتهما وقع حتى انفلا من المسجد الى الحجرة من باب صغير . والحجرة
بناء مربع واطى السقف في وسطه صريح السيف فاطمة . وكان شديد الظلام الا مصباحاً
صغيراً كان منيراً فوق الصريح . فدخلنا الحجرة بتأسان والرجل ممسك بيد اسماء
وهما داخلان واحتميا محملة بفرسان وقد أصفيا والسكوت سائد على ذلك المكان
مع ما يعلو من الهبة وقد زاده الظلام ربة فوقنا لحظة لعلها يسمعا خطوة او نطقاً
او هريان شجاً فلم يسمعا شيئاً . فهالما الموقف ولم يقرأ احد منهما على الكلام ولكنهما
نفاها بالاشارات على الرجوع وفيها ما يحولان سمعا صوتاً عبقاً كأنه خارج من القبر
فاقتصر بدناهما ووقف شعراً سها والرجل لا يزال قابضاً على انامل اسماء . فلما سمعا
الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعوراً امتد الى كل جوارحه فأوما اليها ان
نصت فانصتا فاذا بالصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينها
حائط وأصفيا فاذا هوصوت علي بن ابي طالب يناجي الرسول بصوت يتخلله تحرق
وزفير . فوقنا وقلباها بخفتان وهما بمسكان انفاسها كأنها يخافان ان يختلط زفيرها
بما يسمعا . واليك ما سمعا :

« قم يا رسول الله تعهد أمتك وانظر الى ما آلت اليه حالها من بعدك لقد
بعثك الله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا
يذكر نبوة وقد كانوا على شر دين في شر دار يشربون الكندز وبأكلون الجشب
ويعبدون الاصنام ويسكنون الدماء ويقطعون الارحام . فسقت الناس حتى برأيتهم
محلهم وبلغتهم منجائهم فاستقامت قلوبهم واطمأنت صفاتهم . وجعل الله الاسلام أساً لمن

عطفه وسلمًا لمن دخله وبرهانًا لمن تكلم به وشاهدًا لمن خاص به ونورًا لمن استضاء به
وفهاً لمن غفل ولهاً لمن تدبر وعبرة لمن انعطى ونجاة لمن صدق وثقة لمن توكل . فقام
ببصره قوم دُعوا الى الاسلام فليقُ وقرأوا القرآن فاحكمُ . قوم لا يبشرون
بالاحياء ولا يعزّون بالموت . مرّ العيون من البكاء خمس البطون من الصيام ذبل
الشفاء من اللثاء . صفر الالوان من السهر على وجوههم غيرة الخاطمين . وقد كتبت
بارسول الله تأكل على الارض وتجلس جلسة العيد وتغصف نعلك بيدك وترقع
ثوبك بيدك وتركب الحمار العاري ولقد يكون السر على مالك عليه التصاوير
فتقول يا فلانة من ازيالك غيبو عني فاني اذا نظرت اليك ذكرت الدنيا وزخارفها .
وكتبت بارسول الله اذا احمرّ لباس واكجم الناس تقدّم اهلك فاني هم اصحابك
حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم احد وقتل جعفر يوم
مؤتة ^(١) . هذه هي سنك وتلك هي قدوتك . فلما فارقتنا خلفك شيخ (ابن
بكر) حارب المرتدين وأبى الدين القوم وعطفه رجل ففج الامصار ودوّث
الدوليين وشاد للعدل مناراً فاعتز به الاسلام وانتدت رابته على العراق وفارس
ومصر والعام وفر من وجهه كسرى وقبصر . والناس يومئذ مجمعون حول الدهوة
آخذون بناصرها بقلب واحد ورأي واحد حتى تولام عثمان وهو شيخ صادق الاسلام
ولكنه استأثر بالسلطة وأكثر اهله على سائر المسلمين فقاموا عليه قومة رجل واحد ^(٢)
ونجموا على نذ طاعته وأقرطوا على خلعوا لا ترهبهم خلافة ولا يخشون سلطته . كأن
الناس انما أذعنوا لأهل السابقة من الصحابة لما كانوا فيهم من الذحول والذهشة لأمر
النبوة وتردّد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحصر ذلك العباب وتنوحي الحال واستفحل
الملك أقتت نفوس المسلمين من غير قریش وهان عليهم نذ طاعة الصحابة ^(٣) حتى
بلغ من جرأتهم التمرد على الخليفة فعضت التتنة وختمت ما خوّفتهم يوم سألك عن
التنة فقلت لي « يا علي ان القوم سيقتنون بعدي بأموالهم ويمنون بدينهم على ربه
ويعمنون رحمة ويأمنون لسلطوته ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء
الساحية » . آه بارسول الله ولقد طالما نصحت لهذا الخليفة ان لا يكون امام هذه الامة
المقتول فانه كان يقال « يُقتل في هذه الامة امامٌ ينفع عليها القتل والقتال الى يوم

القبالة وليس امورها عليها وشئت الغنى فيها « ولكنه انصاع الى شاب من اهل
 قريظة (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وقضي العمر »

فما بلغ سيء الى هذا القول ثم تدبّر - يا زفير - ثم بكى بكاءً تقطع له قلباها وما
 لا يكادان يصدقان انها بسمعان عليا بكى فيها وما يحسبانه بهم بالهوس ثم سمعوا يقول
 « هذه في حال أمتك يا رسول الله - فاني اشكو اليك قوماً افترقوا بعد الغنى
 وقسوا عن اصلهم فكل منهم آخذ بقصبة من مال ما معه حتى اصبحوا الاحوال
 مضطربة والايدي مختلفة والكثرة متفرقة - يا اباك تلك صفتك (فاطمة) النازلة
 بميلارك بتضافر أمتك على هضمها - واذا اخذت ان أمتي بكما والحال على ما وصفت
 فانسخني ان احمل اليك خبر هذه العنة التي اغناها في تفرق كلمة الاسلام - فادع لنا
 ربك ان يجمع كلمتنا ويلم شعثنا ويأخذ بناصرنا فنطم مكان الخلافة منا والسلام
 عليك حتى القني »

الفصل الثامن

- * كتاب غيابة *

ثم سمعوا يقول الناعمة فعلموا انه يتأهب للهوض فاسرعا في التفتيح حتى خرجا
 من الحجرة الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء - فخف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم
 فوقفا ينتظران عليا فقال الرجل اظنه لا يخرج من هذا الباب فلتقف له بالباب الآخر
 فناديا بالعلم فائد العرس فسمعوا ومشييا وتند تند صراخا وابتهكا المثل ولم يمضيا
 قليلا حتى لفتها عليا خارجا من باب الجامع ومديلة لا يزال في يد يجمع يوهنيو وجينة
 ثم جعل يصلح عامته ويسرح لحية باامامه ومشي الهويناء كلمة طائفة من فرطويل
 فتقدم الرجل اليه وحياه فقال علي - مر - « بان ابي بكر املا بك يا محمد ما
 الذي جاء بك » - فعلت اسماء انه محمد بن ابي بكر وكانت تسمع يوهنيو - قال لقد
 جدك بقادم غريب قد انتهت اليه البحث - قال اذا لم تغزله في دار الاضياف - ابن هو
 فتقدمت اسماء والفت القبة وهي لا تزال ملثمة وقد التفت بالعمامة

فنظر علي^{عليه السلام} اليها فعلم انها متكررة لا مردي بال فقال لها ما غرضك يا احبا العرب
قالت لقد جئت ادعوك لغوث امرأة مريضة في حالة الخطر الشديد تلمس ان
تراك لتبث لك سرّاً ضنت بوطينا جميعاً
فقال ومن تكون هذه المرأة .

قالت هي والدتي واما والدي فهو من بني امية وقد جئنا بها من دمشق فحصلت
مفاتيح السفر والمرض علي أمل ان تبلغ المدينة فتطمئنت علي ذلك السرفاشند عليها
المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول
قال ابن عباس في الآن .

قالت هي في قضاء علي مقربة من هذا المكان

قال معا بن ابيها . هل ترافقتا يا محمد

قال اني في خدمتك حينما سرت واذا رأيت ان اقوم بهذا الامر فدونك لما انت
هو من الفواضل الكثيرة فعلت فبقى انت هنا

قال لا بأس من ذلك ولكنني احشى ان يكون حضوري عندها ضرورياً وهي
يا محمد امرأة في حالة المرض الشديد يجب علينا عنايةها . قال ذلك ومضى ومضى
الاثنان في اقرب ومحمد ينظر الى اماء خلسة لعله يستطلع شيئاً من امرها . وهي تطلب
الى الله ان يجعل علي^{عليه السلام} في الخطى ولكنه لم يغفر قليلاً حتى لقيه رجل هروء وعطو
امارات البشة . فقال له علي^{عليه السلام} ما وراءك يا غلام

قال لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم

فقال وكيف عادوا وقد عهدت انهم راضين بما وعدهم بو الخليفة من الاصلاح

قال لا ادري الا انهم عادوا اليها غضابي وهم يتظرونك في قضاء دارك

فقال علي^{عليه السلام} لا حول ولا قوة الا بالله . وسار وهو يهز رأسه وينظر الى محمد وكان
محمد في مثل حاله من العجب لما سمعه . فقال علي^{عليه السلام} ما بال هؤلاء القوم لا يرجعون لنا
بالآتي اري مشكلتهم هذه لا تقبل الا بشئتنا تأول الى الفضل فوالله انهم يرومون امرآ
عظيماً احشى عليه اختلال الحال

فقال محمد لا يفلو وجوبهم من امردي بال . وأمرها حتى أنها يبت علي^{عليه السلام} لرأيا
الناس عند بابو لرافات ووجدتاً بين فارس وراجل وقد طفت هوشاؤهم فلما

أشرف علي* عليهم ترجل الراكون وهرول الواقفون نحوه وفي مقدمتهم رجل لا يزال
ببواب السفر شحماً علياً فردّ النصة وقال له ما الذي عاد بكم إلينا وكنا قد فضضنا
الخلاص بينكم وبين عثمان ووعدكم خيراً

قال انه لم يعدنا إلا خداعاً . قال ذلك ومدّ يده فاستخرج انبوبة من الرصاص
فعدا ولما علي* ومشى الى مصباح مضيء عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحبة من
جلد استخرجها وقرأها فاذا هي كتاب من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيها بجلد رعاة
المصريين الذين قدموا المدينة لمطالبيو وحشهم وحقن لحام وروؤوسهم وصلب
بعضهم (١) فبغت علي* لذلك وتأمل الصحبة فاذا في ذيلها خم عثمان وكان بينهم
كلمة بهذه العبارة « لتصبرن اولئتين » ففتق انه ختمه فقال وما الذي اظنركم
بهذا الكتاب

قال برحنا المدينة بالامس على ما وعدنا هذا الرجل من الاصلاح وعدنا بامرله
فلم نكد نخرج حتى لقينا غلام عثمان على بصر من اهل الصدقة فنحننا متاعه فوجدنا فيه
هذه الانبوبة وفيها هذه الصحبة

فقال علي* انا لله وانا اليه راجعون . يا بالنا لانكاد نرتق نفقاً حتى يرى غيوس
ما الذي غيّر عثمان وحمله على هذا العمل

فقال محمد بن ابي بكر انما فعال مروان بن الحكم ابن عوف قد كان غائباً في
السام ولم يأت المدينة الا في غروب هذا اليوم ونظنته هو الذي اغرى عثمان
على ذلك

فتأفف علي* وقال تباً لهذا الغلام انه لا يدل* الا الى شر
فلما سمعت اسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالها ورفيق سفرها فازدادت كرهاً
له وقالت في نفسها فبغت الله انه لا يبرح عنقه في طريقنا وايقت ان ذلك سيكون سبباً
في حصول علي عن السير معها فكلمت محمداً

فقال لا تخف يا صاحب اتنا مغبوك . وطاطب علياً بنأها فقال له اني
اخاف اذا برحت المدينة في هذا الليل ان يقع ما نتقدم طيوساً يا محمد مع هذا
الزبل وافعل ما تراه ولم علي في كل غور يروجونه وعد اليّ بالخبر

فلم تعد تُجبرُ أسماء على الاحتاج فقنصت بما وقع مخافة ان يقع ما هو شر منه فالتفتت الى فرسها فاذا بالغلام بقوده وراءها فنهأت للركوب . وبعت محمد فاستقدم فرسه وركب الاثنان ومحمد ينظر اليها وهي تركب لعله يرى بعض ثيابها تحت العباءة اثناء الركوب فلحق من ثوبها شيئاً احمر اللون يشبه ثياب النساء . ولكنه ما زال مستبعداً حدود تلك المجساة عن امرأة

واغار الاثنان يلتمسان قباء لا يكلم احدهما الآخر ولكن محبداً كان شديد الميل الى معرفة حقيقة رفيق بعد ما انتبه يوم من حاله . فخرجا من المدينة والغلام حالك وبعد هنيهة اشرفا على قباء . فلما اطّلت أسماء على خيمة والدتها عرفتها من النار المضيئة خارجها فحنق قلبها مخافة ان يكون قد وقع في اثناء غواها ما يوجب حزناً فهزئت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد فاعجب محمد بلباسها على منه . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالها فترجلت أسماء عند باب الخيمة وترجل محمد فدخلت وهي تحمل جمال كوفيتها وتزرع العباءة عن كتفها ودنت من سرير والدتها فاذا هي قد افافت وقنصت عينها ونظرت الى أسماء بلهفة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كأنها تنتظر دخول احد وقالت اين هو علي

فخافت أسماء اذا اخبرها الحقيقة ان تحدث لما كدرأ فيزيد مرضها . فقالت لها انه آت يا اماء . واغرورقت عيناها بالدموع

اما محمد فقد كان في اثر أسماء يفرس فيها على نور الصباح فلما نزع كوفيتها رأى شعرها من الورا . طويلاً مستريلاً ثم نزع العباءة فبان رداؤها الاربعوني اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليه منطقة من جلد عريضة تعودت لبسها في السفر ففتق انها فتاة فشرع باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الا ان ينظر الى وجهها فاسرع في اثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها . وحالما وقع نظره عليها هاله غموها وفرط سقامها وانقطاع لونها وشخص عينها ولكنه التفت الى أسماء فاذا فيها فضلاً عن الجمال هبة وجلال كأنها في ملكة وجارمها فلم يبالك عن الاعجاب بها والانعطاف اليها واحسن باحساس غريب غموها



الفصل التاسع

— ﴿ ضياع السر ﴾ —

اما في فقد كانت في شاغل عن حالها بما في فيو من القلق على والدتها وكانت قد تعلمت قليلاً لما رأها صاحبة وم نمت على هودها بلا عي ولكنها ابقت ان همة لم يكن مكناً والناس في انتظاره عند منزله على تلك الصورة . ثم حولت مرم وجهها نحو محمد وعيناهما شاخصتان اليه لا تحركان الا بكفة فلم تنفيس فيو قليلاً حتى تساقطت دموعها على عذرها . فلما رأها محمد تبكي انظر قلبه فحاطها فائلاً كيف انت يا حالة

فقال الست ابن الي بكر

فلما سمع قولها انصر جسمه وابعدوها فائلاً أجل اني هو وماذا تأمرين

قالت ابن هو علي*

قال قد يعني لانيوب عنه لانه في شاغل هام فأمرني بما تريدن

قالت لا اريد احداً غير علي ادركوني يو . لا اريد احداً سواه . قالت ذلك

وظهر الكدر على وجهها

فبعثت اسماء لما سمعت والدتها تذكر اسم ابن الي بكر وشعرت منذ سمعت اسمها

من فيها بارتياح اليه ولكنها تمررت لاصرارها على استقدام علي فقالت الا تزالين تطالبين علياً

قالت لا ازال اطلبه نعم لا ازال اطلبه ادركوني يو فان في نفسي سرّاً لا ابوح

يو الا لك ادركوني يو قبل اغضاء أجلي

ف نظرت اسماء الى محمد نظره استغاثا أثرت فيو تأثراً غريباً وشعر كأن نظرها

اخترق صدره حتى وقعت سهامه في قلبه فهض للحال وقال لاسماء اذا لم يكن بدّ من

استقدام علي فاني ذاهب لاستقدامه وخرج فاستطاع جواده وهزّه يلمس المدينة وعول

على ان لا يعود الا يو

وخرجت اسماء لتتطرّف فسمعت وقع اقدام جواده يخترق السهل وتذكرت

والدها فبعثت عنه فانما هو نائم في خيمة أخرى لا يبالي بشيء فلم تكثرث يو

وعادت الى سرير والدتها وقلبا يخفق خوفاً عليها فاذا هي قد غيّرت وضعها
فصولت الى جنبها الآخر واطبقت اجناها بعض الاطباق او هي ارجعها وعيناها متوحنان
على كيفية لم تعهدها فيها من ذي قبل ورأت حديثها قد جملنا وتخصنا فخافت من
منظرها فنادت العجوز وكانت قد خرجت لفرض فقالت لها ما بال أمي قد غيّرت
وضعها وما بالي ارى عينيها شاخصتين جامدتين

فبغتت العجوز وقد ابغنت ان المريضة في حالة التزعزع وعصوفاً لما رأت
كنها يخنلج وتنفسها يسرع . فامتنع لون العجوز وظهر الخوف عليها فادركت اسماء
خوفها فصاحت بها ما بالك خائفة المل والدتي في خطر

فقال عسى ان لا يكون خطري ابنتي والانكال على الله . وخرجت مسرعة
فاضطربت القاعة وهمت يده والدتها فجسها فاذا هي ماردة جافة ونظرت الى
عينيها وقد غارتا في تجويفها وذهب لمعانها فارتعدت فرائصها وخافت خوفاً شديداً
واسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العجوز

وفيا هي تقول سمعت والدتها شخرت شخر عيفة فاجلست وعادت الى السرير
وهي تحسبها ستكلم . فانحنت عليها لتقبلها في جبينها فاذا هو بارد جاف فافشعر
جسها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبتيها ولم تكن رأت ميتاً قبل ذلك الميم
فنادت العجوز فانت فجعلت اسماء تنظر اليها وتبين عواطفها فرأها في وجل فازداد
خوفها فاعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هي فاتحة فاهها وقد برز فكاهها واتسع شدتها
واستطال وسكن اختلاج صدرها وبرز انها واستطال واتسع مخزها واكد استنفاع
لونها . فنظرت اسماء الى العجوز فرأها قد خرجت من الخيمة فتبعها فاذا هي تنادي
بزينة وصوتها يخفق فتفتت وقوع المظاور

فعادت الى السرير وصاحت يا أماء أماء فما من محيب فصفت يداً بيد ولطمت
وجهها فاذا بالعجوز عاتقة وهي تلم وتقول « حلي شمرك يا ابنتي ان والدتك قد
ماتت واحسرتها »

فحلت اسماء شعرها واخذت تصيح وتلطم وجاءها العجوز برماد لطفت به رأسها
وكان والدتها قد افاق فجاء واخذها في العويل والنوح . فجميع اهل القرية على
صباحهم وعلا النوح ولم يفعل احد منهم فعل اسماء فانها كادت تنقل نفسها لفرض البكاء

والندب واللعلم وعيناً كانوا يخفون عنها فكم التفت نفسها فوق والدتها وتوسدت
جنبها واخضت في تعيلها وهي تقول لمن تركني يا أماء ولن اشكوهي بعدك ومن يغير
علياً عن السر ومن يجهينا من غدر الخائنين آء من الزمان المل أجلك قد ساقنا الى
هذه الصحراء لنُدفي فيها ما النافذة من بقائي بعدك وقد اصممتُ بئمة فريضة لا سند لي
ولا معون

وما والدما فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعاً
وفيا م في ذلك معهم اماء يقولون « جاء علي » فصاحت صيحة ارفع لما المكان
وقالت « لقد ابطأت يا ابا الحسن ان والدتي ماتت ومات سرها معها » ثم نظرت
الى أمها وكانوا قد غطوها بهلاء وقالت لما « قوي يا أماء احصري ظاهك فقد جاء
علي قوي اليه واطلعي على شرك . قوي اشقي على ابتك »
أما علي فقد رجل وقد شغله النظر الى الفتاة عن الالتفات الى الميتة . وكانت اماء
قد توردت وجتها وذبلت عيناها وتكسرت اهدابها لما السكب عليها من الدموع .
وما زادها هيبة ووقاراً استرسال شعرها الاسود الى ظهرها وصدرها وحول كتفها
وقد غطى معظم وجهها ناهيك عن انكسارها وذلك من الحزن واليأس فابها يزيدان
المجال جذاً . وكان اكثر الناس تأثراً من منظرها محمد بن ابي بكر فانه لم يمالك
عن الكاء لما لقبة من المشل في سفرته وقد انهك جواده سوقاً واستحق علياً على القدوم
بالرغم عما كان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وطن نسة قد عاد
ظافراً فرأى الفشل ينتظر هناك

وحالما وقع نظر علي على اماء شعر بانعطاف نحوها وتوسم في طلعتها ملامح
ارتاح الى الفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف محمل الثقة لما اتفق من نعمة تلك
الفتاة وتدم ندماً شديداً لتفادع عن النبي . معها واحس بالتزام مواسها جهد طاقتو
فوقف وقفة معتبر لمصير الانسان في احوال بصره في الناس وم سكوت يسمعون وقال
« ما اصعب من دار اولها عناء واخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من
استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فائنة ومن قعد عنها فائنة ومن
ابصر بها بصرته ومن ابصرها اعنته . انظر ط الى هذا الميت فقد قبض بصره كما
قبض سمته وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين اهل ولا يسعد باكياً ولا

يجب داعياً . اطول عباد الله انكم وما اتممتم في هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم من كان اطول اعماراً وايد آثاراً فاصبحت اصواتهم هامة ورياحهم راكبة وديارهم خالية وانارهم عافية واقاموا في منازل شيدت بالتراب اهلها لا يستأمنون بالايوطان ولا يتواصلون بتواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طعنهم بكل كل الى واكنتم الجنادل والثرى^(١)

وكان علي* يتكلم والدموع تصاقط من عينيه مادة تندرج على الخنو . فاجيب محمد لما آتت في ذلك البطل من الخنو واثنت الحزن ما يكي الرجال

ولكن طلياً تجلد واخذ يخفف عن اسماء وكانت جالسة الاربعاء فتقدم اليها وامسكها يدها وقال لها نصيري يا ولدي ان الحزن والبكاء لا يجدياننا نصاً . ان والدتك قد سبقتنا الى دار اللقا . الاخير . واما ما تذكرينه من الهم فلا تخافوه لان الله وكيل بالنيام واخذ يني لك والداً ثانياً والتي منك بعد الله على علي* واصبري ان الله مع الصابرين

فهمشت اسماء وقد سقطت من يدها لمحمد دموعها بكها المسريل من معصمها فعلت ازرارها بدعورها فاحسر بفضة عن وجهها فاطرفت شجلاً واجابت طلياً وصوبها مخنقة وقالت « شكراً لشهامتك يا رجل المسلمين ووصي عائلة النبيين اني لا اشك بمواسلتك ولا ارى راحة الا برضائك لان والدتي هنا (قالت ذلك واشارت اليها وقد خفتها العبرات) قد فاضت روحها وهي تذكر طلياً وتناديه وفي صدرها سرّ ازيمت ان لا تبوح به الا له فما قد ذهب سرها معها الى القبر فيها لئلا باحت به لاحد او بالنبي المحمّد عليك بالندوم ولكن ما الحيلة وقد قضى الامر » . قالت ذلك وحرقت باستانها وعادت الى البكاء ولكنّها خفتت من اللطم والندب احتراماً لعلي اما محمد فلا تملع عا خارج قلبه من الانطاف وما احس به من الجمل الشديد الى اسماء حتى شعر ان المعصية واقعة عليه ولا يدري ماذا يعزبها ولا كيف يخفف عنها وود البقاء معها لمواسمها الى ساحة الدفن ثم ما لبث ان سمع طلياً ينادي

فقال ليك

فخلا يوجانها وقال له لا ارى ثم حاجة الى بقائي هنا وقد ماتت حاملة السرّ

فقال اجل يا عماء وانت في شغل هام من امر الخطيئة وقد آسفت لحيبك بلا فائدة
فقال اني اذا ذاهب واطيقت باهل هذه الميتة خيراً فانظر ما يحتاجون اليو
فاذا تم الفصل والدفن اوصل الفتاة والدعا ومن معها الى مفرم واذا رأيتهم في حاجة
الى الاتفاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليو على اني لا ارى والد الفتاة حزيناً الا بالاعتقاد
فقال محمد سر مجرسة الله اني فاعل كل ما تأمرني يو ولكني آسف لضياح ذلك
السرفانة لا يخلو من امر هام . فقال عليّ اني افكر في ذلك ولا ارى ما لها خلو

ثم تحول نحو المآثم ونادى بزيّناً والد اسما فجاء ووقف بين يديه وهو لا يستطيع
النظر اليو الا خلفه فلما رأى عليّ تسرفه في النظر مع رفرفة اجفائه وردد بصرو
كانه ينظر الى ما يهوه فتفق ان الرجل مراه بضمير غيور ما يظهر . لان من سلت
سريرة واخلس نية كان بصراً ثاباً صافياً مثل قلبو ولما المراتي المفاصل فانه لا يستطيع
تقديم نظره في مخاطبو ولا يفتك برف اجفائه كأنه يفكر في حيلة بقتريها . ونظر عليّ
الي يزيد فعرف انه اموي فقال له تصبر يا اخا امية انك اصبت بها يصاب يو كل ابن
انثى ولا حيلة لنا الا بالصبر

فلما قال عليّ ذلك فظاهر يزيد باليكاه

فقال عليّ لقد اوصيت محمداً ان يتولى مؤاساتكم بكل ما تحتاجون اليو واذا تزلّم
المدينة فاتم في حمانا وما اخنجم اليو قدمناه لكم
فظاهر يزيد بالشكر وم بتفصيل يدي علي

ثم تقدم عليّ الى اساءة وهي لا تزال تبكي فعزّاها واخبرها بان محمداً باق لمؤاساتهم
فبككت ولسان حالها يدل على الامتنان وان لم ينطق لسانها بكلمة . فخرج عليّ ومن
يقول لمحمد اني لا أعجب ما بين هذه الفتاة والدعا من اليون فكأنها ليست ابنة
ثم ركب جواده وودع محمداً وسار قاصداً المدينة

اما محمد فأمر خادم الجاهح باحضار من يقوم بالفصل والدفن ولكنه اعتقد بزيّناً
بعد بره فلم يجده بين الناس فذهب لغيايو وظنه في بادىء الراي قد ذهب في حاجة
نفسه فلما طال غيابه ارتاب من امره حتى اذا انطلق الصبح رآه بين الناس فلم يسأله
هن سبب غيابه لئلا يكون في سؤاله تداخل في ما لا يصبه . ثم غلبت الميتة وصلوا عليها
ودفنها واما لا تفك من اليكاه والذهب بمباراة فذهب لها الصبر

الفصل العاشر

— المدينة المنورة —

فلما عادوا من الدفن تقدم محمد الى يزيد ان يطلب ما يحتاج اليه
فتلطف في التواء وبالغ في الفكر لما لا فاء من مؤاساة
فقال محمد اريدون الذهاب الى المدينة فتزولون علينا فان علينا اوصانا بذلك
قال لقد تشغلتم بما لا طاقة بنا على شكر ولا نكف في كرم مولانا ابي الحسن
وحسن وفادته ولكن لنا اهلاً في المدينة لا يت من النزول عليهم واحاف اذا نزلت في
غير منزلهم ان يمشوا ذلك منا امهاتاً على انا حينما نزلنا اما تكون في حى ابي الحسن
فحب محمد لما آتته من لطفه وكاد يهرطه به فقال له واين بهم
اذا ركبهم بام

قال م يعمون برب الزوراء (١)

وكانت اساءة في اثناء الحديث جالسة نعيم ما يملأون وهي مطرفة خرقاً
وانكساراً وقد غطت رأسها بخمار اسود رادها حبة وجمالاً فلم ينالك محمد عن الهام
بها فلما ذكر والدها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى اساءة اذا ارجوان
لا ننسونا وبها عن لكم من الامور التمسوة منا فان سيدي علينا حفظه الله اوصالي
بكم غمراً . قال ذلك ونظر الى اساءة فرأى الدمع يقطر من بين اهدابها ويضد
على خديها وهي لا تزال مطرقة فازداد انطباعاً وحنواً لهما
اما والدها فقال له انا لا نستغي عن فضلكم فاننا اصابتنا ضيق لجأنا اليكم ولا
نبرح نذكر احسانكم الى آخر نسبة من حمانا

فقال محمد الا تحتاجون الى ركائب تحمل امتعتكم
قال ان ركائبنا لا تزال عندنا وقد بسست اليها افرهاونا حسناً بما صدقونا في
الحمل والنقل

فوقف محمد ووقف يزيد فودعه وودع اساءة

(١) الزوراء اسم سوق المدينة ويطلق على مثل الخليفة حسان ايضاً (مراد الاطلاع)

أما هي فلما وقف لوداعها تذكرت أن والدتها عرفة وذكرت اسمها وهي على فراش الموت فنظرت إليه والدمع ينالاً في عينها وقد ذبلتا وتكرست أهدابها وتنهت ولم تحب فحياها ونحوّل إلى جواده فركب وعاد إلى المدينة وقد غلى ذهنه بأساءه وانفعل قلبه بها

أما ما ظهر في حديث يزيد من الرقة فليس من عذباته ولكنه تلقى من مروان وكان قد غافل الناس في أثناء المأثم كما تقدم ويتم المدينة ليستشير مروان في ما يعله منافية أن يحمّله محمد بن أبي بكر على النزول في جواره علي وهو لا يريد ذلك لئلا يضيع ما أمّله من مصاهرة مروان . وكان لما توفيت زوجته قد شعر بنزول هذه من طريقه لآنها كانت عوناً لها على الرقص فلما توفيت تحقّق نيل مرامه وخاف مجاورة علي فذهب ليشاور مروان فلقية في منزل الخليفة عثمان فابناه بوفاء مرم واستناره في الأمر فإوصاه أن يجنال في القنص من محمد وطلة ماذا يقول من هجمات الفكر والفناء وإن يهتذر بالنزول عند أقاربهم كما فعل

وكانت أساءه مخالفة الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها وانشغالها عن الدنيا بأمرائها وبكاتها على أنها شعرت بأشجان لعلّي وإرتياح إلى محمد وأحسّت بأهها سعد عظيم لما عد الحاجة فافاً آتست من مروان أو والدتها ما لا يرضيها استنجدها ولم يكد محمد يتوارى عن قباء حتى أمر يزيد عبيداً كان مروان قد أرسلهم لخدمته ففوضوا الخيم وحملوا الاحمال وركبوا وركبت أساءه بعد أن ودعت قبر والدتها وقاعاً بنقت له الصخر وودعت خادم الجامع وامرأته وأكرمها فوق ما أكرمها بومحمد فودعهم وهما يبكيان وسار الركب نحو المدينة

فلما اشرّفوا على المسجد تذكرت أساءه لقاءها علماً هناك وما كان من اضطرابها وقلتها في الليل الغابر وناعت في بجمار التأمل . فلم يهتأ شيء من ضوضاء أهل المدينة ونجهمهم في أسواقها . وقبل وصولهم إلى المسجد مرّوا بالبحار الزيت وهو موضع صلاة الاستسقاء^(١) بقرب الزوراء فرأى الناس هناك جماعات متكاثرة وم أخلط من أهل مصر والكوفة والبصرة وفيهم الأمراء والفرسان والصياد والخدم على اختلاف ألباسهم وكل جماعة في شغل وحديث أو جدال . ثم وصلوا منزلاً وراء الجامع فناقوه واسع محاط

يسور منبع له باب فحم في وسطه خوخة^(١) وقد أقفل ووقف الحراس عند فطمتانها دار عثمان ولم يجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقفا عند فطرتا والداه هناك فعملتانه المنزل المقصود فترجلت وقد اتمت النصب والنعماس لما قامت من الجاهدة والبناء والحزن كل ذلك الليل ولكنهما لم تكدا تدخل ذلك المنزل حتى لقيها مروان فلما رأته استعذت بالله وتوسلت على مجيئها على انها لم تر بها من النزول مع والداه فلما شاهدها مروان وقد تسربت بالنوب الاسود فوقه الخمار الاود نحت وجهه زاده انكسار الحزن جمالا واشرافا ازداد تعلقا بها فتقدم نحوها مسلما ومزجا فردت عليه وردا ضعيفا وهي تود ان لا تراه. أما هو فبالغ في اكرامها وسار في خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة والداه معها وهي لا تتأق بكلمة واذا كلما أحد لم يكن غير البناء جوابا له ولما حلت بوالدها سأله عن أمل ذلك المنزل فقال مآل حرم^(٢)

الفصل الحادي عشر

—* الحيلة *

أما مروان فرأى من الحكمة ان يتركها في الغرفة لتخرج فخرج بدير وسيلة لا يرضاهما بالحصى فخطر له ان يوسط بينه وبينها نائلة بنت الفرافصة امرأة الخليفة وكانت نائلة ذات مقام رفيع لتزوجها بالخليفة على انها لم تكن من قریش بل هي من بني كلب من القطايب وكان والداه الفرافصة نصرانيا يقيم في الكوفة^(٣) وكانت عاقلة حصنة الخلق ولم تكن تزواج الى مروان لتزوق وطيشه وكثيرا ما كانت تغالطه في مشورات على زوجها حتى اتمرت مرارا وتقدمت الى زوجها ان لا يصفي اليه^(٤) ولكنهما لم تكن تبالغ في جنائوهما احتراماً لقرابته. فسار مروان اليها وكانت في اضطراب عظيم لما احاط زوجها من الاخطار فلما رأته قالت ما وراءك يا مروان

(١) الاقنالي جزء ١٥ (٢) ابن خلدون (٣) الاقنالي جزء ١٥ (٤) ابن الاثير

قال ما ورائي إلا المخبر يا خاله اني اراك في وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الملك من ايدينا ورأس ذي النورين^(١) انهم يهدون عن نيلو فقد كتبنا الى معاوية في الشام وابن عامر وروثاء الاجاد من بني أمية^(٢) نستقدمهم الى نجدتنا فاذا جاؤوا لم يستطع المصريون او الكوفيون او البصريون منا ولا منهم فيصرفون ايدي سبا

فنهدت نائلة وقالت لا اعظم يصلون اليها يا مروان ألا بعد ان تنفذ المحلة والبيعة كلها عليك فانك كبرت الخرق بطيشك

فنهك مروان ونظاير المزاج وقال سوف ترين بعينك يا خاله ان مساعي مروان في الحق وتفتقن ان هؤلاء الاعلاء مغرورون بانفسهم لا تجري يا خاله ولا تخافي اننا الفاترون باذن الله

قالت دعنا من المزاج يا مروان ان الامر جال قال بل هو أمون ما نظنين وما انا حاسب له حساباً وما يدلك على ذلك اني اهتم باسترضاء عروس جميلة جئت بها الى هذا المكان قالت يا بنة عروس

قال اسماء بنت يزيد الاموية انها يا خاله على جانب عظيم من الجمال وقد كانت في دمشق وكانت والدتها تمنع في تزويجها فانت الوالدة بالامس في قضاء نجاتها وبوالدها اليوم وانتزعتها في دار بني حزم وهي الآن نائمة للاستراحة من وعاء السفر فاقدم اليك اذا جاءتك غداً ان تقنعها يا بني كفه لما

فالت ابن نحن من الزواج يا غلام قال لا تقولي يا غلام وما شاب بطل كما فعلين واسخطك برأس امير المؤمنين ان نسترضها وهي لا شك اذا سمعت كلامك رضيت فاذا فعلت ذلك فديتك وفديت عي الخليفة بروحي

فسكت نائلة وهي تعجب لطيش مروان وخفتو على ان استخفافه بين احاط بزوجه من المنافقين طامعاً ويرد قلبها وما زال مروان بها حتى وعدته باسترضاء اسماء فتركها وخرج الى يزيد والد اسماء فاخبره بما عزم عليه ففرح وقال حسناً فعلت

وأرى ان آخذها انا الى نائلة للسلام عليها فيكون ذلك أقرب الى طلي الحمله
فقال مروان وهب انما لم تقع باسترضاء نائلة فاني حامل الخليفة على تزويجي
بها فسرّاً وما انا مخوّل عن عزمي لأنّها فتاة لا تعرف مصلحة نفسها ولا هي مدركة
مصلحة والدّها في الامر (وقد أراد مروان بذلك ان يؤكّد آمال يزيد بتولي منصب
بواسطة تلك المصاهرة)

فابرقت أسرة يزيد وقال طب نفساً يا ولدي فاني لست تاركاً هذه الفتاة تفعل
غير ما أرضاه أنا

فودعه مروان وخرج وبانت اسماء تلك الليلة لا تدري بما نصيبها

الفصل الثاني عشر

﴿ نائلة بنت الفرافصة ﴾

وفي الصباح التالي افادت اسماء مذكورة وقد رأت والدتها في الحلم فيكت بكاء مرّاً
ولم تكذب تجلس في الفراش حتى دخل والدّها ومّا بها وقبلها قبله الوالد والرياء ظاهر
على وجهه فلم تطاوعها نفسها على تقبل بكاء فلبثت في الفراش صامتة كئيبه لا تبدي حراكاً
فقال لما يزيد انهضي يا ابنتي واغلي وجهك ومّا بنا الى مولانا نائلة امرأة
مولانا امير المؤمنين ولا ريب انما ستعزيك في احزانك

فقالت دعني يا ابني واغلق باب الفرفة عليّ فاني لا ارى شيئاً في هذا
الكون يعزيني

قال قومي يا حبيبي فان الحزن يضربك ولا فائدة منه . وهي انما لا تقدر على
تعزيزك فالذهاب اليها واجب لاننا في حماها . وما زال حتى انهضها وفيما هي تغتر
للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلاً أهلاً يا ابني الجراح (١) فبغت اسماء لمشاهدته
فابتدرها والدّها قائلاً انه مولانا ام حبيبة واظنه جاء لاستفدّامك . فقال ابن
الجراح ان مولاتي تدعوك اليها وقد سمعت بما اصابك وعلت بتزولك عند جورانا

أكل حرم فبعثني لاستخدامك ومعى جارية حبشية لمرافقتك إليها
فجئمت أساء لهذا الاحتفاء وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت
شعرها وعقنته وأرسلته إلى الورا وأرخت الخمار على رأسها وتزلت بالرداء الأسود
وخرجت والجارية برفقتها ودخلت في باب موصل بين الدارين حتى اتصلت إلى دار
عثمان فرأت فيها ما يليق ببيوت الخلفاء من الطنافس والستار ونحوها ولقيت في
باحتها كثيراً من المالكة والآماء فمشت حتى انت غرة نائلة

فلما سمعت نائلة وقع اقدامها تحزرت للقائها . وحالما وصلت أساء إلى باب الفرفة
نسبت رائحة الطيب وسمعت خضفة أساور نائلة وغلاخلها وعودها ودماجها وهي
نهياً للوقوف ولم يقع نظرها عليها حتى بهرما ما على اثوابها من الطريز والزركشة
بالفضة والذهب فدخلت أساء ووقفت لها نائلة وقد اعجبت بحالها وهبتها فمشت بها
وضمتها إلى صدرها وهي تقول اهلاً بضينتنا الحبيبة اهلاً بابتنا العزيزة

فلما سمعت أساء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت يد نائلة وجلست
إلى جانبها وخرجت الجارية وبقيتا في الفرفة على حدة وأساء لا تنطق بكلمة
فصارت نائلة في مداعبتها فقالت اهلاً بابتنا الجديدة ومرحباً بها

فادركت أساء مرادها فقالت وهي تشرق بدموعها ابني الكلام تعزيني بامولاتي
دعني أبكي والله حنونة فقدتها بالأمس وإذا كنت تنفقون علي فابكي معي
فأثر ذلك الكلام في قلب نائلة تأثراً عظيماً حتى تفرقت الدموع في عينها
وهي تقول اني مشاركة لك في احزامك يا حبيبي اما ترضيني بدلاً من والدتك
فقالت ان ذلك أكبر تعزية لي على مصاتي وأرجوان لا يكون مرادك ما قد
تبادر إلى ذهني

قالت وما ذا تبادر إلى ذهنك

فاطرت أساء ولم تجب

فغالطتها نائلة ونأوهت لتأوها ثم قالت نصري يا ولدي على مصابك ان
الحزن المفرط لا يجديك نصراً ثم امرت بالطعام فذات الساط فاعتذرت أساء عن الطعام
فأتمت نائلة عليها فتناولت منه شيئاً ثم جلست تحادثها في شؤون مختلفة حتى هدأ
روحها وجعلت تتأمل ملامحها وتجب لحالها فإذا هي لا تشبه والدتها في شيء وكانت

قد شاهدته عند قدومي معها

وكانت اسماء في أثناء ذلك مطرقة وهي غارقة في بحار المالحس . فقالت لها نائلة ما بالك صامتة تكلمي يا اسماء واشغلي نفسك عن الحزن لعلك تفرحين
قالت لا ارى شيئاً يعزي في هذا العالم يا سيدتي ولا يملوني التكلم قط على اني احمد الله لما لقيتك من مواساتك فقد استأنمت بك كثيراً وشعرت بانعطاف نحوك كانعطافي الى والدتي رحمها الله . قالت ذلك وهي تسمع دموعها بالتمديد وتشفق من البكاء .

فأثرت نائلة لتلك الحالة وأجلت مخاطبتها بفأن مروان الى فرصة اخرى . ولكنها أحبت ان تصرف ذهنها عن الحزن فدعها لمشاهدة ما في بيتها من الاثاث وكثرة من العتاس والجماد وبعض الآنية ما غنية القواد الذين يخطو الشام والعراق من قصور الملوك والبطاريق واغنياء الروم والنرس وفي جملتها السحرة مرصعة واعلام ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن حاصلة النرس على عهد عمر بن الخطاب وبهها تاج كسرى مرصعاً بالجواهر وثيابه ووفاته من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ودرع هرقل ودرع طاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع التمان بن المنذر وكثير من الاماياف المرصعة . وادركت اسماء من تجمعها بعضها فوق بعض بلا ترتيب انها لم توضع هناك للزينة . ثم خرجت نائلة بها الى غرفة اخرى صغيرة رأت فيها دكة عليها فرس من ذهب فوقه سرج من فضة وعلى ثغريه ولباؤه الياقوت والزمرد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجواهر . وبالقرب من النرس ناقة من فضة عليها شبل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وطبها رجل من ذهب . فانهرت اسماء لتلك القف التي لم تر مثلاً ولكنها علمت لأول وهلة انها ليست من صنع بلاد العرب

فقالت ومن اين انت هذه القف يا سيدتي

قالت انها غنائم ابطال المسلمين ما فتى من بلاد النرس (١) وفي من خصائص بيت المال ولما غلبناها الى هنا موقفاً لا مراً اقضى ذلك وسندعها اليها فاحيث ان اطلعك عليها لانها من ابداع المصنوعات ولا تظن الزمان ولا الانسان ساء تان بطلها

فقال اسماء لقد عرفت فائمة النيجان واليهوف والدروع ولكنني لم انهم فائمة
هذه الفرس وهذه الناقة

قالت نائلة لقد اخبرني بعض من شهد فتح المدائن من امرأتنا انهم لما ففوها
ودخلوا ايمان كسرى رأوا في صدر الايمان الدكة التي كان تاج هذا الملك قائما فوقها
وطول انة كان مركزا على اسطواناتين من المرمر المذهب وعلى قمة احدى الاسطوانات
هذا الفرس وراكبة وعلى قمة الاسطوانة الاخرى هذه الناقة وراكبها . وكان الفرس
قد نزعت هذه الخلف وحاولوا الفرار بها فعاثرهم المسلمون واخذوها منهم ^(١)
فاجتبت اسماء بما رأت اعجابا عظيما . وفيما هي تنظر الى صحن الدار لحت مروان مارا
فاجلست واقبضت نفسها والتفت الى الدخاب الى غرفتها متظاهرة بالميل الى الراحة
فودعت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة . واغلقت الباب وراءها وتوسدت الفراش
ودأبت في بجانها الحواس

اما مروان فكان قد علم بمجيء اسماء الى نائلة فهذه الاستحمام عما جرى بينها لجاء
متظاهرا بمقابلة الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فراها وحدها فسالها عما جرى
فاخبرته انها لم تفانحها في شيء وانها سذهب اليها في الغد ونرى ما يكون
فانح عليها ان تستطلع ضميرها وتة لها
فودعت بائنا متدورها في الغد الى الاقامة عندها

الفصل الثالث عشر

﴿ سر آخر ﴾

وفي صباح اليوم التالي بكرت نائلة الى غرفة اسماء فوجدت الباب مغلقا فلقت
بلا استئذان فرائ اسماء لا تزال نائمة وقد اغضت جفناها وكلفتها العرق وتوسدت
احدى ذراعيها تحت عنقها وجلست ذراعيها الاخرى فوق رأسها فانحصر كرها عنها
فبان زندها وبانت هروقة مضررة كأنها خطوط منسوجة رجبها الجمال تحت تلك
البصر الناعمة وحول زندها تمت عضلاتها وامدادت حتى يقال لها ان الصحة تدفق

منه وكانت الشمس قد أشرقت فأرسلت أشعها من نافذة فوق رأس أساء فمرت
الائمة حتى اجازت قامها ولم تقع عليها ولكنها جعلت لزيدها ظلًا خفيًا وقع على
وجهها فأخفى ظل أهدابها الطويلة . فوقفت نائلة تنأمل ذلك الجمال المحلى بالصحة
وهي تخاذر ان توقفها فلمحت على معصها وشأ على شكل الصليب فاستغربت ذلك
لعلها انها مسلمة ولا يتخذ ذلك الرسم غير المسيحيين . فتفكرت فيه فإذا هو رسم صليب
لا رهب فيه ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كلل جبينها وزادها بهاءً وجمالاً
وكان أساء شمرت بوقوف نائلة الى جانبها فنورت وضعها ورفعت يدها عن
جنبها واستلقت على ظهرها فانفتح صدر ثوبها فبان من تحو فلاة من فضة قد تعلق فيها
حجاب صغير أشبه نية بجباب المسيحيين لما طرو من الرسوم فازداد نعيمها واستفراجه
وتعاطف ميلها الى استطلاع السر . وفيما هي تفكر في ذلك رفعت أساء يدها الى عينها
فمسحتها ثم فتحها فرأت نائلة واقفة عند رأسها فجلست لتوشدها فنهضت للحال وأرسلت
كفها فوق معصها واطبقت ثوبها على صدرها وقد ظهر الخجل على وجهها . ففتحها نائلة
فردت القصة وهي تمنع عرقها وتهم بالوقوف فأقعدتها وقالت استرحمي يا ابنتي اني لا
اريد ازعاجك ولم آت الا التماساً لراحتك

فأنت أساء على فضلها ودعتها للجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهي
ممسكة يد أساء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت لقد استغربت هذا الرسم على
معصك وعهدي بك مسلمة فهل رسمته على سبيل الزينة
قالت لا اعلم كيف رسمته ولا انا ذاك يوم رسم لاني كنت طيلة وقد سألت
والدتي عن سبب فلم تخبرني

قالت وما هذا الحجاب الذي في عنقك
فدنت أساء يدها الى الحجاب فاستخرجته من بين اثوابها وقالت ولا ادري ايضاً
من أين اياه

قالت نائلة ولكنه حجاب مسيحي
قالت لعله كذلك ولكنني لست اعلم لامر والدتي فقد اوصتني ان احتفظ به
منذ طفولتي
فلم تستطع نائلة شيئاً من حيلة الواقع وزدادت رغبة في البحث فقالت الا اخبريني

يا اسماء كيف اقبل اليك هذا الحجاب وكيف رسم على يدك هذا الصليب اخبريني
لا تخافي فان النصارى اهل ذمة عندنا . وزد على ذلك اني ولدت في بيت مسيحي
وكان والدي نصرانياً ^(١) فاخبريني عن حقيقة حالك وانا أعلم ان والدك يزيداً
مسلم اموي ابا عن جد

فذكرت اسماء والنتها وكفاتها اسم والدها المخيفي فتهدت وصمت
فجبت نائلة لسكوها ونسرتها وقالت لها . ما بالك صامتة . سوي لي بسرّك ولا
تخافي فانك بمنزلة ابنتي

قالت اسماء بماذا ابوح لك وانا لا اعلم من هذا السر شيئاً واعترف لك اني منذ
فقت عني وانا ارى هذا الصليب وهذا الحجاب ولا اعلم من خبرها شيئاً
قالت كيف يمكن ان يكون ذلك

قالت اسماء هذا هو الواقع يا مولاتي ولا اعلم من امرها شيئاً و وصمت
فقالت نائلة قولي يا اسماء لا تخفي سرّك عني قولي ما في ضميرك ولا تخافي
قالت ماذا اقول وانا لا اعرف شيئاً غير ما ذكرت
قالت يظهر لي من ترددك انك تخفين شيئاً

فتهدت اسماء تنهداً عميقاً ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينيها وحاولت
الكلم تخفيها العبرات فسكنت

فضممتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهي تزداد اغماً بنور طلعتها وقالت . قولي
يا ولدي قولي ما في نفسك وثقي اني حافظه سرّك عن كل انسان
فمسحت اسماء دموعها بكها وتنفس الصعداء وقالت ماذا اقول لك يا حالة
ان سؤالك قد جدد احزاني ما ذكرني والدي المسكين . قالت ذلك وعادت
الى البكاء .

فمسحت لها نائلة دموعها وقالت رحم الله تلك الالة المحنونة فانها قد خلفت
لنا ملاكاً سابوياً . قولي ما هو سرّك
قالت ان سرّي يا سيدتي قد ذهب الى القبر مع تلك الالة قالت ذلك واوغلّت
في البكاء .

فقال نائلة ألعلمها كانت تخفي السرّ منك وماتت قل ان نبوح به
قالت نعم نعم ماتت وخفّت لنا حرقه فراثها وزادت تلك الحرقه لوعة بكائها
سرّاً ذهب معها الى القبر ولكنها
قالت ولكنها ماذا

قالت ولكنها اخبرتي ان يزيداً الذي يزعم انه والذي ليس هو بالحقيقة كذلك
فيجئت نائلة وتذكرت انها توسّست ذلك فهو مذرأته فقالت وقد ظننت ذلك
فهو منذ رأيتك ورأيت فاخبرني ما علمت من تاريخ حياتك لعل استنج شيئاً منها
فقال اعلم اني ربيت في دمشق الشام منذ طفولتي وقد احتضنتني تلك المسكنة
وروجها يزيد هذا معها وكنت أظنه والذي لم علمت انها تزوجته في مصر على أثر
قدوم عمرو بن العاص اليها وكان يزيد في جنس يوم الفتح فكانت والدتي نصبة
من الغنيمة وكنت انا يومئذ طفلة بنت العام هذا كل ما اعلمه وقد انصمت على
والدتي بالاستغناء عن حقيقة والذي فوعدتني وسبها اجلها

فبهت نائلة وظلت صامئة برهة تنكر فلم تدهطع فهم شيء
وفيها ما في ذلك سمعنا وقع اقدام مسرعة امام باب الغرفة فاعتقنا فاذا يزيد
قد دخل مسرعاً وعلى وجهه امارات البهنة فلما رأى نائلة هناك تأدب في
وقوفها وحياها . فقالت ما وراءك يا أخت أمية

قال وعينه تترددان واجفانها ترفه ما ورائي الا اخبر يا مولاتي »

قالت قل ما وراءك هل من امرئنا
قال خرجت في هذا الصباح باكراً في مهمة بعثني بها مروان فرجعت الآن ولم
استطع الدخول الى هذا المنزل الا غلصة

فبهت نائلة وقد خفق قلبها وحديثها غصها بسوء كانت تتوقعه وقالت ما الذي
منعك من الدخول

قال انهم فجهروا حول منزل امير المؤمنين بجملهم ورجلهم وقد حلا فيهم
ولا ادري ما ينوون

فبهت نائلة وقالت وماذا ينوون يا يزيد . قل

قال لا ادري يا سدي واطمهم ينوون سرّاً

الفصل الرابع عشر

— حصر عثمان —

فخرجت نائلة مهرولة وبدها يتبرجج لفخامة اوراكها^(١) وخرجت اماء في أثرها وقد نهت حزبا وتشددت كأنها بهم بالعجوم في حرب حتى دخلنا الى دار هلمان وتحولنا الى أول غرفة تشرف على الطريق فأطلقنا فرأنا الناس جماعات وقد تجهزوا بالسلاح وخيولهم وعلاصياهم فاضطربت نائلة وامتنع لونها وأخذ الخوف منها مأخذا عظيما

أما اماء فمازالت رابطة الجاش وجعلت تشجها وتقول لها لا تخافي يا سيدتي فاهم لا يستطيعون الوصول الى هذه الأندار وفي محاطة بهذا السور المرتفع وإذا هم قروا بسلفنا فانتا لسلمهم بالنبال والخراب فنجبت نائلة لجسارة اماء وراجلة جاشها ونجبت بها فامسكها بيدها وتحولت بها من تلك الغرفة تريد غرفتها

ولما ما في ضمن الدار سمعنا لفظا ورأنا هناك نفرا من المهاجرين يهون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عيننا نائلة عليهم حسمت في اذن اماء كلاما يتخلله ارتعاش وقالت « هؤلاء هم كبار الصحابة قد أتوا ولا ندرى غرضهم من امور المؤمنين » وفطرت اماء اليهم فرأت عليا بينهم فحدثتها نفسها ان تخاطبه ولكن نائلة سارت بها الى اقرب حجر هناك التمسك للحنجاب واغلقت الباب وراءها فاذا ما في حجر بيتها وبين مجلس عثمان باب مقفل ونائلة لا تزال ممكنة يد اماء وقد احسنت هذه بارتعاش اناملها فقالت لها ما الذي أخافك يا خالة

قالت نائلة بصوت مخدق لقد أخافني عبيد هؤلاء فاهم قلنا جاؤونا إلا لئلا يأتوا بعد

فكانت ومن م

قالت علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وم أوجه الصحابة

ولم مطيع في الخلافة كل منهم يطلبها لنفسه . وما زلنا منذ تولواها امير المؤمنين لا يهدأ لنا بال ما يعمونه به من الاعمال . اما رأيت الناس محيطين بمنزلنا الآن فانهم اهل مصر والكوفة والبصرة قد جاؤوا لمطالبة الخليفة باسمور ما ازل الله بها من سلطان

الفصل الخامس عشر

﴿ اسباب الفتنة ﴾

قالت أسماء ماذا يطلبونه
فأدلت نائلة فأما من اذن أسماء وقالت بصوت منخفض « م يزعمون انه استأثر بالسلطة ففضل اقاربه في مصالح الحكومة فولاًم الاعمال دون سواهم وانه اكتسب الاموال الطائلة واقتنى الماليك وانه يعطي المال لاقاربو^(١) هذا ما يزعمونه ولكن الحقيقة غير ذلك

قالت وما هي الحقيقة اذاً
قالت اما استشاره بالسلطة فذلك حق من الخلافة لانه امير المؤمنين وله الامامة والسلطان . واما تفضل اقاربو فلم يكن هو اول من فعل ذلك فقد كان الرسول (صلم) يعطي قرابة^(٢) واما احرار الاموال والتوسع في المعيشة فانها حق هذا المنصب . وزد على ذلك ان امير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء . واطعم برأسه ان طعامه لنفسه انما هو الخبز والزيت^(٣) اعدت من يفعل ذلك طامعاً في الدنيا
قالت أسماء فاذا كان الامر كذلك فما الذي دعاه الى هذه الثورة

فتنهلت نائلة ثم قالت اهم يا عزيزتي انما فطرتك كذلك حسداً واني اعرف من رجاء هذه الثورة جماعة طامعون في نعم امير المؤمنين اعدوا لهم وسوس لهم الشيطان . وقد اخبرني من اتى برطينو ان الذي حرضهم على الفتنة رجل يهودي اسمه عبد الله بن سبا أسلم حديثاً واحداً يتنفل في المحار والبصرة ثم الكوفة ثم الشام يريد اضلال الناس فلم

يصفوا له فخرجوا من الغمام فأتى مصر فاقام فيها فأبى هناك اذنا واعدة فجهل يقول
لاهل مصر العجب من يصدق ان عيسى يرجع ويكذب ان محمداً يرجع فوضع لم
بدية يسمونها الرجسة فقبلوا ذلك منه ولكي يدور على طرم قال لم قد كان لكل نبي وصي*
وان علياً وصي محمد فمن اظلم من لم يحز وصية رسول الله (صلم) وزعم ان امير
المؤمنين (عثمان) وثب على وصيه واخذ الخليفة بغير الحق فقال لم « انبسط بهذا
الامر واذا ط بالطن على امرائكم واظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستهملوا
يو الناس » وكت دعائه وكانت من استغنى في الامهار وكاتبوه ودعوا في السر الى
ما عليهم رأهم وصاروا يكتبون الى الامصار كتباً يضعونها في عيب ولاتهم ولوسعوا
بذلك الارض اذا ط وبدأ الصناد من ذلك الحين فثار المسلمون في كل الانحاء
الى اهل الغمام والدينة فانهم ثبوا على ولاء الخليفة^(١) . هذا هو سر الامر بما ابني ولما
ما ذكره من احرار الاموال وتفضل الاقرباء فليس بالامر الهام

فتاشرت اسماء لذلك القول وشاركت نائلة باسها ومالت كل الميل لصنع عثمان
ومثت الاثنان نحو الباب المنفل بينهما وبين مجلس الخليفة وفي الباب ثقب ينف عن
هاك . فظفرت اسماء في الثقب فرأت عثمان جالساً في صدر المجلس على وسادة مزركشة
وقد علته البخعة واستمع لونه وأثار الجدي لا تزال ظاهرة فيه . وتأملت جيداً فرأته
مشرف الاف عظيم الارنية^(٢) . وقد حول نظره نحو الدار ويك البصرى على الحيد
يمشطها باصابعه يتشاكل بها عن مواجهه وخاتم الخليفة في احدى اصابعها وفي يده
اليمين قضيب الخليفة . وكان قد نزع العمامة عن رأسه حتى بانته صلعة^(٣) . ومثت
في بعض جوانب الغرفة رجلاً يقرأ القرآن ولم تنه . ورأت بين يدي الخليفة جماعة
من بني امية لم تعرفهم ثم سمعت وقع اقدام عند باب المجلس واذا بعثمان قد تم بالعمامة
فجعلها على رأسه ووقف لاستقبال القادمين وهو اكرام خصوصي* . فكان اول من
دخل منهم علي بن ابي طالب وحياً عثمان بقمية الخلافة قائلاً السلام عليك يا امير
المؤمنين ورحمة الله وبركاته^(٤) . ثم دخل بعده رجل مروع الى القصر اقرب رحب
الصدر عريض المنكبين اذا التفت التفت جميعاً نحوهم القوم حسن الوجه ايضاً مشرب
بالخمرة كبير الشعر ليس بالجمد القلط ولا بالسبط وقد شاب شعره فلم يصبغه فرأته

حرّاً وجلس بجانب علي فالتفت الى نائلة وسألتها عنه فقالت انه طلحة بن عبيد الله ^(١) ثم دخل في اثرهما رجل اسم اللون خفيف اللحية معتدل العضل . فقالت اسماء ومن هذا قالت هذا هو الزبير بن العوام ^(٢) ولما استتب لهم الجلوس قالت نائلة اجلسي يا ابنتي لنسمع ما يدور بينهم فصار ان يكونوا قد جاؤا لخبر فجلسنا وما نريان ونسمعان ولا يراها احد

الفصل السادس عشر

— الشورى —

فجلسوا برهة لا يطق احد بكلمة ثم بدأ علي بالكلام قائلاً « اندري لاي شيء جئناك يا امير المؤمنين »

قال عثمان « الله اعلم »

قال « يعلم الله اننا انما جئنا نريد بك خيراً انك يا امير المؤمنين ان عم الرسول الاعلى وقد تزوجت باثنتين من بناته (سلم) وتلك كرامة لم يجرها احد سواك وانت يا ابا عبد الله من السابقين الاولين وقد صليت الى القبلتين وهاجرت الهجرتين وانت اول من هاجر الى الحبشة وقد قال الرسول (سلم) بين النبي هذه يد عثمان . وتوليت الكتابة له وجمعت القرآن . فانت يا امير المؤمنين من خيرة الصحابة وقد توفي رسول الله (سلم) وهو عنك راض وبشرك بالجنة ^(٣) فلا نرضي ان تكون الامة نائمة عليك حتى يعموا بظلمك وقتلك ونحن نعلم انهم اذا تمكثوا من ذلك كانت الفتنة نعوذ بالله منها فتقسم الامة وتكون العاقبة وبالاً عليها » وكان علي يتكلم وعثمان مطرق يقلب في صفحات القرآن

فلما اتم علي كلامه رفع عثمان رأسه وقال « اني عالم بكل ذلك يا ابا الحسن ولكنهم يقتلونني وقد سمعت رسول الله (سلم) يقول لا يجل دم امرء مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلام او زنى بعد احسان او قتل نفس بغير حق فانما لم افعل

شيءاً من ذلك ولكنني اتقدم إليكم ان تدبروا عليّ»
فقال عليّ* « نرى ان مخاطب الناس فانهم قد هاجوا واحاطوا بدارك ناقبين فقم اليهم وعدم خيراً »

قال عثمان « لقد طالما وعدتهم وطأنتهم فلم يرضوا »
قال عليّ* « لقد وعدتهم ثم اخلنت ولا نعت ذلك اخلاقاً منك ولكنك اصغيت لابن عمك مروان وهو غلام لا يفتقه شيئاً فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك واعظم استرضاءك المسلمين وقد فاته ان في استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم واخطبهم »
وكانت اماء تسمع كلامها فاستخسنت اصابع عثمان واستبشرت بانفراج الازمة فلما سمعت ذكر مروان اتشعر برأسها

اما عثمان فقال « اني اقوم واخطبهم ولا يصعب عليّ ذلك ولكنني اود معرفة السبب الذي حطم علي هذه الثروة فاخبروني به فاذا كنت عطفاً استغفرت واذهبت »
فاجده الزبير قائلاً « ثم يقولون انك استأثرت بالامارة واستخدمتها لمنفعة اقاربك وجمع الاموال والاستكثار من الماليك والضيايع فانك تملك نحو مئة الف وخمسين الف دينار والف درهم ثوداً وبئها من الضيايع وقد اقتضت الخيل والابل والماليك وقد كان الفاروق (عمر بن الخطاب) يرفع ثوبه بالجلد وهذا عليّ ابن عم الرسول (صلم) يقول يا بيضاء ويا صفراء غري غوري

فالتفت عثمان الى الزبير وقد بنط كانه شعر بان الحق في جانب وقال « أنت تقول ذلك يا ابن العوام انهم حصدوا الاموال ذنباً يستوجب القتل ونحن في سوادهم تستكثر انت من الاموال الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف أمة ماعدا الدور والضيايع وهذا طلحة ايضاً فان غلته من العراق الف دينار في اليوم وله الف بعير وعشرة آلاف من الثمن وهذه داره في الكوفة ونسي الكناس^(١) وهذا زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة عديم الاموال الهافرة الملكم ورشبوها عن آياتكم ام هي مال جلال لنا جميعاً وقد غنمناها في الجهاد بنعمة الاسلام

ثم وجه عثمان خطابه الى الجميع وقال

« ألم تكن تعرف بعضنا بعضاً في الجاهلية ولديكنا نكحنا أرضاً غمر ذات ذرع ولا
ضرع ألم يكن فيها أناسٌ يأكلون الغنارب والمخافس ويغفرون بأكل وبر الأبل
يموهونه بالبحارة في الدم ويخفونه . فلما أنارنا الله بالإسلام واجتمعت عصية العرب على
الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الأرض بوعد الصدق فاهتزنا ملكهم ^(١) واستبصا
دنيام . ليس ذلك مالاَ حلالاً لنا فكيف نستوجب القتل والمخلع عليه . وإما اعطني
أقاربي فقد كان رسول الله (صلم) يعطي فرائج . ولكنني أراكم قد غرتكم مقالة
ابن سبا . . . » قال ذلك وقد أخذ منه الناس مأخذاً عظيماً حتى رقصت لحنة
فلما سمع عليّ مقالة اغضى عن الجواب عن مسألة ابن سبا لأنها تتعلق بمخافة ان
تسبب نفوراً ولكنه قال « يخال لي يا أبا عبد الله ان سبب هذه الفتنة إنما هو ما
ذكرت من استكثار المال فانه يفرق بين الأب وابنه وهذا ما حملني على كرهه حتى
قلت (يا صغراء ويا يافعا غريمي غريمي) فما إنما قد غرتكم ولكن مالنا ولهذا الجدل فقد
جئنا لتلصص حسم الخلاف وهو لا يكون إلا بمخاطبة هؤلاء الناس المبهطين بهذه الدار
ولا آمن ان يجهي ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول يا عليّ اركب الهم فان لم
افعل رأيي قد قطعت رحلك واستغنيت بمحك ^(٢) »

فقال عثمان « اني أول من انعط ولا أحب ان يهريق بمهني محب من الدم »
قال ذلك وبهض وهو يصلح عامة ويمكن برده على كنفه والفضيب يهـ ويخرج من
الغرفة وتبعه علي ورفاقه . فقالت نائلة لاسماء نحمد الله ان الامر قد قضى
قالت اسماء بورك بعليّ فان به صلاح هذه الامة ولكنني أحب ان اسمع
المخلفة يتكلم

قالت اتبعوني ان في غرفتي نافذة تطل على المكان الذي سيقف بواهب المؤمنين
فهمضنا ولبننا رهة ربنا خرج الناس وخرجنا الى غرفة نائلة وأطلبنا من النافذة
بحيث تريان ونسمعان ولا يراها احد . فرأنا عثمان قد أشرف على الجموع فلما رآه الناس
علا صخبهم ونظروا اليه فقال وصوته يخلج « ايها الناس اني اول من من انعط . استغفر
الله ما فعلت واتوب اليه فلي من تزع وتاب . فاذنا نزلت فليأتني اشرافكم فلهو في

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير

رأىهم فبأشبه لمن رآني الحق عبداً لأستب بسة العبد ولا ذل العبد وما عن الله
مذهب إلا الله . فبأشبهكم الرضا ولا تخش مروان وذوهم ولا احجب عنكم «
ولم يه كلامه حتى اخفق صوته وترقرقت الدموع في عينيه وبكى كل من سمعه
وكانت نائلة واسماء اكثرهم بكاء . ولكن نائلة حمدت الله على اخراج الازمة
ونحولت في واسماء عن النافقة

الفصل السابع عشر

﴿ اسماء ومروان وعثمان ﴾

وفيما هما يتحولا في معصا وقع اقدام قادمة نحو الغرفة ثم رأتا عثمان داخلًا وقد امتنع
لونه وهاجت عواطفه فلما رأتا اسماء همت بالخروج حياء فدعتهما نائلة للسلام عليو
فتقدمت اليو وهي مطرقة اجلالا لمقامو وهمت بتقبيل يديو فحياها وهو ينظر الى جمالها
وهبتها ثم نظر الى نائلة نظر مستهين

فألت نائلة انها ضيفة عندي يا امير المؤمنين واحمد الله ان قدومها كان خيرا
فقد حل المشكل . فتهد وهو يهت عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاها للجلوس
فجلستا وهو لا يزال يتفرس في اسماء وقد استغرب لباسها الاسود ثم قال مالي
اراهما سوداء الثياب

ألت لانها فقدت والدتها بالامس وهي قادمة من الشام فتزلت عند جدراننا بني
حزم مع والدتها

قال ومن هو والدتها

ألت هو يزيد الذي جاءنا منذ ايام
فنظر اليها وايسم اجساما لم يفر شيئا من مظاهر اضطرابو وقال « لقد جئت اهلا
ووطئت سهلا عزاك الله على مصابك »

فألت اسماء ان من كان يجوار امير المؤمنين لا يحتاج الى تعزية
فأعجبه حسن اسلوبها وقال وماذا يعاطى والدك

قالت لا يعاملني شيئاً يا مولاي

قال منتظري ما بئعة . ولم يم عثان كلامه حتى دخل مروان بئعة بلا استئذان ومعه جماعة من شبان بني أمية فلما رأته أماء اجثت وانقبضت نفسها وودت الخروج ولكنها استصمت من عثان فأتزوت في بعض جوانب الفرفة

أما مروان فانه دخل والسيف مبرح وراءه وقد ارغى رداءه تهاً وعجباً حتى اذا اقترب من الخليفة جلس الى جانبه وحياء تحية الخلافة ثم حياه رفاقة وجلسوا وم سكوت وعثان ساكت . فلاح من مروان التفاتة الى جانب الفرفة فرأى أماء جالسة هناك فسر لتفريها من نائلة املاً بان تصفي لنعيمها فتدري يا فاحب ان بين لها نبوده لدى الخليفة لعله ينال حظوة في حينها فنظر الى عثان وقال « يا امير المؤمنين انكلم ام اسكت »

فابتدرته نائلة قائلة « لا بل اصمت فاني طلقه فالتوى ومؤمن انه قد قال مثالة لا ينبغي ان يترج عنها »

فحملك مروان فيها وقال « ما انتي وذلك فطلقه قد مات ابوك وهو لا يحسن جوصاً »

فالت « مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن ابي وهو غائب تكلم طيو وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه . اما والله لولا انه عم (عم الخليفة) والله بهالة غمة لاخبرتكم عنه ما لن اكذب عليه »^(١)

وبكانت اماء تسمع كلامها وهي تكاد تميز من الغيظ ولكنها احتشمت المقام وخافت ان ينجبها عثان فصبرت نفسها لتسمع ماذا يريد ان يقول
أما مروان فاعرض عن نائلة مخافة ان تزيه قسناً ونظر الى عثان فقال « يا امير المؤمنين انكلم ام اسكت »

قال نكلم

فقال « يا بني انت وامي والله لوددت ان مقابلك هذه التي قلتها اليوم على سمع من المسلمين كانت وانت متع فكت اول من رهي بها واعان عليها . ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ المحرام الطيبين وبلغ السيل الزبي وحين اعطى الخطلة الدليلة الدليل

ووافقه لبقائه على خطيئة ويستغفر منها اجمل من توبة يخوف عليها . طانت ان شئت
تربت بالتوبة ولم تربت بالخطيئة وقد اجتمع بالباب امثال الجبال من الناس ^(١)
يريدون ان يتزعوا ملكنا من ايدينا »

وكان عثمان يسمع مفالة مروان وهو مطرق يفكر طامه ترائب حركاته وهي
تخاف ان يصني لقول مروان فأنت في اصفاء وشمرت ان الامر يعود الى اعظم
ما كان فلم تعد تنالك عن الكلام فوقفت بقامة تجعل اليان وقد زادها العيوس هبة
وحاطبت الخليفة قائلة « يا اذن امير المؤمنين لا تموت بكلمة »
قال « قولي يا بنية »

وكان مروان لما رآها حول نظره نحوها وهو يهيج لشجاعتهما ونحولت النظار
جميع الحضور اليها ينتظرون ما تنوله

فلما اذن لها بالكلام قالت « لا انكر ان وقوفي بين يدي امير المؤمنين والتدخل
في شؤون امارته بعد جسارة او تطلعا ولكني التمس لنفسي طمأنا اني اما وقتي
لا نقول كلمة في مصلحة مولاي الخليفة ولو اذني في ذلك الى احوال نفسي ونوحي .
اني يا امير المؤمنين اري في الاصفاء لقول ابن عمك هذا ايقاظا للفتنة بعد ان
نامت ومدعاة للقتال واثارة للحرب . فان تنازل امير المؤمنين لحسم الخلاف وحجب
السماء لا يحيط من قدره . ولما العمل بمشورة مروان فقد بدأ اول الى شر عظيم »
فلما سمع مروان مفاها تهم استحقاقا ولم يجيبها ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال
« كان هذا الضاء تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء وقد قبل امين ناقصات
القول » . قال ذلك وأغرب في الضحك

لمحي غضب اماء وثابت الحمية في رأسها وقالت « ان النساء مها قبل في قصص
عولن هن اكمل عقلا من برى العوبة ولا يعتبر . لقد كفناك نفيرا بامير المؤمنين
واعلم ان الذين اشاروا عليهم باهله امام غبة المهاجرين وغيرة اصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وليسوا ناصحي القول »

وكانت نائلة تسمع كلام اماء وقلها برئص طريا ولكنها خانت من طيش مروان
وتوقفت ان يغضب . فانما يو قد عاد الى الضحك وقال « لا حول انهم ناصو العل

ولكنهم مناظرونا على الحكم يريدون اذلالنا ومع ذلك فليس من شأنك المشورة على امير المؤمنين

قالت « لم اتف في حضرة إلا بأذنك وليس لك ان ترد امراً امرى هو »
فجس غضب مروان فوقف وبكى على قبضة حسام وقال « والله اني ضاربك مجد
هذا السيف فقاطعتك نصين »

فتمسك اماء باستخفاف ورفعت يدما وقد انحصر بعض كها حق بان ذلك
المصم المذبح وقالت وهي تغير اليو بسابها عديها « لا تظني اخاف حسامك اذا
جردتة ولولا حرمة امير المؤمنين لقتلتك بسيفك فاحترم الخليفة واردد يدك عن قبضتي
فما انا من بخاف السوف . ولا يفر منك اني فناء واذا اردت ان تعرف من انا فطليك
بالنزال في ساحة الوغى »

فجس الحضور لك الحماة ويهتج جميعاً لما سمعوا ما لم يكونوا يتوقعونه من
صاحبة تلك الطلعة وذلك الله

أما مروان فنجعل من توبيخها وكظم غيظه وتظاهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسه
ضاحكاً وهو يقول « لولا حرمة امير المؤمنين لعلتك معنى التزال »

قالت « كان يجب عليك ان تحترم مجلس الامر قبل ان تقبض على الحسام وما
رجوعك عن وقاحتك إلا جبن وخزي »

فهم مروان بالوقوف ثانية وقد امتنع لونه وارتعشت انامله فامسكتة خثان بكوا
واجلسه وهو يجيب لجرأة اماء وقد اعجب بها كل السامعين . اما خثان فجعل يد على
كف مروان وقال له « لم اكن اتوقع منك اطالة الجدل على هذه الصورة وكأني
بك اذا تركتك وشأناك جرّدت السيف امامي !!! »

فجعل مروان وسكت وفي نفس حرازت ونفمة
واشار خثان الى نائلة فهضت وامسكت اماء ونحوت بها من الزفة فخرجها
والناس يسمعون اماء باصاها ويهيجون بما سمعوا ويظنون من ورائها الى ابن
قامها واستمال شعرها وثبات ففها

فلما خلعت في غرفة اخرى هضت بها نائلة وقبّلها والدموع مل . عندها وقالت « بورك
فبك يا اماء والله انك قد شئت غلبي من هذا الغلام ولكنني اعلم اني سبغت الخليفة

ومجيلة على الرجوع »

قالت فلتقف هنا لعلنا نسمع ما يدور بيننا . فوقفتا فسمعتا مروان يقول له « مالنا ولا نقول النساء ان الامر جل ولا ادري اذا كنت قد قلت ما قلته عن اجبار » قال عثمان « ومن هو الذي اجبرني عليه »

قال مروان « الا ترى في ذلك حيلة لقد ربي امية كيف نستغفرم على امر نرى لنا فيه الحق الواضح . الا تعلم يا امير المؤمنين ان بني امية قاتلوا سائر قریش بل سائر العرب بخلافك فكيف نقول ما قلته على مسمع من الالوف على اختلاف قبائلهم وبطونهم . فقد اذللنا واشمت بنا الناس . ومن هم هؤلاء الذين اعذرت لم جهازاً أم يطلعوا طاعتك لانك لم تؤثرم على ذوي قرائك ولانك لم تعزل احاك عبد الله بن سعد عن مصر وتولي مكانه رجلاً بخارونه . هل كان هؤلاء الخافين على بابك الآن ان يفتلوا موقفهم هذا بين يدي ابي بكر او عمر »

فتنفس عثمان الصعداء تنفساً سمعنا زفيره فقلنا الله قد ضاق ذرعاً ما اراكم عليه من المحاجس ثم قال « وما العمل اذا »

قال مروان « العمل ان نرين لم اتنا لسا بخافين من كثيرهم »

قال عثمان « اما انا فلا اكلمهم لاني استحي ان اقول ثم ارجع »

قال انا اخرج اليهم . قال ذلك وخرج

ولم يبق عثمان كلامه حتى سمعنا وقع اقدام مروان في الدار فخصونا الى النافذة فرأناه قد وقف حتى اشرف على الناس من فوق سور الدار وقال « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم ليهب شامت الوجع الى من اريد . جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا اخرجوا عنا والله لئن رميتونا ليمرن عليكم منا امر لا يبركم ولا تحمدوا غيب رأيتكم ارجعوا الى منازلكم فاننا والله ما نحن بمفلولين على ما في ايدينا » (١) ففزع الناس حتى ملأ جميعهم النساء .

فالت اسماء في سرها تباً لك يا مروان وصاحت نائلة فبعك الله من غلام . الله والله سيهودنا الى شر ما نتوقعه . قالت ذلك ونصت عن النافذة واسماء تتبعها فاذا بجارية تناديها الى الخليفة فاعذرت من اسماء ودخلت عليه

فسارت اسماء تروا الى غرفتها وهي تتوقع ان ياتنها مروان مهدياً او متفقاً فدخلت
الغرفة وهي لا تزال ترعش من الغضب وعولت اذا جاءها مروان مهدياً ان تشدد
النكير عليه واذا تطاول فتكت به - واستحضرت خبيراً كانت تغلغ تحت الثوبها في
الاسفار - ولم يكن والدعا هناك

الفصل الثامن عشر

— ﴿ اسماء ومحمد ومروان ﴾ —

فأغلقت اسماء الباب وجلست على السرير وهي تأمل في ما مر بها في ذلك
اليومين من انواع الغرائب - فتصورت والدها وحناؤها وتذكرت كيف كانت تشك
اليها قهراً في مثل تلك الحال فغلب الحزن عليها حتى بكّت - وفيها في ذلك سمعت
مشياً امام باب غرفتها فاجلست وانفذت الخجر ونحزرت للوقوف وقد نسبت حزنها
ولبست حبيبة فلم تسمع صوتاً فظننت ما سمعته وقع اقدام مارٍ امام الباب - ثم سمعت اقراً
على الباب فوثبت اليه ونفضته وقد عجأت للقائه مروان - فانما في الباب محمد بن ابي بكر
فبغتت وغلب عليها الحياء واخطط حياؤها بامارات البخت فزاد وجهها حياءً وجلالاً
أما محمد فلما رآها على تلك الحال اجدها قائلاً ما بالك يا اسماء ما الذي اخافك
فغالطت وحنته ولم تجبه على صواله

فرد عليها القهقهة ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد اناملها ولزعاها
فقال ما بالك ترعشين وانت وحده - قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعله
يرى احداً هناك فلم يجد فازداد تعجباً

اما هي ففجأت وقالت لا شيء يجنبني يا محمد ولما في حبي الى الحسن
قال لقد صدقت ولكنني اراك في اضطراب وهاج كما نك كنت غصامين احداً
ام انت ترعدين لتدومي على غرق ولما انما فعلت ذلك طوعاً لا مكر على فانه ارسلني
لافتدك لملك غصابين الى امر

قالت بورك فيك وفيك واشكر عنايتكما في فاني بحمد الله في خير وعافيه ادعي
لسيدي ابي الحسن بطول البقاء - قالت ذلك وجلست الى السرير

أما هو فودّ أن يمكث عندها ولكنه خاف أن تستهين ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال « ولين والدك »

فتنهت وقالت لا أدري أين هو الآن

فقال ما بالك سمعتين يا أسماء اني اراك تكتمين امرًا هامًا

قالت لا أكتم شيئًا ولكنني وسكتت قال ولكك ماذا . قولي

قالت لا أدري ماذا أقول وأنا لا انظر اليك الآن وذكرْتُ والدتي المسكينة التي

ذكرت اسمك وهي على فراش الموت . قالت أسماء ذلك ونزقرقت الدموع في عينيها

فلما رأى محمد دموعها انقطرت قلبه لها واسكنها بين وجوارحه فخرج وقال « رحم

الله تلك الوالدة فاني ما برحت منذ رأيتهما وأنا في شغل لا يهدأ لي بال فلنأطيك وقد

كان يجب عليّ انا افتدك قبل الآن ولكن الشواغل المحاضرة حالت بيني وبين ما

اريد فان امر هذا الخليفة قد حوّرنا وشغل بالنا فلا تكاد نرتق فتقًا حتى ينتق غيرة

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق نصف انغلاق فلم يتم محمد كلامه حتى

رأى مروان داخلًا وملاح الغضب تلوح على وجهه وقد حمل سيفه يساره فلما رآه

محمد على تلك الحال نوسم القدر في عينيه فنظر اليه شذرا ولم يعبأ به

اما مروان فقال وقد علاه الاصفرار والغبنة « ما الذي جاء بك الى هذا المكان

يا ابن ابي بكر » . فقال محمد « ما شأنك وهذا السؤال وما انا في منزلك »

قال « بلى انك في دار الخليفة وقد دخلت على نساءنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قوله ونظر الى أسماء كأنه يستغيبها بمغزى تلك العبارة فاذنا هي

يقول بقلب لايهاب الموت

« أن مروان يتكلم من عند نفسه في ما لا يناله باعة ولو هما تطاول »

فاجسم مروان اجسام الاستخفاف وقد تعاطف غبطة وقال « سبي والدك اذا كان

باغي ينالك ام لا »

قالت « دع الآباء وارجع من حيث اتيت والآن اسمعك ما لا يرضيك »

فضح مروان وتوكل بين على سيفه وقال وبين الأخرى على شاربه « اراك

تفررين بنفسك كأنك نسيت ما نالك في حضرة الخليفة الا تعللين لك اذا بهوت

على غرورك ندمت حين لا ينفعك الندم »

فاستغرب محمد ذلك الجِدال ولكنه أدرك ما في نفس مروان فانقدت في قلبه نار الغيرة وعظم طبعه ذلك الطاول ومّ مروان يريد ضربة فاعتزضت إساءة بينهما وقالت « دعه يا محمد لأرى ما هو فاعل » قالت ذلك وتقدمت إلى مروان ويدها على خبجها كأنها تمّ باستلاله وقد انقضت حاجبها وحي غضبها حتى كاد الشرر يتظاهر من عنقها فاندلج محمد لتلك الشجاعة ولم يكن يعد مثل ذلك في النساء فأراد أن يقف بينها وبين مروان فلم تمكنه من ذلك

أما مروان فلما رأى ما كان من إساءة وإدراك أن محمداً مخبئها خاف العاقبة وكان قد قبض على حزامه وفرغ به عن قبضته وتظاهر بالضحك ومدّ به يريد أن يسلك يد إساءة ويخاطبها فجنبت يدها وقالت « اسلك حزامك وأرني شجاعتك وهذا ابن أبي بكر شاهد على المغلوب منا »

فقال مروان انظرن في أجرد حامي على فتاة أما إدراك يا إساءة فهو عندي . قال ذلك وخرج متظاهراً بالغضب وهو إنما خرج خائفاً كاخلاً وعول على الفك بإساءة غيلة

أما محمد فلما خرج مروان نظر إلى إساءة فإذا هي قد طلت وجهها مهابة أعظم الإبطال وزهد عنها ذل المحزن وضعت النساء فأعجب بما خصها به الخالق من المحبة والافتة فأمسكها بيدها وأرجعها إلى السرير قائلاً بورك بشعانتك يا إساءة ولكنني أدرك قد اهتممت بهذا الشاب أكثر مما يستحق فتركوه وشأنه

قالت وهي تحول تخفيف غضبها « أتي لا أبالي بشفتتوه والله لو أنه حمل عليّ بنة رجل مثله ما حسبت لم حساباً »

قال مالك وللإقامة في هذا المكان إذا تعالي نذهب معاً إلى منزل علي فتعطين ضيفة مكرمة

فألت « أريد يا محمد أن أفرّ من هذا المكان كلّاً وترية والدني لا أزال متعبة هنا حتى أرى ما يكون من أمر هذا الغلام الفر »

قال انحصين ذلك فراراً

قالت نعم فدعني أقيم هنا لأرى ما يكون من أمر

قال وما عليك من ذهابي وشأنه

قالت يعني طينة الذي وسع الخرق واغضب المسلمين على الخليفة ولولا حماقة
لا تفل المفل وخلف الناس من الفتنة

فصر محمد كيف يخرج بهما من ذلك المنزل وقد هما بماؤ ما هناك غيرة طمها فأخبر
ان يستطلع العلاقة بينهما وبين مروان فقال وما الذي جعل له هذه الدالة عليك مل
تصرفته قبل اليوم

فتحدثت وقد تذكرت . . . انها وقالت وهي تنفرد اتنا عرفناه من الغام وقد راقتنا
بصفتنا المشومة الى قباه ثم دخل المدينة قبلنا وهو الذي كان السبب في موت والدي
قبل وصول علي

فجيب محمد وقال وكيف سبب ذلك التأخير

قالت ان حديثنا يا محمد طويل يحتاج الى شرح ولكنني اقول بالاختصار ان
هذا الشاب قد راقتنا من الغام لمطعم كان في نفسه يصر عن ان يذالك ولولا ضعف
والذي وانما له لما استطاع المسير معنا خضوة ولكن

فقال واي مطعم

فلم تجب كأن الضعف والحماة قد طادا اليها فأطرفت صامتة

فهم محمد مرادها فازداد بنفساً لمروان وغيرة على اسماء ولم يعد يصبر
على بقائها هناك وحدها ونظراً لما يطلع من نفوذ مروان لدى الخليفة خاف ان
يوسطه في اقتناعها او استرضائها فتقبل هي يو ولو كرمها ولما تصور محمد ذلك احسن
بهوان سميت في بدنه وازداد رغبة في خلق عثمان او قتلوه . فصمت برهة يكره ثم قال وهو
يريد ان يزيد كرمها واحتماراً لمروان « اني اعرف عن هذا الغلام ما لا يعرفه سواي
فقد سمعت من اخوتي ام المؤمنين (عائشة زوج النبي) ان النبي (صلم) لصد وهو في
صلب ابو فقال لا يو الحكم بن العاص « ويل لاني ما في صلب هذا » (١١)
فاننا رجين منه بعد ذلك فاصفي لقولي وتعالني معي فقطص من وقايعه »

قالت اما الآن فلا اخرج من هنا لان في خروجي عاراً ولكنني ربما خرجت في

فرصة اخرى

فبهت محمد وهو يود ان يثبتها ما خارج قلبه من حياء ويستطلع ضميرها ولكن الحماة

والحبة معاء عن ذلك فظل برهة صامتاً وهو لا يزال واقفاً بازاء السربوطية جالسة
مطرفة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضمير وفي أكثر حياه منة فظلت صامته تعطر
ان يفتح قوا الحديث

الفصل التاسع عشر

﴿ يزيد ﴾

فقال محمد اني لا ارى عاراً في خروجك من هذا المكان الى منزل علي وهو
الذي كنتي بذلك ولا اخفي عنك ان الامرواطع على الخليفة فهو لن يجه من الخلع ان
القل وعصوماً اذا ظل مصعباً لمشورة مروان فيها بنا
فهمد في الجواب ولم تذكر فعل حتى سمعت سعال والدعائم رأياه دخل بهتة
وقد عاد من سفر فرهب فلما رآه محمد بهت وتفر من رؤيته لانه لم يكن يحسن الظن
بهو اما يزيد فخالما رأى محمداً تقدم اليه وحياءً ونظاير بالترحاب وسأله عن علي
فاجابه محمد بثل سؤالو

فقال يزيد كيف مولانا ابو الحسن

قال هو في خير

قال ألا ينوي الخروج الى الحج فقد آن اوانه ^(١) طرى الناس بأهون له

قال لا اظن يستطيع ذلك هذا العام

فالتت اساء ولماذا

قال لان خروجه من المدينة قد يوجب ارباباً كما تعلمون من اختلال الاحوال

ولكنه دعاني ان اجمع ودعني شفتي ام المؤمنين ان اخرج معها الى الحج ولا
اظني خارجاً ^(٢)

فالتت ولماذا

فلم يجب ولكنه اشار بلام وجهه انه لا يرفع باله في الخروج من المدينة طالما

كانت في ذلك المكان على تلك الحال

فادركت اسماه انة مجيها وبغار عليها ولكنها تجاهلت عفافه ان يدها والدمع
شيئا من ذلك

أما محمد فخطب يزيدا قائلا - لقد جننكم مندوبا من مولاي ابي الحسن ادهوكا
للتزول عنه اذا كنتم تريان في الاقامة هنا تعباً لجواركم من بيت الخليفة والناس
محبون وكا ترون

فقال يزيد لا اظن علينا بأساً هنا وقد فسخ الخلاف على ما سمعت
فابدرته اسماه قائلة كيف يفسخ الخلاف وصدقك مروان واقف بالمرصاد
قال وما الذي فعله

قالت بعد ان رضي الخليفة باسترضاء الفاترين واستعطافهم حرّضه مروان على
الرجوع فعاد الامر كما كان عليه وظن محمداً اعلم منا بما يتوون لانه قادم من بينهم
فهرّ محمد رأسه وقال نعم ان كلام مروان في صباح هذا اليوم قد وسع الخرق
حتى استغل الخشب ولم يعد تلافيو ممكناً وهذا ما خوفي عليكم لتقربكم من الخطر
قال يزيد وما ذا يتوون

قال اذا لم يزل هؤلاء الناس ما يرجون لا ادري ما تكون النتيجة كفا ما الله
شرّ القصة

قال والحديث والرياء ظاهران على وجهه ارام تصبوا عليه بنور حق وم اما
مجاوزه يفسون الدنيا وفهم من حقد عليه لمنهم فاتاه يذلول وآخرون لمحدث سمع
من واشير مبغض وغرم لغير ذلك ولكنهم جاؤا يدعون الدعوة على الاسلام
قال محمد (وقد أفت من جدالو) « كل يعرف ما نواه » وسكت برهة - ثم قال
والآن ألا تخرجان معي الى منزل علي قال يزيد لا نرى ثم حاجة الى ذلك الآن
فنهض محمد وودعها وخرج وفي نفس حزازات وحقد على مروان وخاف من
هتان اذا بقي على مصعة الخلافة ان يكون عوناً لمروان في استرضاء اسماه
اما في فلم يكد يوارى محمد حتى ندمت على بقائها هناك ولكن انهما لم تكن
تأذن لها بالخروج في تلك الحال

الفصل العشرون

﴿ الحيلة ﴾

اما يزيد فاستيقظ وسواس لما رأى من اخلاء محمد بابته واصبح يخاف عليها منه اذا جاءها مرة اخرى ففكر في حيلة تجبره من ذلك فاحب ان يفضله اليها فقال « ارى محمداً من جملة النافمين على الخليفة ولكني لا اظنك تعلمين سبب تسمي »
فالتت وما ذلك

قال قد طعت عن ثلة انه كان طامعاً في ولاية مصر وعليها عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخو الخليفة من الرضاة فلما لم يؤمن الخليفة على اخيه تم طموه . وقد بلغني انه كان قد ولاه مصر ووجه اليها لم يرجع عن عزمه وارجعه عن الطريق ^(١) فعاد تالماً ومكناً شأن اكرامه لولاه النافمين وقد رأيته لمحمد له بذلك فلم يجب .. فاستكنست اسماء من الطعن بمحمد وهي تفسر بالمعطاف فهي وبيل شديد اليه فسكنست . وفكر يزيد بعد ذلك في ما يأمن به فخرج اسماء الى علي فلم يخرجوا من ان يدخلها منزل الخليفة تقيم فهو محجورة . فتركها في القرية وقصد نافلة وتراى على الدوام وبكى

فقالت ما يبكيك يا ابا اسماء

قال يبكي حال ابنتي من الحزن والنوح على فقد والدتها وهي وحيدتي فلا آمن اذا بنيت مقية وحدها ان تصاب عيون وكثيراً ما اراها تمهم بالخروج الى مدفن والدتها في قباء للندب والبكاء فامسحها بالمسني فلا تمنع ولا تخفى على مولاتي طائفة الاحزان وابنتي كما تعلمين فتاة صغيرة لا تعلم من احوال الدنيا شيئاً . قال ذلك وشرق بدموعه مكرراً وخداً

فقالت نافلة وما ذا ترى ان فعل بها

قال ارى ان تكون عندك وتحت جناحك

فسرت نافلة بذلك الرأي لاها اسماء لتست باسما . وارتاحت لخدمتها والمجهد بلها معها . فقالت لك علي ذلك فأت بها اليها

قال اخاف اذا انا حملتها على الحبي . ان لا تطيق ليرط حزبا ولاها يصعد
بعد ذلك الحبيبة التي دامت نسي الظن في وقد تعرضني في كل عمل اعلم طانا ارفق
بها واسامها مراعاة لمواطنها فاذا رأيت ان تدعها انت كانت اطوع لك
قالت اني فاعلة ذلك حبا وكرامة وحمداً بالهوى والمسير اليها
فاخذرها يزيد قائلاً وانقسم اليك يا مولاي اذا اقامت عندك ان لا تأذي لها
بالدهاب من منزلك فط لاها قد تحال في الخروج لغرض تدعو ولا يكون غرضها
الا المسير الى قبا .

قالت لن ترى سبيلاً الى الخروج . فودعها يزيد ومخرج
اما اسماء فلما حلت بنفسها تذكرت مصائبها ومن اعظم تلك المصائب تسلط
والدها القادر فلما البكاء فافتت باب الفرفة واخذت تكي وتندب سوء حظها .
وفيما هي تكي دخلت عليها نائلة فلما رأها على تلك الحال تحقت قول والدها فنهت
بها وجعلت تلبها وتعرضها وقالت لها ما بالك تكي يا اسماء لقد بالفت في الغيب
وقد عهدتلك رابطة الجماش قوية الجنان وانت تعلمين ان لا فاقة من الحزن . فلم
تردد اسماء الا بكاء حتى هاجد اشجان نائلة لتذكرها حال زوجها وانظر الحق
بوفيك معها

فلما رأها اسماء تكي شكرت مشاركتها اياها بمصائبها وشعرت بعزة داخلية
وقالت ما الذي يبكيك يا سدي وانت زوج الخليفة امير المؤمنين مالك
وقاب المسلمين

فازدادت نائلة بكاء وقالت «كيف لا تعلمين سبب بكائي وقد فهمت بعينك
ما احاط بنا من البلاء يبلش ذلك الشاب الفر»
فاغضبت نفس اسماء عند الاشارة الى مرطان وتنهت تنهياً عميقاً ولسان حالها
يقول «ان ذلك الاحق هو سبب بلائي انا ايضاً ولكن الحياء منها عن التكلم
فظلمت صامدة

اما نائلة فلما سكن روعها قالت لك يا اسماء واسطة تعريفي في هذه المسألة فاذا
كنت تعطيني تعالي نعيم معاً في منزلنا
فأتسبب اسماء على ذلك التنازل ويحل لها ان حب نائلة قد يكون حرواً لها على

التخلص من مروان اذا وسط الخليفة في تنفيذ ما ربه فقالت اني طوع ارادتك يا سيدتي
لان الإقامة تحت جناحك شرف عظيم لئلي
فوقفت نائلة واسلمت اسماء فنهضت معها وسارتا الى بيت نائلة

الفصل الحادي والعشرون

- في التهديد -

قضت اسماء بقية ذلك اليوم وهي تفكر تارة في مروان وطورا في محمد وآونة في
حالها مع والدعا وقد ندمت في باطن سرها لانها لم تذهب مع محمد الى منزل علي على
انها اسماء تست بناية وارناحت الى مجالسها وكذلك نائلة فانها اتخلت اسماء تعزية
لها في ضيقها لما آمنت فيها من سداد الرأي وثبات الجاش وحسن الخلق وكانت قد
ادركت ثورها من مروان وهي ليست اقل كرها لهما ولولا قراجه من الخليفة لقرعت
له العصا ووقفت عند حده

ولما امسى الماء وتناولوا العشاء في غرفة المائنة والخدم والجواري وقفت بين
البيها والاضطراب ظاهر على وجوههم على غير المعتاد
فلما فرغوا من الطعام ونحوها الى جمرة الرقاد نادى نائلة قيم الدار فسالته عما
هناك من الخبر فأتكر اولاً ثم قال ان مولانا الخليفة لم يذق طعاماً في هذا المساء
وهو في اضطراب وارتابك شديدين

قالت وما الذي دعاه الى ذلك - قال الضيق ألم تنظري الى الناس حول
الدار وعند الابواب فابهم قد حاصرونا ومنعوا الماء عنا
فنهضت نائلة وصاحت « وكيف بمسوتنا الماء فبهم الله »

قال لقد مصوباً يا سيدتي ونحن انما نستفي الآن ما بقي في الآنة من الاس ولا تدري
اذا ظل المضار كيف نمضي وهذا هو الامر الذي دعا مولاي امير المؤمنين الى القلق
فلطمعت نائلة كفاً بكف وصاحت وبلاء كيف بمسوتنا الماء عن امير المؤمنين
ان علم هذا لا يبقه عمل المسلمين ولا الكافرين

فقالت اسماء لا يسمعك ذلك يا خالة اني ضامنة لك الاستقاء ولو نها بالغ

مؤلاء في المحار

قالت نائلة وكيف نستطيعين ذلك

قالت بهل الامر بأن يحمل الماء الى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقله سرّاً الى هذه الدار^(١).

فارتاحت نائلة لهذا الرأي ولكنها ما زالت خائفة خائفة المحار فصرفت القيم وجلست الى اماء وهي تفهد وتقاوه واساء بموّن عليها . ولم تك تجلس حتى سمعت جلبة ووقع اقدام في الدار فنهضت مسرعة ولحمتها بترجرج لسمها ولم تك تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزل بعباءته وتقلد سلاحه كأنه تأهب لسرفلا رأها سلم عليها وتقدم نحوها فاستعذت بالله من رؤيته وقالت ما الذي جاء بك يا مروان قال اني سافر في مهمة وقد جئت لوداعك . وهل تلك القاء الدمشقية عنكم

قالت في عندي وما غرضك منها اذهب في مهمتك

قال بل اريد ان اراها قبل سفري . قال ذلك ودخل الفرفة فلما رأتها اماء اجلست ولكنها ليست صامتة لا تحرك فقال لها وهو يضحك « لا تزالين على قولك في منازلتي يا اماء »

قالت وهي لا تزال جالسة لا نعباً يقولو « لو كنت رجلاً حرّاً لنازلني لما دعوتك للزّال »

قال لولم يطرأ عليّ السفر المستعجل لمعلتك كيف تؤكل الكنتف وافهمتك ان ان الي بكر لا يغني عنك شيئاً

فلما سمعت احتقاره لمجد ثارت فيها الحمية وقالت « لا تذكر رجلاً في غيبتك فاذا حضر سكت ورجعت »

فاغرب في الضحك وقال سوف ترين وتسمعين ما تندين عليّ عندما لا يزدك ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من متعصب طمعت انظاره اليو فتم من اجلو على امير المؤمنين وهاج المسلمين وحرّض على الفتنة

فاردت اساءه ان نجيبه فاشارت اليها نائلة ان تكفّ وقالت لمروان سافر يا ولدي لعل في السفر راحة لنا ولك اما لم ر في اقامتك خيراً

فضح مروان وقد حوّل مرادها الى المزاح ولمسكها يدها حتى تواريا عن اسماء
وهس في اذنها قائلاً « احتفظي بها فاني عائد قريباً لكتابة الكتاب لانها والله
جميلة واراني احبها واغار عليها بالرغم عني ولا ارى من بنات قریش اجمل منها ولا
اكمل ولكنها لا تزال صغيرة السن لا تعرف مقام الرجال »

فتركتها ماثلة ونحوّلت الى الفرقة وهي تعجب لطيفه وعيونه
فلما حلت باسماء عادت الى هواجها وفكرت في ما م فيه من المحار فلم ترَ
وسيلة للملافة التينة الا بوسط علي ولكنها تذكرت مقالة يوم اجتماعهم بالاسس وتحذيره
زوجها من اغراء مروان فحقت انه لن يقدم لصرتو فصبرت نفسها لتري ما يأتي يوم الغد
اما اسماء فاتها سرّت لخروج مروان من المدينة لعلها تتمكن في أثناء غيابها من
وسيلة تصلح بها ما افسته

الفصل الثاني والعشرون

— ﴿ التحريض على السلام ﴾ —

وقضت اسماء في دار عثمان نصة اسماع على تلك الحال كانت في اثناها نعية
كبرى لثالثة والدار عاطة بالرجال ليلاً ونهاراً وقد منعوا الماء عنها ولولا ما اشارت
يو اسماء من الاستفاء بواسطة آل حرم ' ' ' مات اهل الدار عطشاً

اما ثالثة فلم تعد تستطيع صبراً على تلك الحال فاصبحت ذات يوم وقد قضت
ليلتها باكية لما تراك عليها من الهواجس وما آتته من اضطراب زوجها وقلق وخوفه
ففكرت في الامر سلويلاً فلم ترَ خيراً من استبعاد علي فشكت مهنماً سرّاً الى اسماء
واستخفت جميعاً . فاستهلّت اسماء كل صعب في سبيل اخماد تلك التينة وافاد عثمان
من طاعتها . فقالت لثالثة اني عارضة عليك رأياً ارجوان توافقي عليه

قالت وما هو

قالت اري ان اسرانا الى علي ومروان غائباً واطلمه على جلبه الواقع فلعله

يسى في اخفاء الفتنة وهو رجل الخير وبه صلاح هذه الامة
قالت لقد رأيت الصواب وانك اذا فعلت ذلك تقلدينى جيلاً لا انساء
قالت انى ذاهبة في مساء الليلة خفية والله ولى الامر
فلما كان الغروب تزلت بلباس الرجال وتقلدت الحسام تحت العباءة وغطت
رأسها بالكوفة والعمال وخرجت من دار عثمان الى بيت نبي حرم وخرجت منه
تخترق المجموع وسارت تاتى بيت علي

وكان علي جالساً في بيته بعد صلاة الغروب وعند طلوع الزهراء وامراه المسلمين
القادمين من الامصار نفمة على عثمان وكلهم يحرضون الناس على الاقدام ولكنهم لم يجد
محمد بن ابي بكر بينهم . وشاهدت في فناء البيت جماهير الناس من اهل مصر والكوفة
والبصرة في ضجة وغوغاء . فوقفت في جملة الواقفين ولم ينسب لها احد فسمعت الامراء
يلفطون ويضجون وكلهم يقول بقتل عثمان اوخلعو علي يخفف عنهم ويوجبهم على
ما ارادوا من الشر وهو يقول « والله يا قوم لا ارى في مقتل هذا الخليفة الا تعاضل
الفتنة انكم والله تختلفون على من يلي الخلافة بعد فابقوا عليها خيراً لكم »

فانشرح صدر اماء لشهامة علي ودفاعه ولم تنالك عن الدخول فدخلت وهي
في ذلك اللباس ودنت من علي فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض
الواقفين خارجاً . فنظر اليها مستهتماً والتفت الامراء اليها فكشفت عن وجهها فلما
رأها علي عرفها فاستغرب دخولها وهاب منظرها وقد علاها الغضب وتجلت في وجهها
المهابة . فقال اهلاً بفتانتنا ومرحباً ما الذي جاء بك

فاستغرب الحضور كلامها ولم لا يعرفونها ولشئ يتظرون ما يبدو منها
اما هي فوقفت بين ايديهم بقلب لا يهاب الموت وقالت « اتسهون لثناؤي قول كلمة
في مصلحة المسلمين وتكشف لكم التناع عن حقيقة الواقع بعد ان خبرت الامر بنفسها »
قال علي تكلمي يا بنية

قالت اغلق هذا الباب وكنف الناس عن السماع

فامر علي المجاهدين ان يخرجوا من الدار واغلاق الباب وامرها بالجلوس فاعتذرت
بانها تنصل الوقوف بين يديه ثم قالت « يا معشر المجاهدين وخوف اصحاب الرسول
انكم والله شاهد اذا اردتم بامر المؤمنين شراً لظالموه وهو بري لا يستوجب قتلاً ان

خلعاً ولا اظنكم اذا قتلتموه او غلبتموه الا نادمين ساعة لا يفتح الدم
فاصفي الجميع وم يجيئون لتلك الجسارة من فتاة حديثة السن بين يدي اعظم
الصحابه ولبثا صامعين يسمعون ما تقول

فقال « اما اذا شتم اخياد الفتنة فاقطعوا اصل الشر . اقبلوا مروان بن الحكم فانه
سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة ايها الامراء بريء ما يتقوله الناس عنه وهو كما
تعلون من غيرة الصحابة شقوق رأوف ^(١) وزد على ذلك انه اذعن واعذر جهاراً
على سمع من المسلمين وكلهم سمعوه . ولكن ان عمو مروان ذلك انغلام الفر هو الذي
يفعل ما يفعله من عند نفسه فلا تقبلوا البريء بالذنب . اقبلوا مروان بن الحكم فيستقيم
الامرا ما اذا اصاب الخليفة فيه فاتم المسئولون امام الدين العظيم . قد كناكم انكم
منعم عنه الماء اربعين يوماً ولا يعلم ما يفتاسو من جراء ذلك الا الذين يعاشره »

فهبت الجميع لصاحبه اسماء وثبات جاشها وجسارتها وجعلوا ينظرون بعضهم
الى بعض وم يجيئون
فالتفت علي^ه اليهم وقال « هذا والله ما اراه يا اصحاب رسول الله (صلم) ان
عيمان اذعن واستغفر ولولا ان عمو لرقدت الفتنة وارى كلام هذه العذراء صوتاً من
اصوات الملائكة »

فقال طلحة « ولكننا لم نال جهداً في نصحو ليرجع عن مشورة ابن عمو وهو يصفي اليه
ويعمل بقوله اما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين »
فقال علي^ه « وما ادراك ان كلامه لم يكن من عند نفسه . يكفينا توبيخاً ونحن
اصحاب الرسول (صلم) ان تقف فيما السات المذارى موقف الواعظين بحرشنا
على العمل بسنة المسلمين . ومها كان من صرهم ونصيحهم فاني اكثرهم صراً عليه ولقد نصحت
مراراً وخرجت من محلو في آخر مرة وقد عاهدت نفسي ان لا انوسط في امره . ولكني
لما طلعت بمنع الماء عنه ركبت مغلفاً الى محاصريه وم ونوف على بايو ووجنهم وقلت
لم (يا ايها الناس ان هذا العمل لا يشبه امر المؤمنين ولا الكافرين ولما الاسير عند
فارس والروم يعلم ويسقى) فلم التى منهم مصفياً » . ثم وجه كلامه الى اسماء وقال
والحق يقال « ان كلاماً من هؤلاء الاصحاب قد دافع عنه وسعى في مصليو حتى ان

ام حبيبة زوج الرسول (صلم) ركبت اليه بغلتها وحملت عليها وعاء فيه ماء ونظمت انها تريد ان قتاله وتكلمه عن وصايا عده لبي امية او يملك اموال ايتامهم واراملهم فقالوا لا والله وضربا بغلتها ففترت وكادت تسقط عنها فذهب بها الناس الى بيتها ^(١) اما أنت فيورك فيك يا بنية والله انك انما جئت لخير ثم نظر الى من حوله ونادى المحسن والمحسن ابيو فجاؤا فقال « اذهبوا الى بيت امير المؤمنين ودافعوا عنه بسلامةكم وارجعوا الناس عن بابو وانت يا طلحة ارسل ابنك وانت يا زبير ارسل ابنك ايضا » فنادى كل منها ابنة . ثم قال علي « ولين محمد » فقالوا واي محمد تعني

قال اعني « محمد بن ابي بكر ابن هو » فجعلوا يتساءلون عن مكانه فلم يعثر عليه احد فتأفف علي وهز رأسه وقال « اي والله خائف ما في نفس محمد على الخليفة » فعلت اماء ان محمدا حافدا على الخليفة انتقاما من مروان فلبثت تنتظرا ما يقال عنه لعلها تعرف مفره . فلما لم يعثر عليه احد ثم قال علي لابنوه ولسا امراء الصحابة « سبروا بهرامه الله ولا تألوا جهدا في الدفاع عن حياة امير المؤمنين ورد الناس عن بابو واذا رأيتم ابن ابي بكر اندبوا اليه اي والله خائف ما بضمير »

فقال طلحة « اتظنه حافدا عليه منذ ارجعه عن ولاية مصر » ^(٢) . فنظر علي الى طلحة ولم يجيب . فهم انه لا يريد ذكر ذلك . فسار ابناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا وكلهم يلتفت الى اماء ليرى وجهه التي تتكلم مثل ذلك الكلام . اما في فصول من بين المجاهر وخرجت ولم يعد يراها احد

الفصل الثالث والعشرون

﴿ العقد المزور ﴾

عادت اماء وهي عكر في محمد وخامت ان تكون غيرة من مروان قد حملت على التثك بعثمان فعولت على مراقبة ذلك وهي في دار عثمان فاذا تحققت ما يتوهم

محمد وكان فيه اذى لغلمان حوالة عن هزمو لانها اصحبت بعد سعيها في نجاة عثمان
أكثر ضناً بجهاتو من امرأتو نائلة

أما نائلة فمكثت في البيت بعد ذهاب اماء وهي على مثل الجبر والليل قد سدل
نقابة فجلست في غرفتها تنتظر عودتها وهي تضر لها كل خير اذا جاءها بالفرج
وفيها هي تفكر في ذلك والفوضىاء تتزايد حول الدار خطر لها ان تسور الى زوجها
تستطلع حالة فخرجت الى الدار وتحولت الى غرفته فرأت مروان خارجاً من عنده
فاستعادت بالله من رؤيته . اما هو فاعترضها قائلاً لا تدخل على الخليفة انه في
شغل ارجي الى غرفتك . قال ذلك وعلى وجهه امارات الاضطراب . فلم تستطع
نائلة معارضة لانه كاتب الخليفة وحامل خيمو^(١) فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت
غرفها فدخل هو معها ونظر في جوانب الغرفة فلم ير اماء فقال واين هي اماء
قالت اماء آتية قريباً

قال أيتها خرجت من هذه الدار

قالت لا ولكنها مشغولة في امر ولا تلبث ان تعود فاجبرني ما بال الخليفة وما
الذي شغل الآن

قال لم يشغل شيء ولكنني يصلي منفرداً والقرآن بين يديه . فصدقة نائلة وصمت
اما هو فكرر السؤال عن اماء فقالت قلت لك اماء قادمة قريباً . فتركها ورجع
ولبثت هي تنتظر هود اماء بفارغ الصبر مخافة ان يعلم مروان بخروجها فتمثال
في ضررها . ولم تك تجلس حتى سمعت ضجيجاً في صحن الدار فاطلّت من خلال الباب
فرأت جمعاً داخلين وفيهم الحسن والحسين وابناء الصحابة فخافت ان يكون في قدومهم
شر ولكنها ما لبثت ان سمعت الحسن يخاطب اهل المنزل ويطلب خاطرهم وهو يقول
لا تخافوا اننا جئنا للذب عن الخليفة . فادركت انهم انما جاؤوا بمساعي اماء . وبعد
هذه رأت اماء داخله وهي لا تزال متكررة فاستقبلتها باشة واستطلعتها الخبر فطلما بها
ان الصحابة انما ارسلوا ابناهم للدفاع عن الخليفة وإرجاع الناس عن بايو^(٢)

فسرت نائلة وهدأ روحها وشعرت بنض اماء ورأت ان تسعى في اغاذاها من
مروان فاحتالت في الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ

وبصلي صائماً^(١) ولا يلفنت يميناً ولا شمالاً - فدنست منه بجفنة فاتتبه لما فقال ما الذي جاء بك يا نائلة - قالت انما جئت اخفق امير المؤمنين واخفنته ان في الدار الحسن والحسين وسائر ابناء الصحابة وقد جاؤوا بعتهم وسلاحهم يدفعون الناس عن ما بنا فقال وهو لا يزال ينظر في صفحات القرآن « لا حاجة لي الى دفاع ولا اريد ان يهرق بسدي مجحب من الدم » قال ذلك وعاد الى القراءة ففجبت نائلة ذلك وراحت ان تذكر اسماء - لدهو فلم تر سبيلاً الى ذكرها فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يفض جناها واسماء تعزبها وتنجسها ولولا ذلك لما انت فلقتا ورعباً - وقد كانت تسمع الغوغاء حول الدار وعدها بابها ولا تجرأ ان تغل

اما اسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره نظاهرت بالذهاب الى الفراش لئلا تراه تلك الليلة وبات ابناء الصحابة في الدار سهارى تارة يهددون الواقفين عند الباب وطوراً يتوعدوهم وكل اهل النصر في اضطراب وقلق الا عثمان فانه قضى ليلته يقرأ القرآن وبصلي

وفي الصباح التالي استيقظت اسماء على صوت مروان في غرفتها ونائلة جالسة الى جانبها فجلست في السرير واستماعت باهة

فقال لها مروان « ما الذي خرج بك من هذه الدار »

فقالت « وماذا بك وخروجي او دخولي »

قال « كيف لا وانت امرأتى وقد كُتِبَ كتابك عليّ »

فأجفلت اسماء اياما اجال وصاحت « غشيت يا نذل الرجال اني لا اعرفك ولا

اريد ان اعرفك دع عنك هذا المذيان »

فد مروان يئس الى جيبه واستخرج رقاً عليه كتابة وقال « اليس هذا كتاب العقد

وعليه غم الخليفة » فظرت اسماء وباتلة اليه فقرأنا الختم حقيقة فبهتتا

اما اسماء فتبسمت وهي لا تعباً بهديده وقالت « قد عرفناك قبل اليوم تزور

الكتب على لسان امير المؤمنين ان الخليفة يرى من هذه الاعمال ولم يخطئ الا لانه

جعلك كاتبة - اما كمناك ما سينت من الشر بتزوير الكتب حتى جئت لتفعل كتاب

العقد ايضاً فتزكك التزوير في الدنيا والآخرة - ان هذا البلاء كله من تزويرك ذلك

الكتاب على لسان الخليفة الى والي مصر^(١) وكان الناس قد عادوا الى ملادم فارحبهم وابتغلت القننة فارجع هذا الكتاب الى جيبك واخرج من هذه الغرفة قبل ان اذيقك الممان « قالت ذلك وقتئذ وهي تستخرج خنجرها من بين اثوابها وكان لا يفارق جنبها قط . فارادت نائلة ان تقدمها فأفلت منها واغارت على مروان تريد قتله فاطلى من ضربتها وم تجريد حسامه والعموم عليها فسمع ضجة عظيمة في صحن الدار وصوتا ينادي مروان مروان فخرج مسرعا والسيف في يده

الفصل الرابع والعشرون

— ﴿ مقتل عثمان —

ولم يلبث ان رأى الدخان يتصاعد من جهة باب الدار فظن ان الحريق قد لعب فيها فاجلج وماجلا وانتفل كل بنس فصاحت نائلة وبلاء قد احرقوا وقتلوا وهرولت مسرعة الى غرفة زوجها

اما اسماء فاطلت من نافذة الغرفة الى باب الدار خارجا فرأت الناس قد تجهرط هناك وعددم يزيد على الف نفس وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى اصيب بها كثيرون^(٢) ورأت بعضهم فجعلوا الخوذة وهموا يريدون الدخول منها وابناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدافعونهم . ورأت آخرين يرمون الامراس ليتزلزل بها الى الدار واخرين قد اوقدوا النار في السقفة فوق الباب ليجرقوها ويجرقوا الباب معا . وسمعت المجاهير يصيحون بصوت واحد « ادفعوا اليها مروان فنقتله وكفى »^(٣) فاضطربت اسماء وتحولت عن النافذة وخنجرها لا يزال في يدها وسارت نحو غرفة عثمان لعلها تنقذ بتسليم مروان فنجوه . فرأت الدار ملأى بالناس وقد دخل معظمهم من جهة دار بني حزم ورأت مروان في جملتهم وبين السيف يريد ان يدفعهم فهم عليه احدثم وضربة بالسيف على عنقه فدار دورة ووقع فصاحت اسماء « يورك فيك اذا قتلتة فانه اصل الشر كله » ولكن الصربة لم تكن قاضية بل قطع احد علباويه فعاش مروان بعد ذلك اوقص^(٤) ولكن اسماء ظلت

مات فتركته وسارت بين الجاهل الى غرفة الخليفة فرأته جالساً والقرآن بين يديه
وعنه نائلة واقفة والدموع لم عينها فتأثرت لمنظرها

ولم تك تدف حتى دخل الحسن والحسين واولاد الصحابة وفي ايديهم السيوف
مسلولة ورأت ثياب الحسن مصوغة بالدم^(١) وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب
داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك فقال لهم «اغمدوا السيوف
وارجعوا فان الله قد عهد الي عهدنا وانا صابر عليو وقد علمت ان الناس قد احرقوا
السيفه فلم يجرقوها الا وهم يطلبون ما هو اعظم » ثم وجه خطابه الى الحسن قائلاً
« ارجع يا بني ان اباك الان في شغل عظيم من امرك فاقسمت عليك لما خرجت
اليه » اما الحسن وسائر ابناء الصحابة فلم يصغوا لقوله فعادوا للدفاعه وظل هو
جالساً على مقعده يقرأ ولا يبالي بالغوغاء وليس عنده في الغرفة الا نائلة^(٢)

وكانت اسماء واقفة هناك على حدة وقلبيها يخفق خوفاً فاحسب ان رأت رجلاً
من فريش دخل عليو وقال له « اخلها / اي الخلافة (وتدعك » فقال عثمان
« ويحك والله ما كسفت امرأة في جاهلية ولا اسلام ولا تفهيت ولا تميت ولا وضعت
يمني على عورتي منذ بايعت رسول الله (صلم) ولست خالفاً فيها كسانيو الله تعالى
حتى يكرم اهل السعادة ويهين اهل الشقاوة » فخرج الرجل . ثم رأت رجلاً عرفت
بعد ذلك انه عبد الله بن سلام فوقف في الناس وقال « يا قوم لا تسلبوا سيف الله
فيكم فوالله ان سلبتموه لانتدسوا ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدره (السوط) فان
قتلتموه (أي الخليفة) لا يقوم الا بالسيف . ويلكم ان مدببتكم مخوفة بالملائكة
فان قتلتموه لتتركها »^(٣) فصاحوا فيه « ما انت وهذا يا ابن اليهودية » فسكت
كل ذلك واسماء واقفة مضطربة القلب لا تدري ماذا تعمل وكانت قد تعلمت
بما اصاب مروان لظنها انه قتل ثم ما لبثت ان رأت محمد بن ابي بكر دخل مسرعاً
ووراءه جماعة ولم يتبها وما زال حتى دنا من عثمان . فواجهت من قدومو خوفاً
لعلها بما في نفسو فقال له عثمان « ويلك اعطى الله تغضب هل لي اليك جرم الا حقه
اخذته منك » فاسكت محمد لم يجبه وقال « قد اخراك الله يا عتل » (وكان عتل
لقباً يلتقون به عثمان) فقال عثمان « لست بعتل ولكنني عثمان وامير المؤمنين »

قال محمد « ما اغنى عنك معاوية وفلان وفلان »
 فقال عثمان « يا ابن اخي فما كان ابوك ليقض عليها » اي علي لمحتو
 فقال محمد « لوراك ابي تمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اشد
 من قبضي عليها »

فقال « استنصر الله عليك واستعين به »
 فلما رأت اماء ما دار بينها خافت ان يفتك محمد بالتحلفه فيكون ذلك
 نقطة سوداء في تاريخه . فذنت منه ووقفت بحيث يراها وأشار اليه ان يكف
 عما هو فيه وان يتبعها حالاً . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج يستنهم اماء عما
 تريد . فانفردت به جانباً وقالت له من اين دخلت الدار
 قال دخلت من دار بني حزم^(١)

فقال « انت ايضا على عثمان . واخبرته انه بري بما ينسونه اليه
 ولم تكن تبين له ذلك حتى سمعت صباح نائلة فاسرعت اليها فاذا هي قد حلت
 شعرها ونشرت وعثمان يقول لها « خذي خمارك فلمعيري لدخولم علي اعظم من حرمة
 شعرك »^(٢)

ثم رأت رجلاً من دخلوا مع محمد من ابي بكر ثم بعثان وبيد حديد ضربة
 بها على رأسه فسال دمه على المصحف فتبعه آخر ليضربه بالسيف فاكتت نائلة عليه
 والتفت السيف بيدها فقطع اصابعها^(٣) . فثارت الحمية رأس اماء فهتت بمنجرها
 تريد قتل ذلك الرجل فامسكها محمد عن ذلك ولم تضي لحظات قليلة حتى قتل
 عثمان وفر قائلوه

فلما رأت نائلة مقتولا حملت بدها والدم يسيل منها وخرجت من الغرفة وهي نكي
 ونادت الحسن والحسين قد خلا فرأيا عثمان مذبوحاً مجنط بدماء^(٤) فصاحا فائلين
 كيف يقتل عثمان ونحن في داره ما الذي نوله لوالدنا اذا سالنا عن ذلك
 اما اماء فلم تنالك عن الكتمان ولكنها لتفتنها على القاتل جعلت تنظر يمنة ويسرة
 لعلها تراه فاذا هو قد فر وعماقت الناس على ميت عثمان للنهب والسلب وعلت
 الفوضىعة واشتغل كل بنفسه

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) الاغانى ج ١٥ (٣) ابن الاثير ج ٢ (٤) العقد الفريد ج ٢

الفصل الخامس والعشرون

* محمد واسماء *

أما محمد لهم باسماء واسمها يدها وقال اتبعيني فتبعته حتى خرج بها من الدار وهي تود البقاء لتري ما يكون من حال نائلة ولكنها راقت محبداً طويلاً لجل قلبها . فلما رأت نفسها خارجاً ومحمد مسك بها تذكرت ليلة خلت يو في قبر النبي ولم تكن تعرفه فهاجت اشتجابها فوقت بغنة فجدبها محمد فتبعته حتى وصلا الى خلوة بازاء نخلة عظيمة فوقت في ظلها وجذبت يدها من يد وقالت الى ابن غنن ذاهبون يا محمد قال هل ترين لك ما رأيت في دار عثمان بعد . لقد نصحت لك ان تخرجي منه منذ ايام فلم تقلي حتى رأيت قتله بعينك وهذا ما كنت اخافه عليك

قالت انكم ظلمتموه يا محمد ولو استطعت اتقاه من ايديكم لنعلت تباً لمرؤان انه سبب هذا البلاء . قالت ذلك واغرورت عيناها بالدموع

فقال محمد دعينا من الظلم والعدل فقد قتل عثمان ولا خيرة في الواقع ولم يعد بقاؤك في داره ممكناً والناس قد دخلوها وفجروا بهمها . فاضمى الآن عن رأيك ان الوقت ضيق والامر جل ولا استطيع البقاء معك الا قليلاً

قالت وماذا تريد مني

فامسكها يدها وضغط على امامها وقال ألا تعلمين ما الذي اريد

قالت نفسي تحبتي وسكنت

قال ارجوان يكون قلبك محبتي لا نفسك . قولي حالا

قالت يظهر لي ان مقتل عثمان لم يهلك . اني والله لا استطيع تذكر حاله وقد

فاره ناله والدم يجري من عنقه

ه تنهد محمد وقال أظنني لم آسب لموت

فأرأت لا اظنك آسماً وانت المادي بالقتل . والله لو لم يسق الى قلبي سائق

. ما استطعت النظر اليك

قالت اريد محبتي وما هذا وقت التوبيخ ولو شرحت لك سبب هذه الفتنة

لعل بنا المتام ونحن في حال تدعو الى المبادرة ولكنني سوف ابطل لك حقيقة الواقع فتعذريني . وأما الآن فاني مسرع الى منزل علي لاني اتوقع خلافا عظيما يتبع بين الصحابة ولا بد لي من حضور مجلسهم . وأما انت فلا أرى ان تبقى هنا والحال في اضطراب

قالت اني صابرة حتى اسمع عذرک في قتل خليفة الرسول فان لم ار ما تُعذر به علي قتلوه وسكنت وفي تنظر الى الارض حياء ما كاد ينطق به لسانها فاعجبت حرة فهدرما وصحة مبداءها وتبسم وازداد ميلها وقال « اني وانني بائي سأ برى نفسي من تبعه القتل ظلما فاصبري حتى نجتمع على سكونه واذهي الآن الى ما من »

قالت الى اين اذهب وانتعتي وجوادي لا تزال في دار عثمان قال لك علي فخلصها أما ذهابك فلا اقول الى اين قبل ان اعرف فهدرك فهل انت فاعمة مرادي . قالت وما مرادك

قال اقول لك بالاختصار اني احبك فهل انت لمحبي فعلت وجهها حرة الخجل واراحت النقاب على وجهها ولم تجب قال انك لم تر يدبي بهذا الخجل الا ثقة بحبك . فاعلي يا اساء اني عازم على ان ارجعك من اتعابك واخلصك من والدك او الذي يدعي انه والدك . وقد تركك منذ ايام ولا اظنك تعلمين مقرو . أما مروان فلا فضل لي في اتاذك منه وقد نال نصيبه

فلم يكذب بذكر اسم مروان حتى نهبت اساء وقالت فجع الله مروان انه سبب هذا البلاء وقد كنت اود اني قتلت يدي لاشفي ظلمي منه

قال لا اظن قتل فقد تركته في الدار يمصب عنة على اثر جرح اصابه دهننا منه ومن اسوء . أما والدك الشيخ الفر فلا اظن يجرأ على الظهور بعد مقتل عثمان وارجوان لا تدعو والدك بعد الآن فانه بعد عن هذا القلب بعد الارض عن السماء . وما اني ذاهب الى بيت علي وهو الذي جلي الخلاف لانه احق بها من الجميع . ولكنني لا اظن هنا الا بعد خلاف عظيم فلا آمن اذا كنت في منزلي من شر يصيبك فاني ان اذهب بك الى ما من تبين فهو حتى عهدا الاحوال فتمش معا باذن الله

ألا ترين ذلك

فاطرت اسماء وقد هاجت اشجانها وتذكرت والدها وهي لم تأسف لفرافو لكنها اسفت لفرافها نائلة في حال حربها واضطرابها وزوجها ملقى على الارض قتيلًا . على انها شغلتها بما يجالج قلبها من حب محمد وهو الذي اول ما رأته أخته مجرد ذكر والدها اسماء واصبحت بعد ما علت من منزلته عند علي وانه ابن اول الخلفاء شديدة الميل اليه فظلت رمة صامتة بهم بالكلام ويمتصها الحياء وقد ذهبت منها تلك الجراءة وانتشأت تلك المحبة التي كانت تسحر بها اعظم الرجال وشعرت للحال بخفتان قلبها وهياج عواطفها فابرت اسرتها وتلايلات عيناها وكأن لسان حالها يقول « ان الله قد يهدي ولكنك نظرت الى حربي فحببني الى غيره ابناء الصحابة »

فأدرك محمد انها تكتم حبه فلم يشأ ان يضغط على عواطفها . فقال لما قد لمعت مرادك يا اسماء وفي نيتي الآن ان اذهب بك الى احدى ذوات قرابتي في بعض اطراف المدينة تعين عندها ربنا تنفسي الازمة التي نحن فيها ونعهد الخلافة الى علي ف يرجع الامر اليها ويعود السلطان الى قبضتنا فنقيم في رغد وهناء باذن الله . قال ذلك ومشي فمشت وهي لا تتكلم حتى انتهي بها الى منزل في طرف المدينة فدخلت واذا فيه امرأة عجوز لم تكن ترى محمداً حتى همت بو وقبلته ورجعت بو

فقال لما لقد جئت بك باعر شيء عندي ارجو ان تحفظي بها ثم حول وجهه الى اسماء وقال امكثي هنا يا اسماء ربنا اعود ولا تضجري اذا طال غيابي

فقال لا تندربي بطول الغياب اذ ربما لا استطيع صبراً على البقاء هنا فقالت العجوز أعلك خنث الاقامة عندنا يا ابنتي والله اني اكثر عناية بك من ولدي هذا — وأشارت الى محمد ثم اخذتها يدها ودخلت بها وودعها محمد وخرج

الفصل السادس والعشرون

— ﴿ مدفن عثمان ﴾ —

فلما حلت اسماء بالعجوز احسّت بالوحشة فالتصمت غرفة دخلت اليها لتقلو بنفمها فلم تكن تفعل حتى تصورت عثمان مطروحاً ونائلة واقفة فوق رأسه وقد حلت شعرها

واخذت تلطم خديها وتندب زوجها . فلما انصورت اماء ذلك اقشعر بدنهما وندمت
على مجيئها ومغادرة نائلة في تلك الحال

فقضت بقية ذلك اليوم منفردة كتيبة ولما اوى المساء توسدت الفراش تلتبس
النوم فلم يفيض جنبها ولا غابت صورة دار عثمان من امامها

فقضت ليلتها تنقلب على مثل الجمر نارة تنكر في محمد وطورا في والدها وهي لا
تعرف ابن هودا ونة في عثمان ونائلة حتى مضى هزيع من الليل فقلب عليها الناس
فنامت فاصبحت في اليوم التالي وضهرها يبكها على هجرها صديقها نائلة في ساعة الضيق
وحديثها نفسها ان تسهر اليها ولكنها خافت ان يجيء محمد في اثناء غيابها فيفيض
فمضى النهار ولم يأت محمد فانشغل بالها عليه على انها التمس الفراش باكرا لعلمها
بنام فتعوض عن سهرها بالامس ونسى هواجها فلم تنم الا لحظات متقطعة

واغمضت جنبها عند الفجر فرأت طيف نائلة في حالة يرثى لها من الكآبة والحزن
وقد احمرت عيناها وقطع شعرها من البكاء والندب واللطم . فلما تخيلتها اماء على
تلك الحال ثلب الخجل عليها وشعرت ان خيال نائلة يوبقها على خروجها من عندها
في ذلك الحزن فافافت مدعورة باكية وقد بلل الدمع وسادها ف نظرت الى
الماء فرأت الشمس قد طلعت فعولت على المسير الى دار عثمان تنفذ حال نائلة
من بعدها ولكنها تذكرت ان محمدا اوصى العجوز بالاحتفاظ بها فخافت اذا ارادت
المخرج ان تمنعها فقضت ذلك النهار قلقة مضطربة وهي تردد بين الذهاب والبقاء
حتى اوى المساء وذهبت الى منامها فجعلت تنقلب على الفراش كما بها توسدت شوكا
فانقضى نصف الليل ولم تطبق جنبها قلعا على نائلة وحالها حتى اشتد بها القلق ولم تعد
تستطيع صبرا فنهضت ولبست ثيابها وتقلدت الخنجر كما دعتها في مثل هذه الحال
وافلقت تطلب دار عثمان على عجل وهي لا تشعر ببرود لان الوقت كان صيفا ^(١)
وجعلت طربها في اطراف المدينة لئلا يراها احد على انها لم تكن تخاف رقبيا وقد
سرت وجهها بالنقاب

ولم تكك تمشي هنيئة حتى رأت اشباحا تفرست فيهم فعرفت من قهاقهم انهم من

(١) لان عثمان قتل في ذي الحجة سنة ٣٥ للهجرة بلا خلاف وعمره اقل شهر يونيو

(حزيران) سنة ٦٥٦ م (التقويم العام)

بني أمية يهرعون بين راكب وماشي فراراً من المدينة كأن احداً بطاردم . فسارت
مهاذبة لبعض الجدران حتى مرّت مخافة ان يكون مروان معهم فيعرفها وقد طست
ببقائوها بعد تلك الضربة . فطال بها المسير ولم تصل دار عثمان لانها كانت تجهل
الطرق فارادت الرجوع الى منزل العجوز فلم تعد تعرف الطريق . وكان العجوز قد دنا
وطلع الشفق فجهل لها انها اذا اشرفت على المدينة من مرتفع فكنت من تعين مكان
الجامع فاذا عرفت عرفت منزل عثمان . فقولت نحو سور المدينة في مكان خارج البقع
وهناك ارض مهجورة قل من يمر فيها . ولم تك تدرك المكان حتى رأت بضعة
عشر رجلاً مهرولين عن بعد وفيهم اناس يحملون لوحاً طليو شي . فظنهم من جملة
المارين يحملون ائمة طمهم انما طلبوا ذلك الطريق البعيد خوفاً من العيون .
فتنصت الى زقاق ضيق واستمرت بخلة بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها
عرفت منهم اناساً في جلهم مروان وعبد الله بن الزبير وكانت قد رأت في جملة
من جاء للدفاع عن عثمان^(١) من ابناء الصحابة . فلما رأت مروان بالغت في الاتراء
وتطلعت الى ما يحملونه فاذا موجة مطروحة على باب وجهيها حارية ترقع الباب
لاسراعهم في السير من شدة الخوف^(٢) ورأت تحت الجبهة لحية كبيرة غضة مصفرة
عرفت انها لحية عثمان . وتأملت الثياب فاذا هي ثيابه ولا يزال الدم عليها^(٣) فلم
تسك ان الجثة جثة . فمخّط قلبها وارتعدت فرائصها لما لحق بهذا الخليقة من الالهانة
بعد موتها . وادركت من وجودهم هناك في تلك الساعة انهم خرجوا يولوا لولا موت
والدها فتأملت لانها دفنت مكرمة . وليئت مسترة وراء النخلة تنظر الى تلك الجنائز
الحزنة فاذا بهم لما وصلوا الى حائط هناك يقال له حش كوكب^(٤) خرط له حطب
دفنوا فيها وم ينظرون الى ما ورائهم خوفاً ورهبة

فصبرت ريثما تفرط وسارت حتى صعدت الى مرتفع اطّلت منه على المدينة
فاشرفت على جامعا فاذا هو بعيد عنها كثيراً فجلسة وجهها ونزلت تحتق الاوراق
فلم تجد فيها الا قرأ قليلاً فخافت ان يلاقها محمد وهي في تلك الحال . وما زالت
حتى وصلت منزل عثمان والشمس قد طلعت فرائها موصداً فالتفت باب بني حرم

(١) ابن الاثير ج ٢ (٢) العقد الفريد ج ٧ (٣) تاريخ الحمير ج ٢

(٤) ابن الاثير ج ٢

فرأته مغلقاً فتنبصت فلم تسمع صوتاً فوقفت برهة ثم قمت بالباب ففرعته فلم يجيبها احد فأحاطت القرع فأحبل عليها رجل من كوة فوق الباب عرفت انه من خدم عثمان فلما رأته أومأت اليه ان يفتح . فلما عرفها فتح لها فدخلت وسأله عن مائته فأومأ اليها ان لا تتكلم وسار امامها فتبعته فدخل بها غرفة رأت فيها نسوة احطن بناطلة وهي لا تزال محمولة الشعر كما رأها في منامها بالامس

الفصل السابع والعشرون

﴿ فيص عثمان وأصاب مائة ﴾

فحالما وقع نظر مائة عليها صاحبت بها قائلة ما الذي جاء بك يا اماء يا حبيبي العلك آتيت ليري امير المؤمنين . فقد فانك ما لاقاه من اكرام المسلمين بعد موتو . قالت ذلك وأوغلت في البكاء

اما اماء فألقت نفسها على مائة ولم تتالك عن البكاء والتهنيق وهي تقول ان خسارتك يا خاتمي خسارة المسلمين كافة لقد فسد امرهم بعد عثمان لانهم سفكوا دماً بريئاً بجوار قبر الرسول (صلعم)

فأعلمت مائة غيبتها بكفها وإذا باحدى يديها معصوبة فتذكرت اسماء انها اليد التي اصيبت بالسيف ففطمت امانها . وقالت مائة يا ضيعة تعك يا اماء ويا خيبة ما املناؤ من سعيك لقد غشونا والله وغدروا بنا فارسلوا اولادهم للدفاع عنه وبعثوا يقتلونه مع آخرين . ألم نري ان ابي بكر قبض على لحيتو رحمه الله

فلما سمعت اسم محمد تأسفت لانه فعل ذلك ولم تجد ما تدافع به عنه فسكنت وهي تفكر في عبارة تعزها بها فلم يفتح عليها . ولكنها قالت اصبري يا خالة ان الله مع الصابرين وقد كنت بالامس تعزيتني وتصبريتني فأنت اولي مني بالناس بالصبر

فصاحت مائة يا اماء كيف اصروا وقد قتلوا عثمان قتلاً لم نسمع بمثله اين منه موت والدتك رحمه الله فقد ماتت وصلوا عليها ودفنوها مكرمة اما هو فقد طعنوا في صدره ثلاث طعنات وضربوا على مقدم الجبين ضربة اسرعت في العظم والله اني لا ازال اسمع صوته يرن في اذني وهو يقرأ القرآن لا يبالي بما يفعلون

وأظنك رأيتني وقد سقطت عليه وم يهون به وفيه بقية والمني عليه يريدون قطع رأسه لا ادري ما ذا يريدون به حتى أتت هذه الفتاة بنت شيبه (قالت ذلك وأشارت الى فتاة بجانبها) قالت نفسها معي عليه وكنت قد خرجت فتوطأنا وطفاً شديداً وعزبنا من ثيابنا وحرمة امير المؤمنين اعظم فقتلوه رحمة الله عليه في بيتي وعلى فراشه (١) ثم انتهت تنهداً شديداً وقالت « ولو اكتفى بذلك لكان خيراً ولكنهم منعوا الناس ان يصلوا عليه وقالوا لا يدفن في مدافن المسلمين (٢) كأنه كفر او كان من المشركين . جزام الله بما فعلوا . فظل في بيتنا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن نبكى ونبكي الاسلام من بعد ولولم نلق اخواننا من اهل القبر بمحلوته بعد منتصف الليل خلصه لظل غير مدفون . وكم ساء لي ما اصاب الذين قتلوا معه فقد جرؤم بارجلهم ولعلمهم القوم على القتل لنا كلهم الكلاب واما والدك المسكين فلا ادري اذا كان قد اصابه مثل مصابهم

فلما سمعت اسما . ذكر والدها اقشعر بدنها ومنع لونها وصاحت وماذا اصاب والدي قالت أما علمت بما اصابه وقد كسيت في الدار معنا . قالت لا . ما ذا اصابه قالت سمعت انه قتل مع الخليفة في بعض جوانب الدار فطمعت اسما وجبها وصاحت ويلاء وأثناء . وأوغلت في الكاء . وبهضت مدعورة وقالت ابن هو الآن . اروني والدي اين هو

ولم تكن نائلة تتوقع من اسما حزناً شديداً على والدها لما فعله من حديتها عنه أما اسما فأخذت في الكاء والنوح والنساء هناك يحضن عنها فقالت لها نائلة نصيري يا ابنتي ان له اسوة بأمر المؤمنين وسوف يلتقيان ربهما معاً ولكن الله سيقيم من القوم الظالمين . ان الخليفة قوماً يأخذون بثأر ويؤثرون في امية جميعاً نعم انهم لم يدركوه حباً ويدفعوا عنه القتل (٣) ولكنهم سوف يطالون بثأره اذ رأوا قبضة الملوث بالدم واصابع المبطوعة فقد ارسلت التميمي والاصابع الى معاوية في الشام (٤) واصبح الامر لبني امية وم سواد قریش . وقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان يضعف شأن بني امية والله انهم اكثر رجالاً ولو فرقت واصعب مراساً وسوف يلتقي بنو هاشم عاقبة ما جئته ايديهم ان شاء الله

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان وإمامها وما ذكرته من تفضيل بني أمية على بني هاشم علمت أنها إنما أرسلت لإصابع والقميص استغنائاً لبني أمية على المضاللة بدم عثمان وتحققت أنها نصر السوء لعلها فلم تصر على الدفاع عنه فقالت « ولكنك تعلمين أن بني هاشم كانوا أكثر الناس دفاعاً عنه فان علياً أرسل ابنو الحسن والحسين لرد الناس عن ما به ولو اذن لها أمير المؤمنين رحمه الله بالقتال لجاهدنا في الدفاع عنه إلى آخره من حمايتها . أمثل هؤلاء يتألون بدم عثمان أم يقال أنهم دافعوا جهدهم » قالت « إي دفاع تريدين . فوالله لو أرادوا دفاعاً ما مات عثمان لقد أخذوا الأمر بالاهمال والصبر حين لا ينفع الصبر بل هو عجز وسوء نية . ولا يفر بك إرسال أولادهم » . قالت ذلك وحرقت أسنانها وسكنت

فغذرتها أسماء لياج عواظها على مقتل زوجها ولم نجها . ولكنها عادت إلى السؤال عن والدها . فقالت لها إحدى الحضور لا ينبغي فسك يا أسماء أن والدك قد قتل في جملة الذين قتلوا مع عثمان وهم أناس هوأائهم . وقد حملوا جثثهم خلسة إلى حيث لا يعلم أحد . فتعزي أمير المؤمنين خاتمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن سمعت ما جرى له

وظلت أسماء هناك بركة تكي مع الباكرين حتى هذا روعها فنذرت أن وفاة والدها خور لها في مستقبل حياتها فظنرت إلى نائلة وقالت « ما الذي عزمت عليه يا خالدة الآن » قالت « لقد عزمت على المسير من هذا المكان إلى حيث لا أرى هاتين ولا اسمع بهاتين ولكنني لا أستطيع الخروج الآن خلسة وما مقاسنا هنا الأخنية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامي لأدركوني وقتلوني . ولكن بني حزم أهل جوار فقد خبأوني جزام الله خيراً » ثم تذكرت أسماء أنها تركت بيت العجوز على غرة فخافت إذا انفقتها ولم ترها فقلت عليها وخصوصاً إذا عاد محمد ولم يجدها وزد على ذلك أنها خافت مجيء مروان وهي لا تريد أن ترى وجهه بعد ما جرى بينها وبينه . فنهضت للحال واعتذرت أنها تريد المسير إلى بعض ذوي قرابتها في أطراف المدينة

فقالت لها نائلة « انهي حيثما شئت يا ولدي ولو كان لي بيت لدعوتك إليه ولكنني أصبحت غريبة بين أهلي أتوقع الخطر على حياتي . فاذعي حرسك الله ووقاك وإذا من الله علينا بالأجتماع أرجو أن أكافئك على صنيعك الجميل وحينئذ التي لم أر مثلها . سيبري

يا ابنتي بحراسة الله» قالت ذلك وضممتها الى صدرها وودعتها وهي تبكي وبكت اماء
ايضاً وقد انظر قلبها لما سمعت من كلام نائلة وشق عليها ان تراها في هذه الحال وقد
كانت بالامس زوج امير المؤمنين ولما الامر والنهي

الفصل الثامن والعشرون

— يـت علي —

ثم ودعت اماء نائلة ومن حضر من النساء وخرجت الشمس ميت العجوز وهي
تخسب انها تعرفه لكنها نامت هذه المرة ايضاً لا سيما وان البيت صغير لا يرى عن بعد .
على انها وصلت في آخر النهار وقد مالت الشمس الى المنيب فوجدت الباب مغلقاً
ولا نور هناك ولا حركة فقرعت الباب مراراً فلم يجيبها مجيب

فوقفت رهبة تكرر في ما تتعلل فلم ترخبراً من الذهاب الى منزل علي تنتقد محمداً
فاذا لم تجد بانث تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة في منزله . ولكنها خافت
اذا سارت بلباس النساء ان تكون موضع التفات الناس في الطريق او في فناء
الدار لان بيت علي لا يخلو من اقادمين والقادين . فنضأت التكر وكانت منطقة بكوفية
حلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال ماسمارم وتزلمت بعباءة كانت قد خرجت
بها بالامس وسارت تلمس بيت علي فلم تصلة الا نحو العشاء . فرأت بعض الناس في
فناء الدار وكانت تتوقع ان ترى ازدحاماً . ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصريين
الذين كانت تزدهم بهم المدينة قبل مقتل عثمان تحولوا الى مضاربهم خارج المدينة
للبيت . فسألت عن علي فقيل لما انة في خلوة مع بعض الامراء لا يدخل عليه احد
فوقفت تنظر في الامر فحدتها نفسها ان تدخل المنزل فبيت عند بعض نساء علي
ولكنها هابت الدخول عليهن وهي لا تعرفن قبلاً

وفيا هي في ذلك رأت محمد بن ابي بكر خارجاً من الدار فبعثه فلما رأى
عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتفرس فيها فقالت « محمد » قال « اماء » .
قالت نعم اين انت

قال « لقد شغلت بالي لنياك اين كنت »

قالت خرجت في حاجة سأقصها عليك الآن وابن مي عجوزك
قال انتني في صباح اليوم وهي قلقة لغيابك وقد قضيتا طول هذا النهار في
البحث عنك فشغلنا عما نحن فيه من الامور العظام تعالى معي ادخلك الى والدي
قالت وهل تقيم والدتك هنا في منزل علي

قال نعم وهي زوجة ' ' بعد والذي رحمه الله واسمها مثل اسمك بورك في هذا الاسم
فسرت اسماء لمعرفة والدتي ورأت بانا للفرج بالاقامة عندها واجبت زيادة
التفصيل فقالت « وهل تزوجها علي من زمان طويل »
قال « تزوجها بعد موت والدي وكنت انا طفلاً فريت في حجره ' ' فاما أعدوه
بمنزلة والدي وهو يحمي كأحد اولاده »

قالت « لقد آمنت فيو ذلك رحم الله والدنا ولدك وعاش والد ربك » قالت
ذلك وقد ابرقت اسرعتها اعجاباً به لكنها ما رالت تظهر النور سمة حديثها فتعمر هو
بذلك فقال « اراك قد تغيرت يا اسماء بعد خروجك اليوم »
قالت بل انا باقية على ما تعلم ولكنك سألني عن سبب خروجي
قال نعم والى اين كان خروجك

قالت خرجت الى تلك المسكنة التي قتلتم زوجها وتركتموها حزينة كئيبه فلم
يسعني مفادتها على تلك الحال وقد كانت تعريتي الوحيدة في حال حرني واضطراي
قال الطلك سرت الى مائنه

قالت « نعم سرت اليها ورأيت مدفن فتيلكم رحمه الله - فقد حملوه على باب
وسارط به خلسة ليدفنوه خارج المدينة وسمعت طعماً بك ساء في ان اسمعه وساء في
فوق ذلك ان لا استطيع الدفاع عك لاني شهدت دخولك وتعمدك قتل الخليفة »
قالت ذلك وفي نغمة كلامها ما لا يهدر الا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال

فأدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون نقطة سوداء على صفحة حبيبها فساءه
ذلك لكنه اعجب ماقتها وصدق ادبها قال كل الميل الى تبرئة نفسه عندها فقال وهو
يتسم تأكيداً لبراءة ساحته « لقد قلت لك يا اسماء ان الرجل لم يقتل ظالماً وهي اني
قتلته بيدي فما انا نادم على ذلك وسأطلعك على جولة الواقع في فرصة اخرى - اما
الآن فادخلي بنا لاعرّفك بوالدي وهي تعرّفك بأهل علي » قال ذلك وهم بالدخول

الفصل التاسع والعشرون

- ﴿ الحسن بن علي ﴾ -

ولم يكذب يدوم الباب حتى سمع وقع أقدام في الدار ثم رأى شأاً خارجاً حالماً
رآه علم أنه الحسن بن علي فالتى حسن السلام . فقال محمد وعليك السلام يا ابن
أمير المؤمنين

فقال الحسن أراك تبشرني بجلالة أبا خائف منها
قال لا تخف يا ابن بنت الرسول وابن عم أبي أنكم أولى الناس بها
وكان الحسن يحاطب محمدًا وينظر إلى أسماء وقد أكرها لثنتها . فابتدعه محمد
فأثلاً أن رفيقي أمويّ جاء للمبيت عنكم فهل قبلونه
قال أهلاً يا أبا كان فليدخل . قال ذلك ودخل فدخل في أثر طاعة لا تزال
ملثمة والحسن ينظر إليها ويتوقع حمر الثمام . فلما حسرتة ووقع نظره عليها تذكر أنه
رآها في منزل عثمان وقد كانت حاضرة ساعة مقتل . فوقعت من فمها موقفاً حسناً
وعجبته هيبتها وجمالها . فقال « أهلاً لك يا أختي فقد رلت أهلاً ووطئت سهلاً »
أما أسماء فغلب عليها النهب لوقوفها بين يدي ابن علي ونظرت إليه بطرف خفي
فإذا هو أبيض اللون مشرب بالحمر أدخ العيين سهل المحدثين كث اللحية ربع القامة
جمع الشعر لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره وكان أشبه الناس بأبي « فلم تنالك
أسماء أن نظرت إليه حتى غلب عليها الحياء فاطرقت وقالت « بورك في بيت شرفة الله »
فقال محمد للحسن « وأزبدك نعرفاً بها أنها أسماء بنت يزيد التي جاءت منذ
بضعة أسابيع تمتدعي مولاي أبي الحسن لمشاهدة والدتها وهي على فراش الموت لسر
كانت عازمة على اطلاع عليو فقصت رجها الله قبل وصوله وذهب ذلك أنسر
معا إلى القدر »

قال الحسن وهو ينظر إلى أسماء « أن والدي ما زال يذكر ذلك ويأسف
لضباع السر ويعجب بما آتته في هذه الفتاة من النهماء والإاسة » قال ذلك وسار

امامها فمشيا في اثير وقد شعر محمد من ذلك الحين بغيرة من الحسن وندم على مجيئها الى ذلك المكان ولكنه تجاهل وقال « الى اين نحن ذاهبون »

قال الحسن « الى خالتي امامة اعرفها باسماء فتدبت عندها الليلة وهي تعرفها بالاسم قبل اليوم ولا ريب انها ستسرّ تلقاها كثيرا »

فلم يستطع محمد معارضة لئلا تكشف غيرة فاجابه وهو غير راض بذلك التعريف لان الحجاب يمسح من الدخول معها الى امامة فتبي خارجا على مثل الجمر ودخل الحسن الى غرفة امامة بلا استئذان . وكانت مسرودة وقد لبست ثوبا بسيطا وفي عنقها قلادة من جرج كانت كثيرة الاحتفاظ بها . فلما رأت الحسن داخلًا قامت ان تسأل عن امر الناس والحلابة فاذا هي اماماء . تبعته فلما رأتها اعجبها حسن طلعتها فدنت اسماء منهاهم بنقيل يدها فتمتعها وقبلها فابتدعها الحسن قائلا « اقدم لك يا خالة اسماء واذلك تذكرين حديث والدي عن والدتها التي ماتت في فناء ومات ذلك السرّ معها فذهبي ابنتها وكثيرا ما سمعت والدي يذكرها ويحببها »

ثم التفت الى اسماء وقال « واعلمي يا اخية انك بين يدي امامة زوج والدي وهي بنت زينب بنت الرسول وكان جدّي (صلعم) يحبها كثيرا وانظري الى هذه القلادة التي تربتها في عنقها فقد اهداها اليها رسول الله يوم ولادتها وكانت احب اهلوا لها »

فاردادت اسماء اجلالا لامامة وظلّت واقفة حتى دعيتها الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن « لا حاجة لي ان اوصيك بصيغتك وانت اولي من اكرم الضيف مع علمك بمنزلها عند والدي » قال ذلك وخرج وكان محمد ينتظاره وهو على مثل الجمر وقد لام سمة على مجيئها

فلما التقيا قال الحسن كيف عرفت هذه النناة يا محمد

قال عرفتها يوم جاءت لامتدعاء مولاي ابي الحسن الى والدتها وقد صحبتها الى فناء . وهي متكررة زري الرجال ثم شاهدتها مرة في منزل عنان ورأيتها الآن جاءت تطلب منزلكم لانها غريبة وكان والدك قد دعاهم للاقامة عندهم فترى لها على حزنها وبنتها فقال الحسن انها والله ذات جمال وقفا واطمنا ستبقى عندها واني شاكر هذه الصدقة

الفصل الثلاثون

﴿ خلافة علي ﴾

فادرك محمد ما في نفس الحسن فانتقلت نار الغيرة في صدره ولكنها غيرة لم يشبها بغض لاختراعه الحسن ووالده . على انه احب تغيير الحديث فقال « وابن مولاي ابن الحسن الآن »

قال تركته في غرفتي وقد اجتمع الامراء حوله يريدون مبايعته وهو يقول لم « لا حاجة لي في امركم فمن اخترتموه رضيت به » وم يلحون عليه في القبول ويقولون له « لا تعلم احداً احق بمسك لا أقدم مائة ولا اقرب قرابة من رسول الله (صلم) »^(١)

فقال محمد الم يقل

قال تلاً وقد تركته وهو يقول لم « لا تمنعوا فاني اكون وزيراً خيراً من ان اكون اميراً » وم يقولون « ما نحن فاعلمين حتى نابعك »

فقال محمد اني لأعجب من رفضوا امراً هو اولي به من سواء انما والله لا يجب ان يلبها غيره

فقال الحسن واني أكثر تفعيلاً لك

قال محمد وما رأيك « الحق والبر فاني اخالما غير راضين به لان كلاً منها طامع بالخلافة لنفسه

فتبسم الحسن وقال « لا يهلك لمعها فانها سيابيان كارهين ان شاء الله على اني اراها بظواهران بالقبول وسنرى ما يكون منها في القدر فقد سار اليها بعض الناس يدعونها الى المبايعه

وافترقا بعد هنيهة فصار محمد الى فراشه وقد دهم امر اسماء اكثر مما دهم امر الخلافة لعلوا ان الحسن اذا وسط والى في تزويجها به ما لها لا محالة . فلم يبق لديه الا ابعادها عن ذلك المنزل وتكيتها من محنته . وقضى ليلته يبحث في وسيلة تساعد على الخروج باسماء من هالك حتى يخلو بها فيقتنها اولاً ببراءته من الظلم في مقتل

عُثْمَانُ ثُمَّ يَكْتُبُ كِتَابَهُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَصْرَحَ بِالْحَسَنِ بِطَلِبِهَا فَيَكُونُ لَهُ عَذْرٌ فِي ذَلِكَ
أَمَّا إِذَا اسْبَقَ الْحَسَنُ إِلَى طَلِبِهَا صَرِيحًا فَلَا يَجُوزُ لَهُ عَلَى التَّمَرُّصِ لَهَا
وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي بَكَرَ إِلَى غُرْفَةِ الْحَسَنِ فَلَمْ يَجِدْ هُنَاكَ فَسَأَلَ الْخَدَمَ عَنْهُ فَقَالُوا
لَهُ خَرَجَ إِلَى غُرْفَةِ أُمِّهِ بِأَكْرَأَ . فَلَمْ أَنْتَ عَنِ ذَهْنِ بَاسَاءٍ فَأَسْرَعَ فِي إِسْرَالٍ مِنْ
بِسْتَقْدَمِهِ فَبَاحَ الْحَسَنُ وَقَدْ اشْرَقَ وَجْهُهُ وَلَكِنَّهُ تَجَدَّدَ وَجْهًا وَقَالَ كَيْفَ أَصْبَحْتَ فَنَاتْنَا الْيَوْمَ
مَعَهُ قَالَ الْحَسَنُ لَقَدْ أَصْبَحْتَ فِي خَيْرٍ وَلَكِنِّي أَرَاهَا مُتَقَبِضَةً النَّفْسَ

فَسَرَّ مُحَمَّدٌ لَا قَبْضَ لَهَا لَعَلَّوْا أَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى عَمَلِ أَرْيَاحِهَا إِلَى عَمَلِهَا الْمَجْدِيدِ
فَقَالَ « أَظْنَاهَا مُتَقَبِضَةٌ لِحَرْبِهَا عَلَى وَالِدِهَا لِأَنَّهُ قُتِلَ فِي مَنْزِلِ عَمَّانَ وَارَى أَنْ نَخْرُجَ بِهَا
لِنُخْرِجَ مَجْلِسَ وَالِدِهَا وَحَدِيثَ الْقَوْمِ فِي أَمْرِ الْمُبَايَعَةِ لَهَا نَتَشَفَّلُ بِمَنْزَرِهَا هُنَاكَ عَنْ أَحْزَانِهَا »
قَالَ وَكَيْفَ تَجْلِسُ مَعَ الرِّجَالِ
قَالَ لَنُذْهَبَ مُتَنَكِّفَةً كَمَا أَتَيْنَا الْيَوْمَ

وَكَانَ الْحَسَنُ أَكْثَرَ مِيلًا مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَى اصْطِحَابِهَا وَهُوَ غَافِلٌ عَمَّا يَجَاحُ قَلْبَ مُحَمَّدٍ
فَقَالَ « لَقَدْ رَأَيْتُ صَوْلًا وَغَوْلًا لَاسْتِقْدَامِهَا وَمَا عَمَّ أَنْ عَادَ طِبَاسُ دَمْعَةٍ وَقَدْ تَكَرَّرَتْ فَلَمَّا
رَأَاهَا مُجَدِّدًا حَيًّا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا تَفْشُرُ لَا يَبْقَاهَا إِلَّا مِنْ عَائِي الْحُبِّ وَالْفَرِيقِ وَلَبِثَ
يَنْظُرُ إِلَى مَا يَبْدُو مِنْهَا فَإِذَا هِيَ حَالِمًا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَيْهِ أَرْقَتْ أَسْرَبَهَا فَارْتَوَّحَ بِأَلِّهِ
وَقَفَّاهُ بَعْدَ الْأَكْثَرِاثِ وَقَالَ لَهَا « أَظْنُوكَ تَوَدِّعِينَ حُضُورَ مَجْلِسِ مُوَلَايَ أَبِي الْحَسَنِ »
قَالَتْ « كَيْفَ لَا وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَمِيرِي » فَادْرَكَ مُحَمَّدٌ أَمَامَ نَشِيرِهَا إِلَى حَبِهَا لَهَا فَتَحَقَّقَتْ أَمَامَ
بَاقِيَةِ عَلَى عَهْدِهِ فَقَالَ « فَإِذَا فَرَّغْنَا مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ سَلِمْتَ لَكَ جَوَادُكَ وَامْتَنَعْتَ الْيَوْمَ
تَرْكُهَا فِي مَنْزِلِ عُثْمَانَ وَقَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ أَحْفَظَ بِهَا فَاسْتَحْرَجْتَهَا مِنْ سَائِرِ الْمَسْلُوبَاتِ »
فَأَنْتَ عَلَيْهِ وَطَارَتْ بِصَهْنِهَا إِشَارَةُ خَفِيَّةٍ فَمَهَّمُ مُحَمَّدٌ بِهَا مَرَادَهَا وَالْحَسَنُ لَمْ يَشْعُرْ
ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ هَلْ بَنَّا تَدْخُلُ عَلَى وَالِدِي قَبْلَ مَجِيئِي النَّاسِ فَدَخَلَ هُوَ أَوَّلًا حَتَّى
تَحَقَّقَ أَنْ يَهْضُ وَلِبْسَ ثِيَابَهُ ثُمَّ عَادَ وَاسْتَقْدَمَهَا



الفصل الحادي والثلاثون

﴿ الصحابة وعلي والخلافة ﴾ -

فدخل محمد واسمه وفي في لباس الرجال ولكنها حالما دخلت حسرت اللثام
وفتت بتقيل يد علي وكان علي جالساً على وسادة وعليه ازار ووطاق وعمامة خر^(١)
وهو في هيئة المهودة وقد ارسل عمامته الى الوراء حتى ماتت صلته^(٢) لما قام في
نفسه من الامر الذي دعوه اليه فجلس وهو يستط لحيته باصابه وعيناه الدعجوان
تتلاان في وجهه والذكاء ينعت منها . فلما رأى اسماء مقدلة اسم لها وحياها
وسألتها عن حالها

فقلت اني بفضل مولاي في خير وعافية

قال ان كلامك يا بنية لا يزال يرن في اذني منذ جئنا قتل مقتل ذلك الرجل
رحمه الله وقد قلت وقولك هو الصواب « ان في مقتل الخليفة ابتهاظاً للنساء » فلا
اظنها الا استيقظت

قالت ان اللثة تستقي من ان عم رسول الله فتعود الى الرقاد اذا قضى هو
على ازمة الخلافة

فأعجبه حسن اسلوبها وحن ذنبها وكان الحسن أكثر إعجاباً من الجميع
ثم دعاها علي الى الجلوس وهو يقول « اراك قد خلعت زي النساء ولست زي
الرجال يا اسماء »

قالت لقد نردبت باللباس الذي يليق ان الاتي به رجل هذه الامة
فقال علي « بل هو يشير الى ما اودعه فيك الخالق من اخلاق الرجال ولكنة
سجانة وتعالى قد جمع فيك حسنات الجنسين »

ولم تنك اسماء فجلس حتى جاء بعض الخدم يستأذن علياً في دخول بعض الصحابة
فاذن لهم فدخل جماعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير وكانت اسماء تعرفها
من ذي قبل . فجلسوا جميعاً حتى غصت القاعة بهم وجلس طلحة والزبير في صدر القوم

وعلى وجهها آثار الاغصان كأنها يجنيان امرأاً ماثماً فادركت اسماء انهما انما جاءا
مكرهين

فلما استوى التوم نهض واحد من اهل المدينة وخاطب علياً قائلاً « لقد جاء
مولانا ابن ابي طالب يطلب اليه امرأ رجوان لا بردنا عنه خائنين كما فعل بالاس
وما قبله »

فقال علي* « قوالى ما تريدون »

قالوا « جئنا بيايئك بالخلافة لأننا لم نر احداً احق بها منك »

قال (وهو ينظر اليهم حلة) « قلت لكم دعوني من هذا الامر فاني اراه طريقاً وعراً
فقال قائل « من نرى اقدم منك سابقة واقرب قرابة من رسول الله (صلم)
وقد قال فيك الرسول « لا يحكك الا مؤمن ولا يفيضك الا منافق »

قال « كم كلف* والذي تاييتموه اقبل به »

قالوا لا نرى غيرك احق بها وقد قال الرسول (صلم) « ان علياً مني وانامن
علي وهو ولي كل مؤمن بعدي »^(١)

قال « قلت لكم دعوني واتمسوا غيري فانما مستقبلون امرأاً له وجوه وله اللان
لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول »

فوقفوا وقد نفذ صدم وقالوا « تشكك الله ألا نرى ما نحن فيه . ألا نرى
الاسلام . ألا نرى السنة . الا تخاف الله . . . »

فلما سمع علي* نأجهم سكت وقد ضاق ذرعاً وعظم عليه الامر فاشتغل بتمشيط لحيتو
باصابعه وهو مطرق يلمل . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينتظرون جوابه . فقال
لم « قد اجبتكم »

ولم يكذب قط بل اذاعة حتى ضج الناس بالاحتمان وبهلت وجوههم فرحاً الا
طلحة والزبير فانهما قتلاً صائرين

فلما رأى علي* استخسانهم وضحجهم مع ما آتته من سكوت طلحة والزبير نهض فنهض
الناس وهم يظنون اليه ليرى ما يدور وماذا هو قد علا اضطراب كأنه تنبأ من
ساعته بما يتوقعه من الامور الغضام ف اشار اليهم بيده يائس اصفاهم وقال « واعلموا

(١) اسد الغابة ج ٢

اني اذا اجبتكم ركبت بكم ما اعلم فانما انا كاحدكم الا اني اسمكم واطوعكم لمن واطعوني
 فقالوا كلنا اطوع لك من بنائك ومن لا يطيع ابن عم الرسول واطاعه ووصيه
 ونصيه وربيته وحيبه وخليفته والذي قال فهو (سلم) « من كنت مولاه فعلي
 مولاه اللهم طل من طاله وعاد من عاداه » وقال (سلم) انك منه بمنزلة هرون
 من موسى فكيف نبايع - طاك
 فقال اذا كنتم لا ترون بنا من المباينة فلتكن في المسجد وليس في هذا المنزل
 قالوا هلم بنا الى المسجد

الفصل الثاني والثلاثون

المباينة *

فنهضوا ونهض علي وعلاء في يد وشي وهو يتكفأ^(١) ويدي قوس يتوكأ
 عليها^(٢) حتى اقبل على المسجد والناس بين يديه وكان محمد وحسن واسماء سائرين
 بالقرب منه واسماء تنظر الى ما سيكون فلما دخل المسجد قرأ علي الفاتحة وصلى ثم وقف
 ووقف الناس فنظرت اسماء الى الجميع وقد هاجل وماجل فرأت طلحة تقدم نحو
 قبل الجميع ومد يده فمد علي يده فصاحت طلحة وقال « انا نبايع سيدنا ومولانا الامام
 المنير الطاعة على جميع الانام علي ابن ابي طالب على كتاب الله وسنة نبوه واجتهاد
 امير المؤمنين^(٣) ونسلم له الظرفي امورنا وامور المسلمين لا تنازعة في شيء ونطبعة
 في ما يكفلنا به من الامر على المشط والمكسر^(٤) وان لا خليفة سواه » وادركت اسماء
 من هبة طلحة وغنة صوته وهجل حاله انه انما بايع مكرماً . ثم سمعت رجلاً من الوقوف
 خلفها يقول لجاره هماً « انا لله طنا اليه راجعون ان اول يد بايعت يد شلاء لا يتم
 هذا الامر » فالتفت اسماء الى محمد كآبها تستهيه عن مغزى ما يقوله الرجل .
 فدنا منها وقال لها « ان في يد طلحة شلاء خفيكاً من نوبة احد^(٥) والذي سمعوه

(١) أخرج الحيس ج ٢ (٢) ابن الاثير ح ٢ (٣) السيوطي

(٤) مقدمة ابن خلدون (٥) ابن الشحنة

يتكلم رجل من اهل العصابة نساءً بذلك المباشرة :

قالت ارجو ان لا تصدق عيافته . وبعد ان بايع طلحة نجي وتقدم الزبير فبايع ثم بايع غنم من الامراء افراداً واحداً

فاصبح علي* من تلك الساعة امير المؤمنين فصعد المنبر فلما رآه الناس صاعداً طويلاً انه يريد ان يتكلم وم طالما ، على خطبة وصحروا يبلاغوه فانصتوا الى ما يقول . وظلت اسياء في موقفها ومحمد الى جانبها وعيناه تمارقان الحسن الظر ليرى ما في نفس من اسياء . فرأى انه على هول الموقف ورحمة المقام لم يشغل عنها لحظة أما هي فظلت ثابتة ثبوت الجبال لا تلتفت لشيء الا لامر هام . فلما وقف الامام علي* اصغت واصفى الجميع . فسبح علي* لمحنة بيته واجال نظره في الناس والامة المنخر على رأسه وعليه الآزار وبطنه يتقدمه لانه كان ذا بطن (١) فلبث هنيهة لا يتكلم حتى سكث الجميع ونظاوا لبايعاتهم لسامع كلامه في ذلك الموقف ومواويل كلامه بعد الخلافة . فحمد الله واثنى ثم قال بصوت يسمعه من في المسجد جميعاً :

« ان الله تعالى ازل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا به فخرج المحر عتيدوا واصدقوا عن سمع الشر قصدوا . الفرائض الفرائض أدوها الى الله تودكم الى الجنة . ان الله حرم حراماً غير مجعول واحل حلالاً غير مدخول وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشهد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق . ولا يجل اذى المسلم الا بها يجب . بادروا امر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس امامكم وان الساعة تخدوكم من خلفكم . تخشعوا لخلقنا فاما بتظرباً ولكم آخركم . اقبلوا الله في عبادته وبلادكم فانكم مسئولون حتى عن البنايع والبايعة . وطيعوا الله ولا تعصوه . واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فاعرضوا عنه واذكروا انكم قليلون مستضعفون في الارض » (١)

ولم يكذب كلامه حتى تعصب العرق عن جبينه وانحدر مثوراً كاللؤلؤ على لحيته وكانت يضا طويلاً لانه فلما ناطق الخضاب (٢) ثم نزل وسار الى منزله ففرق الناس ط كثرهم فرحون بخلافته وخصوصاً اهل المدينة

المصل الثالث والثلاثون

- ﴿ الفرار من المدينة ﴾ -

أما محمد فكان يخامر سروره فأقْبَلَ لما قام في ذَهْنٍ من أمر الحسن وإساءة فلما انتهى الخطاب اغتم الفرصة بانسغال الحسن في المسير مع والدك وتجمع الناس حوله لتهتوا وإشارته إلى إساءة فتبعته وقد أدركت ما يجالح ذَهْنَهُ . وكانت قد لحقت ما في بس الحسن وقد أحبتْ واستلطفتْ ولكنها ما زالت على ولاء محمد وهو أول من طرق قلبها . فلما دعاها أن تتبعه سارت في أثره وهي تغافل مراده حتى وصل إلى بيت العجوز وكانت قد عادت إلى منزلها بالباس بإيعاز من محمد . فلما خلا بإساءة هناك نظر إليها نظراً لم يحفّ مفراها عليها فاجترته قائلة : أرى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يحلو المقام فيها »

فلما سمع محمد كلامها عجب لحسن فراسمتها ورقة أحاسيسها فازدادها ما بها ولكنها خافت أن تكون مضحّة غير ما تظهر فقال لها وما الذي يفض إليك الإقامة في المدينة قالت « بقعتها التي ما حُببَ محمدٌ اليَّ »

قال وكيف نركبكِ عليها وإهالة

قالت مالي ولاهلي

قال لا تظنن إمامة تنفدك

قالت أظلم تنفدني وقد ينفدني غيرها ولكنني لا أمالي بأحد

فأدركتها لحظت . أيتها فقال لها لقد تمت المأبغة لعلِّي فهو اليوم أمير المؤمنين وقد استقام الأمر لا بذلك . ولكنها تنتظر ما سيكون من تدبيل عالو على الأصار وتبدر ذلك في حينه . أما الآن فأرى أن تقبلي عذ اختي عائشة أم المؤمنين وكانت إساءة قد طعت منه أنها سارت إلى مكة لنقضاء مناسك الحج وعثمان عموه « ولم تسع أنها عادت فقالت « هل عادت أم المؤمنين من مكة » قال لم تعد بعد وقد قُتِل عثمان وتولى علي وهي غائبة وربما نقيم هناك مدة أخرى

(قال ذلك وهو يعلم ان عيبتها قريب ولكفة خاف اذا اعترف بذلك ألا ترمود
تئت حاجة الى خروج اسماء من المدينة فتضطرب للاقامة في بيت علي وغورث لا تسع
له بذلك)

فقال اسماء هل اذهب اليها

قال ارى ان زعمي فتنبئ هـ اك وتشاهدني بيت الله الحرام وتبرجي بمشاهد
مكة فاذا عادت اخفي سريراً عذب معها واذا اقامت طويلاً ذهبت انا لاستفدامك
ويكون قد عرفنا مصيراً بعد هذه الحلافة

قالت ان في ذهاني اليها شرفاً عظيماً لا ارى ما عافوه ولكن كيف اسبر وحدي
قال ارى ان تصحك هذه الحالة (وأشار الى الصجور) فان لما معرفة ودالة
عظمتين على اخفي وذهابها معك يغني عن كذاب التوبة او نحو وارسل معك
من يوصلنا اليها . ولكي ارجو ان يكون ذهالك بها . على الفاسك رغبة منك في
البعد عن القتل . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم

فهبت اسماء مراده وادركت انه يخاف ان يعلم علي* او الحسن انه هو الذي حملها
على المسير . فقالت بل اما الراغبة في المسير الى هناك لاكون بجوار ام المؤمنين .
أين جوادي وامنعني

قال هي هنا عند هذه الحالة فامكني عدها الى القدياتي اليك بمن يسير بك الى
مكة قال ذلك وم بالخروج

فقالت له اسماء ولا يرح من ذلك اني لا ازال اتوقع ان اسمع الخبر عن مقتل
عثمان وتفصيل ما تبرئ نفسك به

قال غدا تلاقين ام المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل هو يستوجب القتل وهي
تجيبك بما يغنيك عن سؤالي . الا قبلين قولها

قالت لي

قال اسماء من اول القائلين بقتل عثمان ومن قولها * اقتلوا عثماناً (لقب عثمان)
فقد كفر « (١) »

فقالت اني صارت على ذلك فاذا كانت في القافلة فتولها يكني

وتركها محمد ومضى فبانت في هناك تلك الليلة . فجاء محمد في الصباح التالي وقد اعتد هجناً وهو دجاً . فلما رأت اسماء الجمال قالت وما ذلك قال في جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها فان ينسا وبين مكة بضع مراحل والطريق وعراً لا يصلح للسفر فيه غير الجمال

قالت اعلم ذلك ولكفي افضل ركوب الا فراس وكذلك فعلت في قدومي من الشام وقد خرفتني ركوب الا فراس في الصحراء . فأبست الأما

قال لا يحسن ركوبك الفرس ورفقتك هذه لا تستطيع ركوبه فاركي العين انها اصلح لهذا الطريق وانركي الدرس . لا اخوف علي . وقد علمت ان رجلاً من احوال ام المؤمنين من بني الليث واسمه عبيد بن ابي سلمة مسافر اليوم الى مكة فهدت اليه في ان تسيراً برفتوه فبوصلكما الى منزل اخي

فجئت اسماء لقولوا ان الرجل من احوال اخي ولم يقل من احوال فسالته عن ذلك . فقال ان عاتقة من ام غبرامي التي ذكرتها لك ولم تسمح لك الفرصة ان تربها امس فمسي ان تربها في فرصة اخرى

قال ذلك وامر العجوز فاخذت في اعداد ما يلزم للسفر وجعلت تجمع صرورها صرة فيها المنط وصره فيها السواك وصره للعمال ونحو ذلك . ولم تمض ساعتان حتى تنهت كل شيء وجاء عبيد بن ابي سلمة فاوصاه بالعجوز والثناء خيراً وودعها فقالت له اسماء هي تشد منطاتها حول خصرها وتنبأ للدخول في المودج « منى اراك »

قال ارجو ان اراك قريباً في مكة او ان ابعث اليك فتقدمي اليها متى استقام الامر وهدأت الاحوال ووسني خاطر اخي الحسن : قال ذلك بصوت منخفض وضحك فصحك هي وودعته وسارت على ناقتها وقد تلتفت لثام السفر



الفصل الرابع والثلاثون

- ﴿ عائشة ام المؤمنين ﴾ -

ولم نكد اسماء نخرج من المدينة حتى اشرفت على قباء فهاجت اشجاها وتذكرت والدتها فترجلت عند المسجد فلقبها خادمة الشيخ فدعا قريبته فرجحت باسماء ومن معها . فطلبت اسماء ان تزور قبر والدتها فزارته وبكت عليه بكاء مرًا حتى كاد ينشئ عليها لو لم يمهضها عنه الرقاق . ولما رآها ان ابي سلمة في تلك الحال اسرع في الترحال فشد في الاحمال وركبها فاصدين مكة . وتأثر عبيد لما رأوه من حزن اسماء فاحسب تعزيتها فلما اشرف على جبل أحد وهو على اربعة اميال من المدينة لجهة الغرب (١) احسب ان يشغلها بالحديث فقال لما انظري الى هذا الجبل فانه جبل أحد الذي حدثت عنه الواقعة الهائلة بين المسلمين ومشركي قريش على عهد النبي . وقص عليها حديث تلك الفروع وقضوا في سفرهم هذه ثلاثة ايام فاشرفوا في ظهر اليوم الثالث على جبال مكة في قرية يقال لها سرف على ستة اميال من مكة (٢) فرأوا ركبا قد وصل حديثا وفيه ناقة عرف عيد انها ناقة عائشة وتأكد ذلك لما رأى هودجها وعليه رداء احمر يجلجله كلة . فترجل وزجلت اسماء والعجوز واشتغل العيد في تدبير النوق وعقلها

اما اسماء فسرّت برجوع عائشة عاجلاً لعلها ترجع معها الى المدينة فتلتقي بمحمد قريباً . فقالت للعجوز وابن ابي ام المؤمنين يظهر انما اسرعت في الرجوع من مناسكتها . فالتفت العجوز بئس وبسر حتى وقف بصرها على فسطاط كبير مبطن الحرير الاحمر عند بابي بديوان واقفان . فقالت هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابي فقالت وهل تذهب اليها الآن

قالت نعم لي لنرى ما يكون من ابن ابي سلمة ثم سارت العجوز اليه وكان مشتغلاً بمقل ناقته واصلاح حاله ونيابته قبل الدخول الى الفسطاط . فازدادت اسماء همها من الدخول على ام المؤمنين وقالت للعجوز وهل هي تنوي الاقامة في هذا المكان قالت يظهر انها على سفر . ثم دنت من قائدها فمسألة عن سفر ام المؤمنين

فقال انها شاحصة الى المدينة
فقات اسماء وما العمل الآن هل رجع معها ام نضل في طريقنا الى مكة
قالت سئري في ذلك متى التقينا بها وهي ترشدا فاذا امرنا بالرجوع معها رجعنا
او ارادت ان تدخل مكة دخلنا
قالت هل تنتظر رفيقا لدخل معك ام نسفك اليها
قالت اري ان تدخل قلعة مخوفة ان تكون في مسرعة في القيام فلا يمكن من مخاطبتها
قالت وهل تعرفها قبلا
قالت اعرفها جيدا وقد عشت في منزل والدهما رحمه الله وكثيرا ما حملتها
على عاتقي وهي طفلة فاني احب اليها والوالدة
قالت فلندخل عليها
قالت هلم بنا ومشت امامها
فتبعها اسماء حتى دتما من النسطاط فاستأذنا في الدخول فأذن لها . فدخلنا
وكلاما هاتبة الوقوف بين يدي زوج اليتيم
اما اسماء فكانت على شجاعتها وثبات جاشها قد شعرت عند دخولها النسطاط
بمخففان قلبها وزاد خفقانها حتى احمرت وحنثها ثم امتنع لونها رغبة من لقاء ام المؤمنين
وكانت عائشة جالسة الارعاء على وسادة من الخز في صدر الخيمة . فظرت
اسماء اليها فاذا هي رسة ممثلة الجسم عياها : لئلا نصح وذكاء فوثها حاجبان
متقاربان بشيران الى ما اودعه الخالق فيها من الامة والبيعة . وقد تجاوت بحجاب
من الحرير يغلي كل انوارها فوقه نقاب يكسو رأسها فيزين جلالا وعظمة
فاستأذنت اسماء بمطافها لمشايتها محمد احى لايشك الناظر اليها انها اخنة .
وكانت قد علمت قبل دخولها عليها انها في نحو الثالثة والاربعين من عمرها فلما رأتها
خجل لها انها في ما دون الثلاثين لما في وجهها من نور الصحة والجمال
فلما دخلنا الخيمة حثتها وهمت العجوز تنبيل يدها فمعتها عائشة وقالت اهلا
بك يا خالة اهلا بك وامرتها بالجلوس فجلست وتقدمت اسماء سواق وحشة ودلت
يدها ووقفت متأدبة حتى اذنت لها بالجلوس فجلست مطرقة لا تشكلم وقد ذهبت عنها
جسارها لمول ذلك اللقاء

فنظرت عائشة الى العجوز واتسمت اسماءً يكاد يكون اغتمصاً كأن في نفسها
امراً مخوفاً او كأنها مشتتة الخاطر بامرهم . ثم قالت « مرحباً بك يا خال ما الذي
جاء بك الى هذا المكان كيف فارقت محمداً »

قالت فارقت في خير وعافية وقد بعثني اليك بين القلاء لقيم عدك ودبعة له
ربما يأتي . قالت ذلك وتبسبت

فنظرت عائشة الى اسماء فاعجبها ما فيها من الجمال والهيبة وادركت ما علا وجهها
من اخلال الحياء عند ذكر محمد انها تحبه فتبسبت ونظرت الى العجوز ف اشارت
العجوز بيمينها اشارة اكدت ظمها

فقالت لاسماء اهلاً بالصيفة الزبرية ودبعة اخي فانت اذا اخي
فبالقت اسماء بالاطراق نجلاً ونوردت وجتها ولم تحب
فقالت عائشة اظنكنا جئنا لقيما عندي في مكة

قالت العجوز نعم يا مولاتي

قالت ولكنني شاحصة الآن الى المدينة على ان ذلك لا يمنع مسيركما الى منزلي
هبة ربما اعود او انا شتفا سرنما معي الى المدينة . ثم التفت الى اسماء وقالت ما بالك
لا تتكلمين يا اسماء

فرفعت اسماء راسها وقالت « لي غدر بتلعم لساني لثولي بين يدي ام المؤمنين
زوج الرسول (سلم) »

فاجدرتها عائشة قائلة ولكنك ستكونين من ذوي قرانا باذن الله فلا يجب ان
نجهي . اهلاً بك ومرحباً

فقالت العجوز وهي تريد ان تعبت باسماء « واخبر مولاتي ان اسماء بنت يزيد
الاموي من بني امية لم تأت المدينة الا منذ بضعة اشهر وكانت مقبلة في الشام فهي لا
تعرف عادة اهل الحجاز »

فقالت عائشة مها يكن من اصلها فهي لا تلبث ان تصير حجازية



الفصل الخامس والثلاثون

- ﴿ انقلاب سريع ﴾ -

وسكنت عائشة هنية وهي مقربة الوجه ثم استأنفت الحديث قائلة وهل جئنا
في رفاق أم مع قافلة

قالت أما جئنا مع عبيد بن أبي سلمة أحد اخوالك
فلما سمعت عائشة اسمہ اجفلت بغتة وقالت واين هو
قالت هو آت قريباً

فلم تصبر عائشة على انتظاره فنادت بعض الذين في بابها وامرته ان يأتي و أرخت
النقاب ولشت صامئة وما صامتان هائبتان حتى دخل عبيد . فلما دخل مّ بتقبيل
يد عائشة فمبعتة وقالت اهلاً بالخال قل ما وراءك كيف فارقت المدينة
قال فارقتها وقد قُتل عثمان وبقي ثمانية

فلما سمعت ذلك انطبعت حاجبها وظهر الفضب على وجهها فتفرست في عبيد
والشرر يكاد يتطاير من حدقيتها واساء تراقب ذلك فيها من خلال النقاب وقد
ذهلت لما بدا منها

اما عائشة فلم تصبر على انمام حديثه . فقالت وهي كآتها تحفز للنهوض
« ثم صعلوا ما ذا »

فلم يستغرب عبيد ما بدا منها ولعله كان يتوقعه فقال « اجتمعوا على بيعة علي »
فهبّت عائشة من مجلسها ثم وقفت رهفة واطرفت وقد امسكت طرف نقابها
وشدته كآتها تهلله ثم رفعت رأسها بغتة وأشارت يدها الى السماء ثم الى الارض
وقالت « ليت هذه انطبعت على هذه ان ثم الامر لصاحبك » قالت ذلك وخرجت
مسرعة وهي تقول « ردوني ردوني الى مكة . قُتل والله عثمان مظلوماً والله لا طلبين
بدمي » فبغضت اساء لما رأت من اهتمام عائشة في الامر الى هذا الحد وساءها ما سمعته
من التعريض بعلي ولكن التهب منها عن الكلام

اما عبيد فما زال ثابت الجأش والظاهرائه كان على بيته ما سيبدو من ام المؤمنين
فاعد لكل خطاب جواباً فاستوقفا وقال لما « ولم والله ان اول من امال

حرفة لامت^(١) ولقد كنت تقولين اقتلوا نعللاً فقد كفر^(٢) ألم تخرجي قبيل رسول الله (صلى) وشعره لما علست بأعمال عثمان وتقولين « هذا قبضة وشعر لم يزل وقد يلي دينه »^(٣)

فلما سمعت عائشة ذلك حولت وجهها نحوه وقالت « انهم استنابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وتقولين الاخير خير من تولى الاول » قالت ذلك وامرت رجالها ان يهبطوا الاحمال للرجوع الى مكة . فظفر اليها عبيد وهي خارجة وانشد

فبك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وامت امرت بتقل الامام * وقلت لسا انه قد كفر
فهبنا اطعنك في قتلوه * وقائلة عددا من امر
ولم يسقط العقف من فوقنا * ولم يتكف سمنا والتمر
وقد بايع الناس ذاتدرا * يزيل الشا ويقيم الصفر
ويلس للحرب انولها * وما من وفي مثل من قد غدر
فلم نعا عائشة نقول فتركها واصرف

اما اسماء فلبت في العجوز وكان على رأسها الطير لا تدان خطابا . وكانت اسماء قد همت بحولاب عائشة ولكنها خافت غضبها فرأت من الحكمة والتعقل ان تؤجل ذلك الى فرصة اخرى

فلما نهأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء فركبتا معها وسارا جميع قاصدين البيت المحرام واسماء صامتة وقد ادعتها ما رأت من تغير عائشة بغية لامر لم تكن تتوقع . على انها مالت كل الميل لسماع الادلة على صحة قولها في منزل عثمان وهو الامر الذي ما زال يشغل بالها ولكنها كانت من الجهة الثانية تخاف ان يثبت قتلها ظلماً فيحدث ما يدعوها الى التباعد عن محمد وقلها لا بطاوعها على ذلك ; فنضت مسافة الطريق غارقة في هذه الملاحس ولم تنبه الا وقد اطلت على مكة فاشرفت على الكعبة وهي في وسطها كأنها ملك وسائر الابنية حولها اجاد . ولم يبق قليل حتى وصل ركبهم الى مسجد الكعبة فترجلت عائشة من هودجها وترجل الجميع وسارت في ترقا الى المنبر^(٤) فاستنرت فيه . وهو مصدرة محوطة بمخاط الى دون الصدر منه

ما تركت قریش من الكعبة واتصرت في بنيان الكعبة عنه^(١) ويقال ان فيه قبر سارة . فلما رأيتها اسماء دخلت الحجر دخلت هي في اثرها والعجوز معها ولكنها لم تكلمها لعظم ما حالها من غصها

الفصل السادس والثلاثون

—* الطالب بدم عثمان *

وما كادت عاتكة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفي مقدمتهم عبدالله ابن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة . وشاهدت اسماء بينهم جماعة من بني امية من غادر المدينة بعد مقتل عثمان لكن مروان لم يكن معهم . أما عاتكة فلم تصبر على ما هموا به من التحية والاحلال فوفقت فيهم وقالت وم سكوت يصفون لمقالها وكانت جمهورية الصوت^(٢) « ايها الناس ان القواء من اهل الامصار واهل المياه وعيد اهل المدينة . اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً وقطعوا عليه باستعمال من حدثت سنة وقد استعمل انما لم من كان قلة وموضع من الحمى حاما لم فتابعهم وتزع لم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والنهر الحرام واخطوا المال الحرام . والله لاصبح عثمان خور من طباق الارض انما لم ولوان الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبث او الثوب من دنته^(٣) »

فما اتمت كلامها حتى هاج الناس وماجوا . ثم تصدى عبدالله بن عامر الحضرمي وقال والناس يسمعون « ما انا اول طالب » وكان هو اول من اجاب الدعوى الى الطالب بدم عثمان

وكانت اسماء لا ترداد من ذلك الا نجيها ولم تنقه لهذا الامر سبياً معقولا . فالتفت الى العجوز يجانبا فرأها صائمة مطرقة وقد امتنع لونها وارتجفت شفتاها فلما رأت اسماء نظر اليها غضت على شفتها تنمى سكوتها فأدركت اسماء ان في الامر سرّاً لا تستطيع ان تبوح به

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فاشارت عائشة الى الناس ان ينصرفوا
ففترقوا ومخرجت هي تلتصق منزلها وسارت اساء في أثرها وقد صبرها لاندهاشها
ما رأته في ذلك اليوم من الفرائب وقد عولت ان تقضم اول فرصة للاستحمام عن
سبب ذلك

فوصل الجميع الى منزل عائشة في العشاء فمدت لم الاطعمة فتناولوا العشاء ولم
تجراً العجوز ولا اساء على مجالستها في تلك الليلة فأتتا في بعض حجر المنزل واساء
تنتظر القد لتقابل عائشة وتستطلعها الحقيقة

فلما أصبح الصباح نهضت اساء والعجوز . فلما جلسنا قالت اساء لقد ادهشني امر
لم يبق لي صبر على السكوت عنه وليس لي من يفرج كربتي سواك
قالت قولني ما تريد

قالت لقد سمعت من ام المؤمنين كلاماً يوخذ منه المجاعة بعداوة امير المؤمنين
علي بن ابي طالب والذي اعطى ان علياً ان عم الرسول (صلعم) وعائشة زوجة
الرسول وقد كنت اتوقع وفاقاً بينهما على صلاح الامة فرأيت بالعكس ولم افهم السبب
فتفحصت العجوز واجالت بعينها وانهمضت كتبها كأنها تقول « لا يعنيني » ان
« لا يعني البحث في ذلك » . اما ملاح وجهها فكانت تدل على انها تعرف سبباً تحاول
كتمان فتوسلت اليها اساء ان تفصح لما عنه

فلما الحمت عليها قالت ان في الامر سرّاً قل من يعرفه سواي ولكنني اخاف ان
ابوح

فاشتاقت اساء لسامع السبب وجرت نفسها على البساط حتى التصفت بها وقالت
بالله ألا فرجت كربتي بكلمة واني اعدك بالكتمان

فالتفت العجوز بمنة ويسرة وهي تحاذر ان يسمعها احد وادنت شفها من اذن
اساء وهمت بالكلام ثم اجعلت بثنة وربعت عنها واصغت فاذا هي تسمع صوتاً خارج
الرفة فاصمتا فسمعنا وقع اقدام خفيفة فاجتمعت العجوز اخفاء لما كانت تهم به ثم
سمعت فارحاً يفرع الباب وجارية تادبها فنهضت وفحت الباب فدخلت المجارية
واذا هي حبشية ففتحها ثم قالت ان مولاتي ام المؤمنين تدعوكا الى غرفتها



الفصل السابع والثلاثون

— ﴿الامام علي ومقتل عثمان﴾ —

فسرّت اسماء هذه الدعوة على اهل ان تتمكن من استطلاع شيء فمضت ودخلنا عليها فاذا هي جالسة على طنفسة من السجاد الثمين وقد خلعت الجلباب فبانت انوارها الزاهية فزادتها رونقا وبهاء وبان مصفاها وعنتها وعطيا السامح والاساور والعقود ما يذلل البصر ويزيدها جمالا على انها كانت لا تزال مقطوعة الوجه وقد علتها الحوبة فلما دخلنا قبلنا يديها وجلسنا على وسائد من الدمنس الملون بالقرب منها . فلبثت رهة لا نتكلم ثم قالت وهي توجه خطابها الى العجوز « كيف قتلوا عثمان يا خالة » قالت قتلوه في داره بعد ان احرقوا الباب والسقفة ودخلوا عليه عنوة

قالت ومن قتله وكيف

فسكنت العجوز رهة ثم قالت لا اظني قادرة على وصف تلك الواقعة كما تصفها اسماء وقد تهديت القتل بنفسها لانها كانت في داره ساعة مقتله

فحوت عائشة نظرها الى اسماء باهتمام وقالت « هل كنت في الدار ساعة القتل »

قالت نعم يا مولاتي

قالت وكيف كان ذلك

فشقّ على اسماء ان تقتص الواقعة كما جرت لانها نسّ تحمينا ولكنها لم تر بدا من الجواب فقالت ان الحديث لو اردت سطة لئال بها المقام ولكني اقول بالاختصار انهم استنابوا كما قلت فتاب ثم رجع ولقد صبح له عليّ ان يصم اذنه عن سماع مشورات كانوا وان عمرو مروان فلم يصغ فعاد الى ما كان عليه وعلم الثائرون ذلك فطلبوا اليه ان يسلم مروان ويعودوا فابي فمها يزلو ودخلوا عنوة وقتلوه

قالت ومن قتله

قالت اثنان لا اعرفها ولكنهما من صعاليك العرب ليس احد منها من الصعابة

او اولادهم

فأومت عائشة وحرقت اسنانها وقالت وكيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة

وكبار الصحابة ينظرون ولا يحركون ساكناً ولا يدافعون عنه بسيف أو لسان فلم تر أساءة بدا من الدفاع فقالت انهم يا مولاتي قد دافعوا عنه جهدهم وأعلم أن علياً أرسل ابنه الحسن والحسين إلى دار الخليفة وكذلك فعل سائر الصحابة ولقد رأيهم هناك يدفعون الناس عن بابو حتى تلتطخ وجه الحسن بالدم . ولكن الخليفة رحمه الله منعه عن الدفاع واستخلفهم أن لا ينطلقوا

فبست عاتية ابتساماً ينفث عن استخفاف بجدث أساءة وقد استغربت اعتقادها دفاع الصحابة عن عثمان وقالت أتصدقين أن علياً لو أراد أن يدفع الناس عن عثمان لم يستطع دفعهم . ولكنه فعل ما فعله وسكنت كأني ضاقت ذرعاً عن الخوض في تفاصيل الموضوع ولم تنك بهم بانتماء الحديث حتى ابتدرتها أساءة فائلة اسمي لي يا مولاتي أن أؤدي شهادة لا استحي أن اصرح بها أمام الديان العظيم . أن علياً يرى من دم عثمان بل هو أول نائم على هذه القنينة لا اعتقاد أنها ستكون سبباً في نشئت شمل الاسلام ويظهر أن اعتقاده كاد يتغنى لا سمح الله قالت أراك يا بنية تنظرين إلى ظواهر الأمور دون بواطنها أيعقل أن علياً بما له من النفوذ في أهل المدينة إذا أراد الدفاع عن عثمان لا يستطيعه

قالت عرفت بيقيناً أنه أول غاضب على القائمين بهذه الثورة ولقد سمعته ذات ليلة يناجي رسول الله (صلم) على قبره يشكو اليه ما أصاب أمته من التشتت بعد وكان وجودي هناك صدفة فسمعت كلاماً ينفث له الصخر يتخلله شهيق البكاء أسفاً على حال الاسلام . أن علياً يا مولاتي مخلص في قوله وفعله ولا لوم عليه ولعلك إذا وجهت اللوم على القائمين أو المرضين على القتل أن تجدي وجهاً للوم . قالت ذلك وهي لا تزال هائبة موقفها بين يدي أم المؤمنين فما انت كلامها حتى تعصب العرق من جبينها

فبست عاتية من مجلسها وقالت وقد اخذ منها الغضب مأخذاً عظيماً . أن أولئك القنينة قد ارتكبوا أمماً عظيماً لا مشاحة فيه ولكن معظمهم لا يدركون عاقبة ما يعملون وإنما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم وروساؤهم فانك تجهلين أموراً اعلمها ولا اجعل شيئاً تعلية وسكنت برهة وأساءة . طريقة وقد حارت في الجواب . فاستأنفت عاتية الحديث فقالت « ولقد بلغني أن أخي محمداً كان في جملة المفرودين » ثم خفضت صوته وقالت وهي تلقي يدها على الوسادة لتسكن عليها « ولكنه لا يلام لأنه ربيب علي »

فلما سمعت اسماء ذلك نارت في قلبها نار الغيرة وأرادت الدفاع عن محمد فحافت ان ترتكب الكذب فلبثت صامتة ونظرت الى العجوز فرأىها قد تغيرت سماتها خوفاً ورهبة وظل الجميع سكوتاً برهة لا تنوّه احداً من بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى اسماء وقالت وهي تحاول اخفاء غضبها وتسكين عواطفها « لا أنكر ان عثمان خطأ في بعض احوال تصرفه في خلافته وأكبه خطأ لا يستوجب عليه غير اللوم والنصيحة لا القتل »

فاحت اسماء ان تسمع رأي عائشة في ما ارتكبه عثمان من الخطأ فقالت « وهذا ما سمعته من اخيك محمد ولكنه يعتقد ان خطأه اعظم من ذلك كثيراً »
قالت وقد عادت الى الغضب ان محمداً لا يعرف ما اعرفه ولو حضر الآن لجادلته في الامر وبينت له خطأه بالبرهان . ولم تكذب كلامها حتى دخلت بعض الجواري وهي تقول ان بعض الامراء في الباب . فلما سمعت اسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأىها توفقت عن رد الجارية فادركت انها راغبة في مقابلة القادمين فهضت واستأذنت في الانصراف الى حجرها فأذنت لها وخرجت العجوز في اثرها وكلاهما صامتان تتكران فيما سمعناه

الفصل الثامن والثلاثون

﴿ البراءة ﴾

واحت اسماء حال خروجها بشعرية شديدة ولم تكذب نصل حجرها حتى اصابتها البرداء فالتصت الفراش والبرداء تتزايد في اعضائها فلطمها العجوز واجلسها في الفراش وجلست هي الى جانبها وجست يدها فاذا هي باردة كالثلج فغطتها بالاحرمة والاحفة وهي لا ترداد الا اعتناضاً فانثفل بال العجوز وسألها عما تشعر به فقالت انها تحس بارغواء في اعضائها وارتماش في كل جوارحها . قالت ذلك واستانها تنصدم لشدة الارتماش . فارادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لها لا بأس عليك يا بنية اظنك اصبتي بذلك على اثر التعب الذي قاسيناه في اثناء الطريق

فلم تجبها اماء وغلظ عليها المكوث فلبثت صائمة والعجوز الى جانبها تنكر في حيلة تخفف بها عنها ولم يمض قليل حتى خمت عنها الرداء واحمر وجهها احمراراً شديداً . فجمتها العجوز فاذا هي شديدة الحرارة فخنفت الاغلبية عنها وخرجت تستشير اهل الدار في علاج نصفه لما . فاشارت عليها بمض النساء بصل نشرة مزوجاً بالماء فجاءها قدح من مزيج فلم ترض ان تتاول منه شيئاً . فتقدمت اليها وقبعتها في جبينها وتولت اليها ان تشرب ذلك العمل فلم تجبها ثم ما لبثت ان رأت الدموع تتناثر من عينها وهي تحاول امساكها . فقبضت العجوز ولحمت عليها ان تشرب فلم تزد اماء البكاء ولم تعد تنالك عن الشهي وقد احمرت عيناهما وذبلت اجفانها واشتدت عليها الحمى اشتداداً عظيماً

فحارت العجوز في امرها ووددت ان تغير ام المؤمنين بذلك ولكنها تذكرت اشغالها من قدم عليها من الامراء فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اماء وبكائها ولا تتكلم

ثم سكنت اماء واغضت جنبها كأن النعاس قد غلب عليها ففرحت العجوز بمنامها فتركها وخرجت لعلها تلقى من تستشير في معالجتها ولم تكد تخرج حتى سمعت اماء تتكلم فظنتها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي عذراء وقد كشفت الفطاء عنها وانحصر درعها ونميصها عن صدرها وتكشفت اكمامها لفرط ثقلها وهي غارقة في النوم فارادت العجوز ان تغطيها ونهضت انوارها فخافت ان تستيقظ ولكنها دنت من الفراش لترفع الفطاء الى صدرها فرأت الحجاب في عنقها ورسم الصليب على معصمها . فبغت وتأملت وجهها فاتبته الى شيء فهو غير ملاح العرب الحضة واعادت النظر الى الرسم على معصمها فاذا هو رسم الصليب وتعمقت ان الحجاب من احجية النصارى فاستغربت الامر ثم تذكرت ان اماء قلما كانت تبالي بالتعجب في مخاطبتها محمداً ان غيره فقالت في نفسها هل هي نصرانية ام ربيت بين النصارى في الشام

وكانت اماء في اثناء ذلك ساكنة مستغرقة في النوم وقد أُلحِق جنبها وتوردت وجنتها واسرع تنفعا من شدة الحمى حتى كانت تنفس لها وفيها مفتوح فازاحت الفطاء الى صدرها خوفاً عليها من البرد فمعصمها عذراء فاضت لذهبا لها لعلها تستطلع شيئاً من سرها فاذا هي تقول « أماء يا اماء يا مرم ... آه يا علي يا ابا

الحسن كيف ضاع ذلك السر تعال يا حيبي يا محمد لا لا اذا كنت
 قتلت عثمان فانت بعيد عني لا لابل تعال يا مني ورجائي ان اسلك آخر
 لفظ خرج من بين شفتي امي قبل وفاتها .. آه يا اماء .. من هو الي اخبريني . قولي
 لي هل هو حي بعد ام سبكت الى العالم الآخر ... » ثم خفضت صوتها وتلجلج لسانها فلم
 تعد تهم العجوز شيئاً من كلامها واخيراً سكنت سكوتاً تاماً واستغرقت في النوم . فجلست
 العجوز بالقرب من الفراش وهي تؤذ ان نفسها لتتحقق حال المحبى ولكنها خافت ان
 تزججها فلبثت صامئة تفكر بما سمعت منها وتجب لجلها والدماء

الفصل التاسع والثلاثون

— * أم الفضل * —

وفيا هي في ذلك اذ جاءت بعض الجوارى مسرعة وهي تقول « ان ام الفضل
 قادمة لتراك »

فلما سمعت اسم ام الفضل تخفرت للافاتها وقد سرّت بقدومها . وبعد هنيهة اقبلت
 ام الفضل تمشي الهويناء لا يسمع لمشيها صوت . وكانت في نحو المتين من عمرها فهتت
 العجوز وجهها وقبلها ودخلت بها الى الغرفة ودعيتها للجلوس على البساط
 فقالت ام الفضل وهي لم تنظر الى فراش اساء بعد « اني اسم في هذه النجعة رائحة
 المحبى والتفتت الى الفراش وقالت من هو المريض عندك »

قالت لقد جئتني في ساعة ضيق فساك ان تفرجني عني
 قالت انما جئت لاسألك عن مقتل الخليفة رحمة الله وما آكل الي الامر بعد
 فقد همني امرٌ كثيراً وسمعت بقدومك فاسرعت اليك . فاخبريني اولاً من هو
 المريض معك

قالت هي فتاة جئت بها من المدينة باهواز من ابن اخذك محمد بن ابي بكر لتقيم
 بضعة ايام عند اخوان المؤمنين ريثما نرى ما يكون
 قالت وما علاقة ابن اخي بها

فالتفت العجوز الى فراش اماء وهي تخاف ان تسبظ فتسمع كلامها ودنت من ام الفضل وهمست في اذنها انه بنوي ان يكتب كتاباً عليها
وارادت ام الفضل ان تستنهم العجوز عن تفصيل مقتل عثمان فاذا باسماء تنأوا
ثم ادارت رأسها نحوها وفحصت عينيها . فهضت العجوز اليها وجست يدها فاذا
هي مبتلة بالعرق وقد خفت الحمى قليلاً فقالت لها كيف ترين نفسك يا بنية
فاشارت برأسها وعينيها انها في راحة ثم رأت ام الفضل فاستخيمت منها وارادت
الجلوس فهضت ام الفضل اليها وهي تقول لا تزجي نفسك يا ابنتي . قالت ذلك
ودنت منها

فتوسطت العجوز بينها وقالت اظلك تسأنين بلقاء ام الفضل وهي لبابة خالة
محمد بن ابي بكر اخت امو ولزبدك تعريفاً بانها اول من اسلم بهد خديجة وهي
ايضاً زوج العباس عم النبي واخت ميمونة زوج النبي (صلعم) ومن اولادها عبد الله
ابن عباس من خاصة امير المؤمنين علي بن ابي طالب بل هو ابن عمو وابن عم الرسول
(صلعم) واظنك شاهدته غير مرة في مجلس علي اولئك رأيت في دار عثمان فقد
تردد اليه وهو محصور حتى اتدبه ان يمج بالناس ^(١)

فلما سمعت اماء انها حالة محمد استأنست بها ولما علمت انها زوج عم النبي
ولم عد الله ابن عباس زاد احترامها لما تجلمت وهي تسمع العرق عن جبينها ورحبت
بها فاسرعت ام الفضل وقبلتها وقالت اهلاً بك كيف فارقت محمداً
فجيب اماء لسؤالها عن محمد وهي تحسبها لا تعرف علاقتها به . فلما رأت العجوز
استفراجها ضحكت وقالت لا تستغري يا اماء ما نسألك عنه لانها طالة بكل شيء
وهل يجنى التمر

فاطرقت اماء خجلاً ولم تجب

فجلست ام الفضل الى جانب العجوز على البساط بالقرب من الفراش وقالت لها
بصوت مخفض كأنها تخاذر ان يسمعا احد « هل قابلت ام المؤمنين وكيف لثبها »
قالت لثبها نائمة على قنطرة عثمان ولا ادري ما تنوي

قالت علمت انها في يوم وصولها مكة دعت الناس للطلب بدم عثمان وكان اول

من اجابها منهم عامل هذه المدينة
 قالت نعم انما فعلت ذلك وقد شهدت كلامها وكلامه ومعى اسماء ولكنني لا
 اظنها تنوي اخراج ذلك من القوة الى النفل
 فاجتمعت ام الفضل ابتاساً بما رجه استخراجه وقالت « وما الذي حملك على هذا
 الظن » والتفت الى اسماء فرأتها مستغلة بالالتفاف وقد أحست بقشعريرة على اثر بهوضها
 وجسمها مبلل بالعرق . فادنت ام الفضل فيها من اذن العجوز وخففت صوتها وقالت
 « أملك تجهلون ما في نفسي على امير المؤمنين »
 فعضت العجوز على شفتها وأشارت بعينها انما لا تريد الخوض في هذا الشأن امام
 اسماء مع انما ارادت ان تطلعها عليه مرة ولكنها تدمت وبدلت الموضوع وقالت
 « اذن نظنين انما تنوي اخراج ذلك الى حيز النفل »
 فتناولت ام الفضل بعثتها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة ان يكون احد
 قريباً فيسمع كلامها وقالت « لا بد لنا من ذلك فان اهل مكة يد واحدة في هذا الامر
 وفيهم بنو امية الذين هربوا من المدينة وطست ان الزبير وطلحة قادمان الى هنا وكل
 منهم طامع في الخلافة لنفسه وقد سار قوم لا يخشون اهل البصرة وآخرون للكوفة
 وغيرهم لتحريض اهل اليمن وآخرون الى الشام »
 فابتدرها العجوز قائلة اما اهل الشام فلا يجناجون الى تحريض وفيهم معاوية
 ابن عم عثمان رحمه الله وقد حملوا اليه قبض عثمان الملقطع بالدم واصابع نائلة ليعميل
 اهل الشام على القاتلين
 فتهدت ام الفضل وتأنت وقد عظم عليها ما تقووه من عظم الفتنة حتى تناثر
 الدمع من عينيها وظلت صامتة

الفصل الاربعون

﴿ دعوى الناس على عثمان ﴾

واما اسماء فكانت في اثناء ذلك مضطربة المحاسن نسمع الحديث ولا تقوى على
 جواب فلما رأت ام الفضل تبكي تذكرت بكاء علي عند قبر النبي في تلك الليلة التي رأت

فيها محمداً لأول مرة . فاعتزل ذهبتا الى محمد وما يعترض آمالهما فيه من امر القبري من مقتل عثمان . وكانت لما سمعت كلام عائشة قد اغلقت على محمد وكادت تنفثق ما سمعته لولم يتم في قلبها ما بيرثه وهو الحب . . . على انها ما زالت تودّ سماع دفاعه او دفاع من يقول بقوله ويرى مقتل عثمان . فلما رأت سعة علم ام الفضل في تاريخ الاسلام وقد رافقت كل حوادثه وشمعت اسبابها وتائجها كلتها بصوت مختلق من تأثير الضعف والحسّ فاشتبهت ام الفضل واصفت لمقالها . فقالت اسماء ان في نفسي شيئاً لا صبر لي عليه

قالت وما هو

قالت لقد شهدت مقتل الخليفة عثمان رحمه الله وسمعت دعوى الناس عليه ولكفي تحققت من حوادث كثيرة انهم ظلموا وان الذنب ليس له ولما هو لمرطان ابن عمو فقد كان كاتبة يتصرف في شؤونك كيف شاء . ولكن ابن اخنك (تريد محمداً) ولم تذكر اسماء حياء) يزعم انه يستوجب القتل ولقد جادلته في الامر فوعدني بتأيد رأيه في فرصة اخرى

فلما سمعت ام الفضل كلامها تنهدت ثم قالت لقد وقعت على خير فاني اعرف عثمان قبل اسلامه واعرف ترجمة حاله ما استرمتها وما ظهر وهي لا تظنوما يعج الاحزاب عليه ويشيء الضمائم واظنه لو متي بوزير او مشير عاقل او كاتب غير مرطون لما بلغ الامر الى ما بلغ اليوم . واليك ما ارتكبه عثمان ما هاج غضب الصحابة عليه

(١) ان الصحابة كما تعلمون الذين قاموا بصحة الاسلام وتأيد دعوتهم منذ اول ظهوره فهم اول من سواهم بولاية الامصار وتولي الاعمال وكانوا كذلك على عهد صهري رحمه الله وعهد الامام عمر رضي الله عنه فلما تولى عثمان عزل اولئك الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابته كما فعل بصبر بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتحها وغرس الاسلام فيها فعزله وولى مكانه اخاه عبد الله بن ابي سرح (اخا عثمان من الرضاة) وعبد الله هذا كان في جملة الذين ارتدوا بعد اسلامهم وحسبوا بالمشركون فامدبر النبي دمه وعثمان اخذ له الامان بعد فتح مكة

(٢) ان عثمان اسرف اسرافاً شديداً ببيت المال وكان يعطي منه اناساً من

قرايتو طردم النبي (صلم) ولا يغرنك ما يقال عن تقشفو وزعت في طعامو
(٣) انه اساء جماعة من اعلام الصحابة وذوي المقامات السامية في الاسلام
منهم عبدالله بن مسعود وابوذر الغفاري ونفام عن اوطانهم وانتهك حرمة كعب بن
عبد العزيز وحرمة الاشتر النخعي في امور يطول شرحها

(٤) انه زاد كثيراً من الضرائب على الاسواق وحسب سوق المدينة في بعض ما
يباع وبشترى فقال لا يشتري منه احد النوى حتى يشتري وكيلة ويفرغ من شراء ما
يحتاج اليو عثمان . وحسب البحر من ان تجري فيو سفينة الآ في تجارتو

(٥) انه اقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام ما لم يكن له فعلة (١)
وهناك امور اخرى نسوها اليو كخالفه الجماعة في اقام الصلاة وفي طوافه
باقوال شاذة ونحو ذلك

ولكن لاصحابو حجباً يدافعون بها عنه وهي طويلة لو اردت ذكرها لطال
بنا الكلام (٢)

وكانت ام الفضل تتكلم بصوت مخفض واساء تتطاول نحوها وكلها آذان لسامع
حديتها فاطمان بالمالا لانهما رأت لحمد عذراً في عملو وهي مباله من بادى الراي لغيرتو
فأحست عند سماع كلام ام الفضل كأنها التفت عن ظهرها حملاً ثقيلاً . ولكنها نعت
من الاصفاء واحست بدوار وغثيان فاستقلت على ظهرها وقد امتنع لونها ولم تنه بكلمة
فلما رأت العجوز اصفرارها علمت انها أصيبت بدوار من شدة الجوع لانها لم تذق طعاماً
في ذلك اليوم . فنادتها فأجابت ولم تنتفع عينيها لثقة الدوار . فقالت لها العجوز ألا
تشرين قليلاً من العمل فانه دواء شاف لك

فأشارت اسماء بجانبها ان « لا » ولم تتكلم فحارت العجوز في امرها واستشارت
ام الفضل في ماذا تفعل

فقالت دعها تنام الآن

فصبرت حتى تحققت انها نامت فتركها في الغرفة وخرجت ولم الفضل معها ولم
ينق لها صبر على تفصيل حادثة عثمان . فنزلنا من الدار وعائشة لا تزال في غرفتها وعندها

(١) تاريخ الحبس ج ٢ (٢) في تاريخ الحبس بد ذكر مقتل عثمان كلام طويل
في ما ادعوه عليه والدفاع عنه فتراجع هناك

الامراء فحولنا الى بستان فيه نخلات متقاربة تحمها ظلٌ كثيف فشهدنا هناك خيولاً
وجمالاً ومعها الخدم وقد شدوها الى جذوع النخل فحولنا الى نخلات منفردة في طرف
البستان جلسنا اليها واخذت العجوز تنص ما نعرفه عن مقتل عثمان وكلاهما تحاذران
ان تعلم ام المؤمنين بما يدور بينهما

فلما فرغت العجوز من حديثها قالت ام الفضل رحم الله عثمان وايد علياً فاني لا
ارى خيراً منه لولاية امر المسلمين لقرايتي وعلو وفضله وشجاعته وسبقه الى الاسلام
ولكن ابني عبد الله (عبدالله بن عباس) يعتقد انه ضعيف الرأي ^(١) ولكنه مع ذلك
ينفذه على كل من يلها سواه وقد خاطبته في ذلك قبل عودتي الى المدينة امس فرأيت
فرحاً بخلافه الامام علي

قالت وهل كان لا يزال هنا منذ جاء للحج
قالت نعم ان عثمان وهو محصور امره ان يمج بالناس كما تعلمين ^(٢) فنجاء وقُتل
عثمان وهو غائب ولما بلغه قتل ولايه علي مع ما يتوقعه من الخلاف بسبب ذلك
اسرع ليكون بين يديه لعله ينفعه في شيء

وتذكرت العجوز حال اماء فقالت وماذا ترين ان افعل باسماء ومرضها
قالت اظنها تشقى غداً ولا بد من شربها العمل
فقالت سأحل ام المؤمنين على ان تمضيها اياه

الفصل الحادي والاربعون

* شرب العمل *

وفيها ما في الحديث رأنا الفلان في حركة وم يرجون الخيول والجمال
يهتدون للركوب فقلنا ان الامراء اوشكوا الخروج من عند ام المؤمنين فهضت
ام الفضل وودعت العجوز وانصرفت على بغلة كان خادمها ينتظرها بها بالقرب
من البستان

أما العجوز فظاهرت أنها إنما نزلت إلى البستان لتسقي من الشراب وفيها هي بالقرب من باب الدار سمعت جلبة ثم رأت جمهوراً خارجين من الدار معظمهم من بني أمية وعلى وجوههم سعات الظفر ولم تجد بينهم أحداً تعرفه فتفتحت وبنينا خرجوا وانصرفوا ودخلت تطلب حجرة أسماء وهي في قلق لئلا تكون قد افترقت في أثناء غيابها فوجدت الحجارة متهوجة وعد بابها خففت عرفت أنه خف أم المؤمنين فابينت أنها جاءت تنقذ أسماء فأسرعت حتى دخلت الحجرة فإذا هي واقفة عند رأس أسماء ولما رأتها أم المؤمنين داخلة وعلى وجهها إمارات البغنة اشارت إليها بأناملها وشفتيها أن تمشي الهويناً وإن لا تخاف فأبطأت في خطاها حتى دنت من أسماء فقرأتها قائمة وقد كلل العرق جبينها فالتفت عائشة إلى العجوز وسألها عن حالها فقالت سألتها شعرت بالبرداء منذ خرجنا من عندك ثم أصابها الحمى كما ترى

قالت استقيها العسل

قالت جئت إليها بقدح منه (وأشارت إلى القدح) فلم تشرب قالت هاتوا أما استقيها إياه فإني خير دواء والتفت إلى أسماء فقرأتها فترك وهي تمسح العرق عن وجهها بكنيتها فدنت من فراشها ففتحت أسماء عينها ولما رأت أم المؤمنين اجلست وبهفت للحال وقد توردت وجنتها فقالت لما عاتفت لا نزعجي ناسك يا بنية وجست بعدها فإذا هي لا تزال حارة وقد ذبلت عينها واحمررتا من شدة الحمى

فقالت لما عاتفت لم تشربي العسل يا أسماء

قالت لا أشتهي طعاماً يا مولاتي ولا خلواً

قالت إنما هو دواء فهو شفاء للناس وقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول « الشفاء في ثلاث شربة عسل وشرطة حمم وكبة نار طمني أي عن الكي » (١) وزد على ذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحب الخلوة والعسل قالت ذلك وتناولت القدح ودفعته إلى أسماء فتناولته ولم يعد في أمكانها إلا شربة فشربتها ولم يبق قليل حتى أحست برطوبة حلقها وأوصها عائشة أن تتناول شيئاً من لبن الأبل فأطاعت وبعد شرب اللبن امتعت فجلست في الفراش ورغبت إلى أم المؤمنين أن تمسك عندها

لأنها استشرت بها وابتدأت منذ رأتها ان تشعر بخصم في صحتها
 فقالت عائشة بل ارى ان تنزل الى البستان فنستظل بالعرش لاني نمت من
 الخناء وتزاحم الناس علي في هذا اليوم . واظن تزولك الى هناك بينك
 قالت اني اتشرف بمرافقة ام المؤمنين واسألن نس برأها . فنهضن ولما وقفت اساء
 أحست بضعف قلل شيئاً من حركتها وظهر عليها الذبول ولكنه زادها هبة وجمالاً
 ومشت عائشة امامها وهي صاعدة والجلال والوقار يشبانها وسارتا في اثرها وقد
 هالها سكوتها حتى وصلن البستان وهو محاط بسور من سعف النخل في وسطه عريش
 مصنوع من الجريد يستظل به وقد نصبوا فيه مقاعد من الجريد والخشب . فدخلت
 وجلسن فيه وام المؤمنين لا تزال صامتة ثم دعيتها للجلوس فجلستا متأديتين وفي نفس
 كل منهما شيء تفكر فيه والكل يتشاغلن بما يسمعه من حفيف سعف النخل لا لشداد
 الريح في ذلك اليوم

الفصل الثاني والاربعون

﴿ طلحة والزبير ﴾

ولم يكده يستنب بين الجلوس حتى سمعن جعيراً وصهلاً وجلبة فاقطعت عائشة
 حاجبها نطعاً لما يأتينها من اخبار القادمين وما عتَم ان دخل بعض الخدم وعليه
 امارات الدهشة

فقال ما وراءك يا غلام

قال ان ركبا قادمين من المدينة وفيهم طلحة والزبير يتمسسون المتوليين يدبك .
 فلما سمعت اساء ذلك بقتت وظهرت البغلة على وجهها وتغزرت للتهوض والعود الى
 البيت لتجلبوا ام المؤمنين بالقادمين

فقال لها عائشة (وقد تغير وجهها) « لا ارى حاجة الى دخولك البيت الآن
 واذا رأيت ان لا تحضرا مجلسنا فاجلسا وراء هذا العريش

فنهضنا وتحولتا الى منعده وراء العريش جلسنا عليو وقد سرت اساء ببقائهما هناك
 لعلها ان طلحة والزبير قدسا من المدينة بعدها ولا بد من خبر جديد جاء به او انها

جاءا في امرجهما الاطلاع طيو لعلاتوه بالامام علي وفي تعلم انهما بايعا علياً مكرهين
فلبت مستترة يمدار العريش واصاحت بسمها وهي تنظر من خلال الجريد الى من
يدخل العريش

فامرت عائشة بدخول طلحة والزبير وارغت ثيابها وبعد هنيهة قدما وهما
لا يزالان بباب السور وقد علما الفبار ومعها رجال آخرون

فدخلوا طلحة بمدره العريش ولحيته البيضاء الكثيفة مع قصر وقد ازداد وجهه
حمرة من وعناء السفر ومال الى السمرة من اثر الشمس وكانت اسما قد شاهدته غير مرة
في المدينة فلم تستغرب. وكذلك الزبير وهو يتأرجح عن طلحة بحفة عضوا وقلة شعر لحيته^(١)

فدخلوا ودخل في اثرها ابناهما فقالوا السلام عليك يا ام المؤمنين
قالت « وعليكم السلام يا اصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام »
وامرهم بالجلوس فجلسوا على مقعد وم مطرقون لا ينظرون اليها اجلالاً لحرمها . فبعد
ان استراحوا خاطبت طلحة والزبير قائلة

من اين اتينا

فاجابها طلحة جئنا من المدينة

قالت كيف فارقتاها

قال « انا حملنا هرايا من غوثا وعراب وفارقا قوما حيارى لا يعرفون حقاً
ولا ينكرون باطلاً ولا يمتنعون انفسهم »^(٢) قال ذلك وعلاغم الغضب تبدو من خلال
حديثه والزبير بهم بالكلام كأنه لم يكف بما قاله طلحة

فقالت كيف يتحل عثمان وانتم تنظرون

قال الزبير والذي قلني الحبة ويراأ النسمة لقد دافننا عنه باولادنا وانفسنا ولكن
الغوثا غلبت علينا فلم نمنع قدراً واقصاً

قالت ثم بايعتم وانتم راضون

قالا بصوت واحد لم نأتع الا والسيف على اعناقنا وما نحن راضون بهذه المايمة

(١) اسد الغابة (٢) ابن خلدون ج ٢ (تبعه) كل ما ورد من الاشارات الى

ابن الاثير في ذيل الصفحات الماضية من هذه الرواية انما هي من جزئ الثالث وان ورد سهواً في
بعضها انه الجزء الثاني

قالت انهضوا اذا الى هذه النعوش . وطالب بدم ذلك الرجل المتول
قالا انما جئنا لذلك

فقالت وقد جاءنا ايضاً عبد الله بن عامر ابن خال عثمان وعاملة على البصرة ولما
سمع بمقتل رجل ما في بيت المال وجاء الينا وكذلك يعلي بن منية جاء من
اليمن ومعه سماية بعير وسماية الف درهم وقد اتاخ في الابطح ^(١) وقد كانوا
عندي اليوم

ولم يتم كلامها حتى جاءها غلام بينها بقلوم ابن عامر وان منية فقالت
ليدخل . فدخل اولاً ابن عامر وهو شاب في الثلاثين من عمره وعليه جبة حمراء ^(٢) ثم
دخل يعلي بن منية وهو بشي عرجاً وقد كسر فخذه في طريقه من اليمن وكان قد سمع بمقتل
عثمان فاقبل لبصرة فسقط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه ^(٣) فجاء برجاله
ومالوه . فلما دخل ابن عامر وان منية سلبا على طلحة والزهر فقال طلحة لابن منية مالي
اراك نمشي عرجاً

قال كسرت رجلي ولما قادم لبصرة عثمان ولكن معي المال والرجال قوموا بنا
للاخذ بالثار

فقال الزهر هلم بنا الى الشام

فاعترضه ابن عامر قائلاً ما لنا وللشام وفيها معاوية وهو يكذبكم وما ولكني ارى
ان تأتوا البصرة فان لي بها صنائع ولم في طلحة هوى وم ميا لول لما ينعو ^(٤) فقالوا فجعك
الله انك تريد التتة ولكن دعنا من ذلك ولنسر الى البصرة . فتم الرأي على ان يسروا
الى البصرة يدعون من بها للطلب بدم عثمان ويهضونهم كما انهضوا اهل مكة

وكانت اماء تسمع حديثهم من وراء العريش فلما علمت بما تم اجماعهم عليه عظم
عليها الامر وتحققت ان التتة واقعة لا ريب فيها فاثرت ذلك في نفسها فاضطربت
وخفق قلبها واثارت الحمية في رأسها حتى كادت تنهم بالهوى والدخول على
المجمع . فادركت الهوى اضطرابها فاسمكت يدها فاذا هي ترنم من عظم
الاضطراب فهمست في اذنها ان لا تضطرب لئلا تقرب صحتها

(١) يؤخذ من التلخيص انهم جاؤوا بعد ذلك بضعة اسابيع ولكن الرواية اقتضت ذكرهم بها

(٢) اسد الغابة (٣) اسد الغابة (٤) ابن الاثير ج ٣

فقلت لا صبر لي على ما اسمع وهم انما يريدون الانتفاض على الامام علي بعد ان
بايعوه ورأيتهم يعني وقد بايعوا واقسموا على الطاعة
فجعلت تخفف عنها وهي تخفف للقيام

الفصل الثالث والأربعون

﴿ الاجماع على الطلب ﴾

وفيا في نهم بذلك سمعت صوتاً ارتعدت له كل جوارحها فاصفت واذا هو
صوت مروان وقد دخل العريش وقبل ان يلقي القبة خاطب طلحة والزبير قائلاً
وهو يصيح « على ايكا اسلم بالامارة واؤذن بالصلاة » (اي ايكا سيكون امير
المؤمنين)

فأجابه عبد الله بن الزبير « على اي » (يعني اياه الزبير) فاعترضه محمد بن
طلحة وقال « بل على اي » (يعني اياه طلحة) (١) فضحك مروان وقال بل اجعلوا
المخلافه في ولد عثان لانكم انما خرجتم تفضلون بدمو . فقال طلحة كيف تدع شيوخ
المهاجرين وتجعلها لابنائهم . فقال وهو يبتهم « لا اراني اسى الا لاخراجها من بني
عبد مناف » (٢) قال ذلك ولم يسمعه احد ولكنهم تهنئوا ما في ضميره
فابتدرته ام المؤمنين قائلة « أتريد أن تفرق امرنا بامرؤان ليصل بالناس ابن
اخوتي » (نعي عبد الله بن الزبير)

فلما سمعت اساء كلام مروان لم تعد تستطيع صبراً وخصوصاً لما رأت عائشة
تنهم . فنهضت واسرعت الى العريش واختزلت الجميع وهي ترتجف وقد امتنع لونها
فلما رآها الناس يقتطع لجسارتها وكان طلحة والزبير يعرفانها فيهنأ جميعاً ولم يتكلموا
اما هي فوقفت بقلب لايهاب الموت ونظرت الى مروان وقالت « اما كمالك
يا مروان ما التيت من التنة في المدينة اما كمالك انك سبت مقتل المخلفة حتى جئت
تلقي الشقاق بين بقية الصحابة وواؤه لولا حرمة ام المؤمنين لمدرت دمك بين يديها
الا ترجع عن عملك حتى تهلك المسلمون بالتنة ويقتل بعضهم بعضاً » قالت ذلك

وصوتها يرتجف ولما فرغت من كلامها حولت وجهها الى أم المؤمنين لترى ما يبدو منها فلما سمع القوم كلامها لبثوا جميعاً صامتين وفي ترنم وتغجد فاجابها مروان وهو يضحك وقال « تقولين اني قتلت الخليفة ولم يقتله إلا صاحبك محمد ربيب علي وسوف يلتقي كل منها جزاء ما جئت بهاء »

فقلت « لا تذكر ان اني بكر شقيق أم المؤمنين ولا تلتفت باسم ان اني طالب امير المؤمنين والله لو اني بيننا الآن لتلعن لسانك ولا اقول قتلك لانه لا يلوث حسامة بدمك »

فأراد مروان ان يجيبها فاستكتت أم المؤمنين قائلة « اذكر اخي محمداً يا مروان اسكت . وانت يا اما مخفي عنك انك مريضة لا تعجبني دمك اذهبي الى فراشك » وكانت العجوز واقفة بجانبها فامسكتها بيدها وخرجت بها من العريش وفي تكاد تقع لفرط ارتعاشها . فلما خرجنا من البستان صاحت اماء بالعجوز قائلة اخرجي بي من هذه المدينة اني لا استطيع البقاء فيها

قالت ولكي اين نذهب يا ابنتي

قالت سيدي بي الى يثرب

قالت كيف نذهب وماذا نفعل نام المؤمنين اذا افقدتك ولم تجدك قالت لا ادري ماذا نفعل ولكني لا استطيع البقاء هنا ولا بد لي من الذهاب

الى المدينة

قالت لا نستطيع الذهاب اليها الآن

قالت اذهبي بي الى منزل آخر غير هذا المنزل

قالت اتذهبن الى أم الفضل

قالت هيأ بنا اليها . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها لشدة غيظها

وكانت العجوز قد عرفت منزل أم الفضل فصارت بها البو

فلما اقبلنا عليه استقبلنا أم الفضل باثقة وقد استغربت مجيئنا مع ما في وجه

اماء من اثر الضعف وظواهر الاضطراب

اما اماء فلم تك تدل المنزل حتى عاودتها الحصى واصابها الدوار فالتصمت

الاستلقاء على مصطبة امام البيت فدعته أم الفضل الى الغرفة فأبست فأنها بوسادة

وغطاء فلم تشأ الرقاد وقالت وقد تورّدت وجتها من شدة الحس « اقلوني الى المدينة احملوني الى الامام علي لاخبره بما تأمر به الناس عليه ... انهم تواطوا على الطلب بدم عثمان . ولوائهم التمسوا ذلك من قاتله لعذرناهم ولكنهم بالنسوة من الامام علي واما اطم الناس ببراءة ساحته » قالت ذلك وهي لا تفالك عن البكاء اما ام الفضل فاستغربت قولها وشقّ عليها عظم تأثرها وخافت عليها عاقبة ذلك ووافقت لسامع الخبر فقالت ما الذي حدث بعد خروجي من عندي

فقصت العجوز عليها ما جرى في العريش
فأجلت ام الفضل وصاحت وبلاء لقد عظمت الفتنة لبيت عبدالله (ابنها عبدالله ابن العباس) لم يذهب بعد لا كلمة حل هذا الخبر الى علي

فصاحت اسماء دعوني امضي بهذا الخبر بنفسي دعوني اسير للجهاد دفاعاً عن المهتم زوراً ان علياً يا قوم بريء من دم عثمان فكيف يطالبونه به

فقالت ام الفضل دعي هذا اليّ فاني مرسله رسولاً الى علي بكل ما وقع . قالت ذلك ودعت بعض الخدم فجاءها برجل من جهة يدعي ظفر استأجرته ان يحمل كتابها الى علي بالخبر (١) فركب عجيبة وساروا مااء نشعة بنظرها وهي تود ان تكون على رحلو وارادت ان تحمله كلاماً الى محمد فمنعها الحياء على انها عولت على الخلق به حالما تنارقها الحسّ

فلتركتها في حالها ولترجع الى المدينة لتزى ماذا تم لحمد بعدها

الفصل الرابع والاربعون

﴿ تفريق المال على الامصار ﴾

تركنا محمداً وقد ودّع اسماء عند ركوبها الى مكة وعاد وفي نفسه شيء اقلق راحته لا يدري ما هو وقد فاته اسم الفراق . ولما هو فقد كان يحسب قلقة ما يجفاه من مناظر على اسماء ولو كان مناظر غير الحسن بن علي لما ن عليه

القلص منه . ولم يكن يخاف حسناً لانه ابن امير المؤمنين ولكنه كان محبة كثيراً
وقد رما معاً في حجر الامام علي . ففضى مسافة الطريق وهو غارق في لجج
الهواجس . وما زاده قلقاً ارساله اساء على هذه الصورة وقد شغلته الفزع قبل سفرها عن
تدبير الامر حتى قدور . فوقع في حيرة لا يدري ما يجب به الحسن اذا سألته عن اساء
ولا كيف يستدرا او يتقل سبباً لسفرها وشعر لساعته بثل الحب وشدة سلطانة فحول
نظره الى الطريق الذي سارت فيه اساء فاذا هي قد توارت عن النظر فحدثه نفسه
ان يخرج الى مكان يقضي فيه بهاره قبل الذهاب الى منزل علي مخافة ان يظهر
حالة عند ملاقاته الحسن وهو لا يزال مضطرباً . ولكنه لم يجد عذراً لثقله يومئذ
والناس يتألبون جماعات ووحداً من كل صوب يأمون منزل الامام علي وم بين
آمل وخائف وتاصر ونافم . وقد علم محمد ان علياً بايعة الناس وفيهم من يضر السوء
ففضى برهة تنفاذة الهواجس وهو يمشي فلم يشعر الا وهو يباب الامام علي فرأى
الناس قد تكاثروا حوله والحول في بستانه والجمال معقولة الى جذوع النخل والحدم
والصيد وقوف بينها . فتذكر هول ما يشغل علياً وبنوه في ذلك الحين من مهام
المخالفة فبان عليه مشاغلة الحسن في تلك الشؤون ربما يرى ما ينتهي اليه الامر .
فدخل الدار وهو يلمس والدته وقد عول على مكاشفتها بما في نفسها لعلها ترميه
على ما يتقوه . فدخل حجرهما فاذا هي جالسة وحدها ولوايح الاهتمام تلوح على وجهها
ولكنها حالماً رأت هتت له فحياها فرأت في وجهها اقباضاً فابتدرته قائلة ما لي اراك
متبعض النفس يا محمد

قال وهو يخالطها ما في نفسي شيء غير ما نحن فيه
قالت وماذا جرى هل انت خائف من مصير هذه المخالفة
قال لا اقول اني خائف ولكنني ارى المركب خشناً فان طلحة والزبر لم يابسا
الأكرام والكوفون والعربون على رأبها فأخشى ان يدعوا الناس الى تقص المبايعة
قالت لا تخف من ذلك فقد تم الامر لاني الحسن وحوله تخبة من الصحابة يمشون
ازرة فاذا احسنوا الرأي في مشورتهم استقام له الامر باذن الله
قال لا يهزلك كثرة العدد وفيهم من يضر غير ما يظهر . . . آه ليت ابن خالي
عبداه هنا (عبدالله بن عباس) فان له رأياً سديناً وهو ابن عم امير المؤمنين

قالت العلة لا يزال غائباً في مكة منذ سار إليها

قال نعم

قالت ولكن لنا بالمغيرة بن شعبة خير مشير وقد بلغني انه دخل على امير المؤمنين

اليوم ولا يزالان في خلوة منذ الصباح لا تدرى ما دار بينهما

فقال ان المغيرة با أماء من خيرة الصحابة اصحاب الرأي والدهاء ولا يخفى عليك

انه احد دهاة العرب الاربعة

قالت ومن هم الثلاثة الآخرون

قال هم معاوية بن ابي سفيان وعمر بن العاص وزبادة بن ابي

الفصل الخامس والاربعون

﴿ المغيرة بن شعبة ﴾

ولم يتم كلامه حتى سمع وقع اقدام خارج الحجرة عرف انها خطوات الحسن فبغت

ولكنه نظاهر بالانتماء وقال هذا اخي الحسن فلدعه لعله يخبرنا بما دار بين الامام

علي والمغيرة

قالت ادع فخرج محمد ليدعوه فاذا هو داخل فاجدته محمد بالسلام - فحياه

الحسن ولم يزد علي السلام شيئاً - فانشغل خاطر محمد مخافة ان يكون في نفسه شيء

فقال له اهلك ياخي ابن امير المؤمنين لقد كما في حديث هذه الخلافة ونحن في شوق

لاستطلاع ما دار بين مولاي ابي الحسن والمغيرة

فجلس الحسن علي وسادة بالقرب من الباب وتشاغل باصلاح عامته ولم ذبل

قنطاروه ورأسه ولم يجب

فازداد انفعال خاطر محمد وظهر الاضطراب علي وجهه فتقدم نحو وهو يتجامل

واضح طبعه علي جلية الخبر وهو يخاف ان يسمع منه لوماً او عناباً بشأن اسماء

فاذا هو قد زفر زفرة شديدة وقال تسألي عن حديث المغيرة وهو حديث ذو شجون

قال محمد وما ذا عسى ان يكون

قال « ان المعيرة صاحب رأي وحرم ولكل والذي لم يصغ اليه فقد سمعت كلامه
واعني رأيه ولكن امير المؤمنين حرية فكروا وبقوا . يدعني على ما اراد وان يكن
رأيه الصواب وهو من اعمد دهاء هذه الامة »

فقال محمد ا وقد ارتاح باله من قبل اسماء ، وما هو الرأي الذي رآه
قال انت نعم يا اخي ان هم الناس ما يعونا على دخول (يريد نخبة والربر)
ولا يخني عليك ان حواء ليس من اهل المدينة ولا من اهل مكة ولما نحن خائون
من حال الامصار في مصر والشام والاندلس والعراق والندوة هؤلاء عداوة
لنا معاوية بن ابي سفيان في الشام وهو كما تعلم ان عم عمان وكان من اكبر اعدائه
وكذلك ان عامر في العراق وهو من حال عمان

قال محمد نعم

قال فاشار المعيرة على والذي ان بقي عيال عمان هؤلاء على اعلم ليري ما يكون
بعد ان يستقيم لنا الامر فاني والذي عاين ذلك وقال كذا فلما رآه مصراً على رأيه
قال له « اغرل من شئت وانك معاوية فان فيه جراءة وهو في اهل الشام ولك حصة
في انايه وكان عمر من اخشاب قد ولاه الشام قبل عثمان » فاقسم والذي ان لا
يستعمل معاوية يومين فخرج المعيرة ولم يرد حرفاً

فقال محمد انظرن المعيرة مصيباً

قال نعم انه رأى الرأي الصواب لان سكوتنا عن معاوية ورفاقه يسكتهم ربما
نرى ما نأول اليه الحال

فقال اسماء أم محمد نهل رفيقا يا بني ان اخي عبد الله بن عباس فانه لا يلبث
ان يعود من مكة والامام يصغي لكلامه

قال الحسن لا اظنه مصفياً لاني آست منه اصراراً شديداً فلنصبر لعل امر
عباس يتغلب عليه . قال ذلك وسكت هيبه بكمركم اسقطت اسرته نفقة كما انه تذكر
امراً سره وقال وهو ينسب ان الخلافة ومشاكلها شغفتني عن امر آخر ذكرته لك
تلميحاً وكنت عازماً على مخاطبة والذي هو اليوم فامسكي عن ذلك اشغاله
بالمعيرة وحديثه

فادرك محمد انه يريد خطبة اساء . فكادت الغنة تظهر على وجهه ولكنه نجاهل
وقال وماذا عسى ان يكون ذلك الامر يا اخي
قال لا اظنك تجهل ما في نسي عن اساء تلك الغاة الاموية التي نزلت عندنا .
(وحول وجهه الى ام محمد . . . وقال) انها يا خالتي بارعة في الجمل وفي وجهها
مهابة يندران تري مثلها في الساء .

فارتك محمد في امره لا يدري بماذا يجيب ولكنه تجلد وقال وهو يتظاهر بعدم
الاكتراث لماذا لم تقل لي ذلك قبل سفرها
فبغت الحسن وقال الي ابي سافرت
قال سافرت الى مكة في صااح هذا اليوم
قال وكيف وما الذي حملها على السر ومن سافر بها وهي وحيدة
قال انها سافرت مع عجموز من ذوات قراني ورجل من بني الليث من اخوال
اخي ام المؤمنين

فقطب الحسن وجهه وقد استغرب ذلك وقال وما الذي حملها على السر
قال سمعنا نقول انها نصل العدن من المدينة في اثناء هذا الاضطراب وطالما
كانت تود التعرف بام المؤمنين فاظلمها سارت لتقضي عندها بضعة ايام ثم تعود
فاطرق الحسن مرة بمر ثم قال لا بأس من ذهابها الآن وسأغنم اول فرصة
يملو بها والذي فاعرض علوه خطبتها لي فاذا لم تكن قد جاءت بعثت في استقداها .
قال ذلك وخرج

وظل محمد جالسا وقد علته الغنة وانتفع لومة فلاحظت والدته في ذلك فقالت
يظهر انك اهتمت بحديث الحسن

فتنه ولم يجب

فقالت مالك لا نجيب

فتردد بين ان يكشف لما سره او يظل على كهاو ولكنه لم يعد يستطيع صبرا على
الكتمان فقال لقد همى الامر اكثر مما تظنين

قالت ولماذا

قال ان الغاة التي ذكرها اخي الحسن مخطوبة

قالت ولن

قال لي

قالت ما تقول . . .

قال هذا هو الواقع

قالت وكيف يعلمها هو لعمري

قال لانه لا يدري ذلك

قالت ولماذا لم تخبرني بحضنها قبل الآن

قال عرمت على ذلك وحننت بها اليك فلم احبك

قالت وما العمل الآن

قال لا ادري وساصر قال ذلك وحرقت اسنانه

قالت انك تكثر احالك الحسن من اجلها

قال معاذ الله ان اكدره طابت تعلمين - هي له وآمي ساري ما نأتي به القدر

ثم خرج وقد اخذ الفلق منه ما خذا عظميا

الفصل السادس والأربعون

﴿ عبد الله بن عباس ﴾

ومضت ايام والحسن يتربص فرصة يحاطب بها والدك بشأن اسما فلم ير الى ذلك سبيلا لاشتغالهم جميعا في تربيته العمال وتقلب الاحوال . فان الامام نائبا ما ربح منذ ولي الخلافة لا يهدأ له نال وعمال الامصار اكثرهم باقون عليه ولعمري اوطاع المعبره لحلف شيئا من فتنهم ولكنه اصر على استئصالهم لئلا يبق منهم من يثق بهم وامنهم من رجاله وكان الحسن فوق ذلك الاشتغال هائلا مفاعلة والدك امر الخطيئة وم في تلك الشواغل لتلاجيل له انه انشغل بالحرب عن الخلافة فلاح له ان ينتظر محي . عدا الله ان عباس في وسطه في الامر لما يعلم من دالته على والدك وذكر ذلك لعمد بن ابي بكر فلم يحجج ولكنه فلق وزادت غيرة . فلما سمع محمد بن علي . عدا الله بن عباس اراد ان يدخله مجدث الخلافة عن المأذنة بامر الخطيئة فاسرع اليه فقل ان يعلم الحسن بمجيئه

وأما ما كان من حدث المذبح وشعة وما اشار به على الامام علي الى ان قال
وقد كنا في اسفار بحيث لعلك نسي الامام عن عزه فقد اصر على خلع عاتق
وم كما ترى غير راضين ولم احراب وخصوصاً معاوية

فقال عدا الله ان المعصية وانما معصيت وعمر الراي راية

فقال محمد وهذا الذي رآه حميماً في العمل

قال اني داهب الى علي السابعة - قال ذلك وحيث ودمية الامر كثيراً لانه

كان شديد الغيرة على الامام مع قرائن الرسول والامام

وكان في حدود الاربعين من العميل النوح اخص تدن مشرنا صخرة حمياً

وسباً صبح الوحده صبح انسان " وكان اعظم الناس ماله بيت والتمر والعربة

سديد الراي عالمه تنصير القرآن وكان عمره سنون ثنت الامام لم يدرك احد من

اهل زمانه ما ادركه من كل ذلك - فلما سمع كذب محمد بن ع الى عثمان وحنو

وسار يهرع الى منزل الامام ع - فمحمد بشعة وهو يكس - وقع اسرعه في الذهاب

الى علي هذا المقدار

فوصلا الى الزور واما المعصية من شعة خارت من حمية الامام علي وكان في

خوة ممة - فقال عدته لمحمد رآه حاء مائة ام هذ هي خوة التي ذكرها لي

قال بل هذ غيرها ولا بدري ما حاء

ويام في ذلك حاء المحسن وكان داه في شأن ولما رأى عداقة ضفت ووقف

وسلم عليه ودعا للنسوس في محبته وهو يدن ذكر له امر احاطة فراه في شاعل

آخر وقد اسرع اني سمع الامام علي ودخل هو ومحمد في ثوب

فلما اقبل عده ع الامام علي حده حية اعزاه قاتلاً السلام عليك يا امير

المؤمنين وكانت هذ اول مرة - ولما بعد احواله - فرد ع الى لجة عليه ورحب به

وقل وعليك السلام يا ابن عمار ول صدق - ول ذلك والاشخاص ظاهر على

وحده كانه كان في حذل عصف - ثم نسي عدته حتى جلس الى جانه وجلس الحسن

ومحمد في بعض حجاب الفرفة والحسن يرى في حشر ان عاص ثبته وكان يود ان

يحموه ول دحوه على والده

الفصل السابع والأربعون

﴿ علي وابن عباس ﴾

وبعد ان حلسوا مهية وكل بهكر في امر بهمة قال ابو ساس رأيت المغيرة خارجاً من عندك فهل جاءك رأي جديد واني اعند دونه وسداد رأيه
قال علي وقد كنت اعتقد ذلك فهو حتى جاءني منذ ايام بشهر علي ان اقر معاوية وسائر غل عمان على اعدائهم . طالت تعلم انهم كانوا من اعظم المقاومين لنا والفتنة انما قامت واخلى عين رحمة الله انما قل بدينهم فكيف اقيم . فأبيت الا اعلم فتقدم الي ان اتي معاوية فقط على الشام فأقسمت اني لا استعمله يومين فخرج من عندي يومئذ ولما اعرف فيو انه يود اني محذو . ثم عاد الي الآن فقال لي « اني اشترت عليك اول مرة بالذي اشترت وخالفتني فيو ثم رأيت بعد ذلك ان تصع الذي رأيت فتعزيم وتستعين بن ثقي به فقد كسى الله وجهه اهون شوكة ما كان » فاعطني رجوعه الى رأيي ولما سمع ان عباس كلام الامم بنسب وقال . نظن يا ابن عمي ان المغيرة قال في هذه المرة ما يعتقده

قال علي وماذا اذن

قال « اعلم يا امير المؤمنين ان في المرة الاولى صحك وفي هذه المرة عثك لان معاوية واصحابه اهل دينا معنى نته لا بالون من ولي هذا الامر ومعنى نعلم يقولون اخذ هذا الامر بغير شوري وهو قتل صاحبنا عثمان وولون عليك فتنتفض عليك الشام واهل العراق مع اني لا آمن ظلمة والرهبر ان بكرًا عليك . ولما اشهر عليك ايضاً ان ثنت معاوية فاذا ابيع لك فعلي ان اقلعه من منزله . » وكان ابن عباس ينكح وعلي مطرق وهو قطب الوجه وقد اقلعه ذلك الامر كبيراً . ولما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس وقلباها برفضان فرحا على امل ان يقتنع الامام علي باقرار معاوية خوفاً من الحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامه لنا ينتظران ما يقول علي فاذا هولاء بال مطرقاً غامراً والسكرت سائد في تلك المحجة لا بدأ احد

بكلام حتى لقد مجاذر احدم اذا فاجأه السعال ان يتخمس . وبعد هبة رفع الامام علي رأسه ونظر الى ابن عباس وبنه علي قصة سينو وقال « والله لا اعصيه الا السيف » ثم رد بنه الى لحيته وحمل يمشيها ماء معه ويقول

وما ميتة ان مشها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها

فلما سمع ابن عباس كلامه ورأى ما بدا على وجهه من امارات العصب هاب مدبراً ولكنه شق عليه ان يسير الامام على ذلك الرأي لعلوا بما يتوقعه من عواقب الامر وكانت له دالة وجاهة عند فقال له « انت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب اما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول الحرب خدعة »

فقال علي « بلى »

قال « اما والله لئن اطعني لاصدرهم بعد ورد ولا تركهم ينظرون في دبر الامور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك » وما فرغ من كلامه حتى ابدى العرق حية حمية وعيرة ولكنه لم يكذب فرغ حتى اشتد عليه قائلاً « يا ابن عباس لست من هانك ولا من هات معاوية في شيء »

قال ابن عباس « اصغني والحق بمالك بنع واعني مالك عليك فان العرب نجول جولة وتضطرب ولا تعد غيرك فمالك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليجلنك الداس دم عثمان غداً »

وكان ابن عباس يتكلم وملاح وجه علي وحركانو تدلان على انه غير مقتنع فلما فرغ ابن عباس من كلامه قال له علي « تنصرت علي وارى فاذا عصيتك فاطعني » فقال ابن عباس وهو يجي رأسه خللاً « اعمل ان ايسر ما لك عدي الضاعة » فقال علي « تنصرت الى الشام فقد وليتها »

قل ابن عباس « ما هذا رأي فان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعائلة ولست آمن ان يصرب عني فمة لعنان وان ادنى ما هو صانع ان يحسني فيحكمني علي لتراثني منك وان كل ما حمل عليك حمل علي ولكن اكتب الى معاوية فمة وعدن ... » فقص علي كلامه قائلاً « لا والله لا كان هذا امداً »

فمكت ابن عباس وليت صامتاً مرة ثم استأذن وخرج وخرج في اثره الحسن
ومحمد وكان علي رؤوسهم الطير . اما علي فامر للحال في امداد عائلته الى الامصار فمكت
عثمان بن حنيفة على الصرة وعامرة بن شهاب على الكوفة وعبدالله بن عباس اخا
عبدالله (علي اليمين وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيفة على الشام

الفصل الثامن والاربعون

﴿ خلاف معاوية ﴾

وقضى علي في ذلك اياماً لا يجلو مجلسه من الامراء للفرح في هذه الشؤون فلم
ير الحسن سبيلاً الى مفاتحه في شأن اسماء على انه هو من كان في شغل عظيم من تلك
الامور . فلما فرغ علي من تزيق العمال وقتل ورود الناس على ما رأى الحسن ان
يحاط به في الامر وكان يطلع محمداً على ما يبوء ولا يعلم ما في خاطره من امر اسماء
وكان محمد اذا خاطبه الحسن في هذا الشأن حدثه معه ان يطلع على ما بكمه صديق
ولكنه امسك عن ذلك مخافة ان يكدر الحسن وهو محبة حاشدبدا . فقصي ايماً
واسابع لا بدري ما ذا يعمل وكان اذا فاته الحسن في عزمه على محاطة والى في
الامر سكنت او غير الموضوع

ففي ذات يوم جاء الحسن الى محمد وكان خارجاً من حمرته الى المسجد وقال له
اريد الذي قد فرغ من ارسال المال الى الامصار ولا اريد وقتاً اصلى من هذا لمخاطبتك
شأن اسماء ولكني ارجو ان تساعدني او تكله عني شيئاً

فاحذر محمد في امره لا بدري ما يحبه وقله ينفذ غيره ولكن حبه الحسن علب على
ما ينشأه الناس من عوامل الغيرة وعلم علوه الامر ولم يجب على انه تتأغل بالظفر
الى الافق كما يرى شيئاً . فقال له الحسن ما رأيك يا اخي ما مالك لا تخبرني هل
اكلم والدي او تكله است عني ما مالك لا تخبرني

فنظاه محمد ما شغله نشع براءه خارج سور المدينة وتناول بعضه كما
يتأمله وينفرس فيه وقال اي مشغل به جان اراءه قادمًا بسرعة العرق نحو المدينة

وكأنني بـ رسول

فالتفت الحسن فرأى هجاءً مقللاً عن بعد ولدنة م يتيسر جيداً

فقال ومن هذا الرسول يا نري

قال محمد (وقد سرّ لتغيير الموضوع) الى الحق يقال لا ارى رسولا قادماً اليها
الا وانا أخاف ان يأتيها محمد سوء ولا اخل المال الذين ارسلهم امير المؤمنين الا
راجعون التهنى احاراً الله من عواقب الفتنة

فقال الحسن ومن اين تظن هذا الرسول قادماً

قال يحمل لي من حنة مسيرته القادم من الشام فلعنه رسول معاوية وماذا برحو
من رسول يأتي من معاوية

قال الحسن دعنا ملاقيو وسأله عن هو

قل محمد هلم بما واداً كان رسولا من معاوية فالامر اما انتهى الى السلم واما
الى الحرب لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة اشهر ' ' ولا تدري ما يكون
جوابه قال ذلك ومشيما وكان الرسول قد دخل المدينة فلما دنا منها " " ما وية فافان
هو رجل من بني عس تدل قياضه على انه من اهل الشام وقد اذف العساء وتلثم
بالكفرية وعلاه العمار وتصب حمله لما هدنو في سوقه فخرج طوماراً وهو صيحة محومة قصص عليها من اسننها
دخل المدينة مدية الى جيبه فخرج طوماراً وهو صيحة محومة قصص عليها من اسننها
ورفعها والباس يتبعوه وهم يطردون الى الطومار فاستوقفة محمد قاتلاً من است
قال رسول من معاوية من الي سيمان

قال الى من

قال الى امير المؤمنين

قال الحسن وماذا تحمل اليه

قال هذا الكتاب وأشار الى الطومار

فقال سر الى امير المؤمنين انه في داره - صار وصاراً في أنبر وهما في شاعل بما
قد يكون في ذلك الكتاب ولولا حرمة امير المؤمنين لنضاً انهم تشوقاً للاطلاع
على ما فيه

ووصل الرسول الى دار علي واشتعل بعقل حمزه فصفه محمد والحسن الى الحليمة
وكان متكئا في حمزه فالحاه قدم الرسول فلما سمع خذع جنس وقد علم امره
واستفدته اليه

فدخل ومعه جمهور وعني جالس ومحمد والحسن وعمرهما من النجاة بين يديه
مقدم الرسول غير هائب ذلك فجلس وقد رفع الدومار بين يديه بعض الوقوف
ان يشاوله ما في آه ان يسلمه للامام عني بين

مد الامام بينه وتناول الدومار فترا على طاهره « من معاوية الى علي » ففصر
الحتم وفتح الدومار والباس صامتون لما سمى عليهم فلم يجد قيو شيه ففتت وطهرت
الغنة والمصب عني وحبوه وانتبت الى الرسول وقال له « ما وراءك »

قال « آمن انا »

قال « نعم ان الرسول لا يقتل » قال « تركت وراني قوما لا يرسلون الا بالقتل »

قال عني « من »

قال « من حيط رقتك وتركك سنين المبع شمع نكي تحت قبض عثمان وهو

مصوب لم قد السوء سر دمتي » (١)

فطر عني اليه نصر الاستعراب والدمعة وقال « امسى يطلون دم عثمان . اللهم
اني ارا اليك من دم عثمان قد عا طافه قتله عثمان الا ان يشاء الله » (٢) قال ذلك
وحول وجهه عن الرسول كانه لم يمد يستطيع ان يراه واثار اليه ان يخرج
فقال اخرج واما آمن قال « مات آمن » فقول الرجل يريد اخرج فاعترضه

بعض رجال علي وقبوا يقتله فصاح فيهم عني ومعهما معا السبي وهو لا يصدق

واشار الامام بعد ذلك الى الناس فخرجوا وخلا باولاده ومعه محمد بن ابي
بكر ومعه الى عبد الله بن عباس وقال لم « قد سمعتم ما قال معاوية فلم يبق ثمت
من القتال منها » فقالوا صوت واحد انا ملك اني سرت وما تندسوا اليه فاما
طوع امرك محمد جدا دفع لواءه لمحمد بن الحنفية اخي الحسن من ابيه وولي عبد
الله بن عباس ميمته وعمر بن ابي سلمة ميسرته وتناقل اهل المدينة في بادىء الراي
ولكنهم اطاعوا اخيرا (٣)

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن خلدون ج ٢ (٣) ابن الاثير ج ٣

وقضى عي^{اً} ابائاً في اعداد المعدات ومحمد والحسن في مقدمة العاملين . اما محمد فلما تخفق وقوع الحرب وتجدد الجدد ولم يتدنه امير المؤمنين للقتال صغرت نفسه وتذكراته من رأيا قتل عثمان فهو أولى بالمسير الى الحرب فتارت في نفسه مار الحمية ولم ير لها شفاء الا بالمسير الى القتال فسار الى عي^{اً} يطلب اليه ارساله في تلك الحملة وفيما هو سائر تذكر اسماءه وبعدها وهو لا يعلم ما جرى لما تحدثته نفسه ان يتقاعد عن المسير الى الحرب وهو لم يتدب اليها . ولكنه لم يكذب يتصور ذلك حتى اعترضه وجوب الدفاع عن علي لانه كان في جملة الذين حر^{وا} عليه ذلك اثار

الفصل التاسع والاربعون

﴿ حرب أخرى ﴾

وما زال سائراً حتى دخل على عي^{اً} مرآه يحظر في عرفته ذهاناً وابائاً وليس في الغرفة سواه . ورأى في يده رقعة يتأملها ويعيد تلاوتها وقد أخذ منه القلق ما أخذاً عظيماً . فباب الدخول عليه وظل واقفاً عند الباب يتردد بين ان يدخل او يعود فلدحه علي^{اً} ماداه فدخل وحياه فرد القية وهو منقلب الوجه . فهم محمد بمنأخه ولكنه ترص عساه ان يسمع منه حبراً جديداً . فصر هيبه وعلي^{اً} يحظر في ارض الغرفة حتى وقف الى نافذة من نواحيها واخذ ينظر الى الافق وهو عارق في بحار التأمل ثم حول وجهه الى محمد بفتة وقال « اين هو الحسن »

قال لا ادري يا مولاي لعله في المسجد فهل من امر اقصيه لامير المؤمنين قال ساطعك على ما حدث ولكن ما الذي حثت به اني ارى في وجهك خيراً قال انما جئت التمس من سيدي ابي الحسن ان يساويني ماهر الثقة من رجاله قال وما ذا نعي

قال اعني امك امرت الناس بالتأهب للحرب وعينت الفواد والامراء ولم تأمرني بالمسير معهم وابا اولي منهم بهذه الحرب فبسم الامام عي^{اً} تسماً يمازجه فتى وقال مورك فيك يا ابن اول الخلفاء لآت

عدي كأحد أولادي ولكنني اسذت سمك محمداً (ان الحمية) في هذه الحملة واستغنيت لمهمة اخرى

قال اني طوع ارادتك طاراني مع ذلك . لك ماخول جهد هذه الحرب أكثر من سواي

قال لا تستعجل يا بني المت . تلاني طريقاً تسير فيه الى حرب اخرى لان الطرق كثيرة

فتوسم محمد من وراء ذلك امرًا مكتومًا فقال وماذا يعني مولاي بالحرب الاخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب

فالتى علي تلك الرقعة ابني وقال اقرأ هذه الرقعة التي اتيها المانة فانها تنبئك بخبر الهين

فتساوفا محمد ونظر فيها فادا في كتاب ام النحل من مكة تسمى الامام عليا ماجناع طلحة والزبير طام المؤمنين على الملب دم عثمان وانهم عيال للسير الى العرة

نفث محمد وتلا الرقعة تابة وثالثة وهو لا يتكلم . ونحوّل علي الى مصحف على مصفة امامة فتاولة وحمل بقاب في صفحاته

فاراد محمد ان بكلمة مرآة يقلب صفحات القرآن فلبث صامتًا وقد هاله ما احاط بهذه الاخلافة من الللاء وتذكر اخنوخ وابناء عدها

ومما هو يكر نحوّل علي ابو وبك سواك يتشاكل به وهو يقول " ارايت يا محمد ما عملت ما اخذك "

فقال محمد اني لا أعجب من عملها ولا كاد اصدق انها تعله . الم يعلم امير المؤمنين شيئاً غير ما في هذه الرقعة

قال ألا يكنينا ما فيها

قال وما الذي حملهم على ذلك

قال أنساني يا محمد عن السب وقد اسأتكم بهذه العواقب قل حدوثها كم قلت لكم دعوا هذا الرجل وشأنه لا تقتلوه لان قتله سيكون سباً لعدة عدي لطمع

بعضهم في الاخلافة لاسمهم فلو ظل عثمان حيا لم يكن تمت ما بيعت على هذه الحروب

وقد بايعوني وإما اعلم انهم يضررون غير ما يظهرون فان ملأه والزيور يريدانها كل منها لفسد دون سواء فيها في اقسام عليها ولو اتحدوا في مقاومتى . وسرى اذا ما غلبا علياً ان الحرب ستقوم بينهما حتى يبي احدهما الآخر و يقتل الآلاف من المسلمين ولو اعلم ان تنازلى عن اخلافة محمد النشة لتسارت عنها . مد اليوم . ولكي اعلم انها تصعب بعدى فوصى كل منهم بتفليها لفسد . ماهيك عن معاوية في الشام وما في خاطري من الطمع في هذا الامر ولا يفرك ما يدعيه من السلب دم عمان وهو لوهمة امر لصره قبل ان يقتل . ولكنه اتحد قتلة ذريعة الى الناس الاخلافة لفسد مع تلوه اتي اولى الناس بها . فالغيرة على الاسلام وحدها تدعوني الى الدفاع عن خلافتي لعلمهم بمجمعون على بيعتي فمحمد النشة . وإما اخرونها من يدي طوعاً او كرهاً فانه يدعوا الى فتنة عظمى اخشى ان تنصبي على الاسلام والعبادته

ولم يكده علي بن كلابه حتى تقطر العرق من جبهته على لحيته واحترت عيائه وتناثرت منها دمعان اختلطتا بالعرق ونحنت في وجهه ملامح تنشف عما قام في نسيه من الغيرة على الاسلام وتعاظمت هيبته حتى لم يعد محمد يستطيع العار اليه عيباً من غصوه وخجله من نسو لانه كان في حمة الدين يرون قتل عثمان . فليست رهة صامتاً وعليه يسبح العرق عن جبهته ويده عنه عن لحيته

وسعد السكوت رهة قال محمد يظهر يا مولاي اب اخي لم نقم لهذا الامر الا مدفوعة بغريص ملحة والربير فقد حرجا من المدينة عاسين وإني لأرجو اذا لقيتها ان احوطها عن عزمها . ولكي لم افهم الحكمة في مسيرهم الى الصرة دون سواها قال اظنهم رأوا اهل المدينة بايعوني فاستهضوا اهل مكة على نقض البيعة وساروا يفعلون مثل ذلك في الصرة والكوفة

قال محمد وهل سألت الرسول عن تفصيل الامر

قال لم اسأله الا قليلاً

فقال انا ذن لي ان كلمة واستهم عن التفصيل

قال لا اتق انه يعلم تفصيلاً ولكنني ارى ان اتدرك المسير الى مكة نستطلع سر الامر سمك واست اولى الناس بذلك لان اخذك ام المؤمنين في حمة الفاتمين و سر محمد لفته المهمة سروراً عظيماً لانه يجدد بها الاسلام ويرضي بها الامام

ويستطلع حال اماء.

فاجاب قائلاً ليك يا مولاي اني سائر الساعة وارحو ان احوّل اخي عن هذا
العزم اذ قد يكون ثلثة والزبير ما اللذان حرضاها عليه . وهل تريد ان يعلم
احد بمسيري

قال لا ارى ان يعلم بواحد سر محرابه الله

قال هل تأذن لي بمقالة الرسول الذي حمل هذا الكتاب اليك اسأله
بعض الاسئلة

قال اسأله انه في دار الاضياف

مخرج محمد وهو لا يزال مدهتماً لهول ذلك الخبر ولكن لبقاء اماء كان مهون
عليه بمض الشفاء . فسار الى دار الاضياف فلقى الرسول فمرقه فسأله عن عجوزه هل
لقيها في مكة

فاخبره انه راها يوم سمر عدا المصل ومعا فتاة مريضة
فقال محمد وهل تعرف تلك الفتاة

قال لا اعرفها لانها عربية الدار ولكني علمت انها جاءت مكة مع تلك العجوز
وكانت تقيم في منزل ام المؤمنين ثم اسفلت الى بيت ام الفضل ورأيتها تشكوس
حتى شديداً

فاحس محمد سار اقتدت في اعضائه وخاف ان تكون اماء قد اصببت سمه
فاصبح مدفوعاً الى الاسراع في المسير مدافعين قوين خدمة امير المؤمنين
والبحث عن اماء

الفصل الخمسون

﴿ خواطر وهواجس ﴾

فخرج لساعته وودع علياً ولم يعلم احد به . وركب هجماً واصطعب خادماً من
بعض المدينة وركب فاصداً مكة وهو يود ان يباير اليها على اجمحة النسيم . فبات تلك

الليلة في فناء فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تندب أمها واصبح قبل الفجر على هيئته يطوي السمل والوعر وهو لا يصدق انه يصل مكة ويرى اسماء حية

على انه لم يكذب يحلو نفسه في تلك الصحراء حتى تصور ما يصدق بالخلافة من الاختار الهائلة انني تستلزم سراً وانقطاعاً عن كل عمل - واجا - فلام عواطفه لاشعاعها بالحب وعول اذا اني اسماء ان يعاهد ما عني الاقتران واكنه يشترط عليها ان لا يكون ذلك الا بعد اسفار الامام عني في حروبه عني ان يكون ذلك بذراً عليها

وكان كلما اقترب من مكة تعادى ذلك الامر لديه وتارت فيه المحبة الاسلامية والفيرة عني الامام عني وهن عنه أمر الحب وعواطفه - فلم يحل ماله من هذه المواجه لحشة وتذكر بعض اسماء وما مات به من عواقب تلك الفتنة وكما حرضت الناس على الكف عن عثمان وقتلت امرأة - احبته - مات في عيونه وارداد اعجاباً تعقلها وحسن نظرها وايضا انهم لو اصابوا الى رايها لكاتبوا في عني عن تلك الحروب

ففي طريقة كنه في مثل هذه الخواطر وهو مع ذلك يستغث حيلة لا تلتفت بمة ولا يسره مخافة ان يصعب الوقت فامسى وهو لا يزال على بضعة اميال من مكة فتشقى عليه الميت خايرها وعول على موافقة السيرة حتى يدخلها ولو ليلاً - فاشار عليه خادمة ان يستريح هبة ويرجع الحمل ريتا يضلغ الفم فيسيران في ظلمة - فاستحسن الرأي فتزلا في مكان رأيا عده بيتاً خفياً عده ما يتبع نوسد حصيراً من سعف النخل وامامه جرار وكواب من الخشب يعني بها من اراد من المارة في تلك الصحراء

فتزل على النخج وحياه ورحب به وبأدى اسماء له وعيالاً ليقدمو لضيئهم ما يحتاج اليه من الماء او العلف للجمال - فبعد محمد تندير ذلك الى خادمه وصعد الى راية خلا فيها سمعو وقد غابت الشمس فغول بضعة من تنقاء نسو الى مغيبها في الافق وكان الجوصامياً وقد طهر النفق بالوايو من خلال اغصان السط المتفرقة على أكنه هالك وقد هدأ الجولابب الهواء الألطيم لا يسمع له هبوب - وادت الطيور الى اعشاشها الا الخفاش فانه خرج يتضاير سرعته

فانكأ محمد على بساط فرسه له خادمة وعيناه شاخصتان الى الافق يراقب تلونه فما زالت الالهة تقول من الرهو الى الكمود حتى خيم الظلام وأوقد النخج ماراً يهتدي بها المارة الى ذلك المستنى - ففرق محمد في هواجبه حتى غاب وجدائه فنبهة

سبَّ مرَّ عند قدميه فوقف وأرسل نظره إلى الأفق عن بعد فرأى اشباحاً مارة نرس فيها فاذها هي بضعة جمال بينها هودج وعليها أناس قد حجب البعد هيناتهم وأسرعوا في المسير فنجعلهم من جهة سدورهم أهم خارجون من مكة يريدون المدينة أو نحوها . فتوقع محمد أن يروا بذلك المستفي كجاري العادة في من يترى هناك لعله يستطاع منهم شيئاً عن حال مكة قبل وصوله إليها فاذها قد وصلوا السير عن بعد ولم يعرجوا . فضاءهم من طلائع جد مكة السائرين إلى الصرة فلما تواروا عن بصري ولم ير أحداً في أثرهم علم أنهم ليسوا من الطلائع . ولكنه عجب لحروهم من مكة في ذلك الليل وأسراعهم في المسير في غير الطريق العام كأهم سائرون خلصة وودلوا به علم من هم . ولكن الضلام حجبهم عنه فعاد إلى هواجبه

ولم تنض هيبته حتى طلع التمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب جاء لبحث عن لصوص الضلام فلما اطلَّ عليها نادرت إلى الفرار ألا ما كان معها قريباً ولم يستطع فراراً فاختبأ وراء التلال وفي نفاق الأودية ثم لحق رفاقه وتلانى . وأشرق القمر وهو دون الندر وقد ابض وجهه وسطع بوره فحرك ما في من محمد فنادى خادمة بها العجين وودع الشيخ بعد أن أكرمه وركب فاعداً مكة .

الفصل الحادي والخمسون

البقرة

ولم يسر ساعة حتى اطلَّ على مكة وهي في مسط من الأرض تحديق بها الجبال من كل ناحية فطلع على أكمة وتأمل بيوتها بسوء التمر ما أول ما استلمت بصرها منها الكعبة . وكان يتوقع أن يرى مضارب أو حوداً في مكة أو حولها فلم ير شيئاً فواصل السير يريد منزل أم المؤمنين فمر بالأسواق فلم يجد ما كان يستطع من الحركة والجملنة والأزدحام حتى وصل بيت اخته فترجل عند باب وقعه فاطلَّ عليه عد حشوي عرف من صوتها من عبيد أم المؤمنين فناداه باسمه ففتح له الباب فدخل فرأى المنزل هادئاً فسأله عن أم المؤمنين فقال أنها خرجت من مكة بالأمس

قال إلى ابن

قال ألم نسمع بما اجمعوا عليه

قال وهل ساروا إلى البصرة

قال نعم

فسأله عن سارمها فأبىء بما كان فاستماذ بالله وألف لوصولهم بعد خروجهم وأراد الصدان أن يجلّ جملة ويغيّ له الطعام فقال لا تتعلّ أني خارج في حاجة وربما أعود وأمر خادمه أن يكت هاهنا رجلاً يرجع ويخرج وهو لا يزال بلباس السفر فأصابت أم الفضل وهو يكاد يتعثر ما ذيل السرعة مشيت فوصل منزلها فأراه مقلّماً وقد أظلمت مصابيح فظن أهله يوماً فتردد في أن يوقفهم أو يصدر إلى الغد ولكن شوقه لرؤية أسماء هوّن عليه انبساطهم - فدا من الباب وأمسك بجلتة وشدها فرأى الباب موصداً فترعه قرعاً شديداً فأجابه السنان فقال افتح ففتح له فسأله عن أم الفضل قال إنها ذهبت إلى فراشها وأظلمت لم تنم بعد

قال قل لما أن ابن أخنك محمداً جاء

فلما علم السنان أن ابن أبي بكر هرب إلى مصباح أناره ودعا محمداً للجلبوس على المصطبة ودخل إلى أم الفضل فأخبرها فأسرعت إليه وقد عليها البغلة وصاحت قبل أن يجيها قائلة ما الذي جاء بك يا محمد - وابن كنت

فجيب للهنثما وقال أني قادم من مكة - ابن أسماء

قال كيف نسألي عنها وقد بعثت في استقداها

قال إلى ابن

قالت ألم تبعث إليها كتاباً تستقدمها به إليك

فقال ومن قال لك ذلك

قالت لم يقل لي أحد ولكني رأيت رسولك ومعه كتابك دفعة إليها عند العصر وكانت لا تزال ضعيفة فلم تصبر إلى الغد بل ركبت حالاً وهي أضعفها لا تقوى على السفر

قال ماذا تقولين هل سافرت أسماء - إنهم زوروا الكتاب عن لساني - من تجاسر أن يفعل ذلك - من هو ذلك النذل الذي ارتكب هذه الخيانة

فلطمت أم الفضل بدماء يده وصاحت ما تقول يا محمد
 فبهت محمد لحظة ثم قال من أي الطرق سافرت
 قالت سافرت في هذا الطريق المؤدي إلى المدينة
 فذكر محمد الأشباح التي رآها خارج مكة وقال لقد لقيتها والله في طريقي ولكني
 لم أعرفها يا لبيني اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت صحيحة ما خفت عليها
 بأساً ولكنك تقولين إنها مريضة فاخشى إذا أخرجوها أن تموت غيظاً . لا حول ولا
 قوة إلا بالله . . . من يا ترى فعل ذلك . . . وصمت رهبة يفكر فلم يستطع إدراك
 سر الأمر ثم هب من مكانه وقال استودعك الله يا خالة وخرج
 فقالت تمهل يا محمد لتري

قال إن الوقت ثمين دعيني انقلب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلي أظفر
 بها معهم . ولم يكذب يخرج من الباب حتى وقف بغتة كأن شيئاً اعترضه فعاد إلى أم
 الفضل فاستنهما عن الحملة وجهة مسيرها فنصت عليهما المحر محضراً فوعى كل ذلك
 في ذهنه وعرج مسرعاً يلتمس الطريق الذي رأى أولئك الركب سائرين فيه
 فمر بجادمو في منزل اخيه فرآه غارقاً في النوم من شدة التعب وقد أرسل
 الجمال إلى المربط للغرب والعلف فاقظته وأمره أن يهباً للرجوع فنهض وعيناه
 لا تتفان من شدة التعب . وعلم أهل المنزل بمجيء محمد فجاءه فيم الدار يدعو
 إلى الطعام فاعتذرا أنه لا يستطيع البقاء هناك

فقال ولكن الجمال تحتاج إلى الراحة واستهله ريتا يهين له طعاماً فاتبه أنه
 لا بد له من الاستراحة هنيهة ريتا ترتاح الجمال فاذن بأعداد الطعام فجاءوه بما
 حضر فاكل وهو يستريح الخادم في الناهب للمسير . وبعد هنيهة ركب وسار بأسرع
 ما يمكنه . وكان القمر قد تكبد السماء والجو قد صفا فالتبس الطريق الذي ظن
 الركب قد ساروا فيه فقفى رهبة لا يتكلم ولا يسمع صوتاً إلا جبر الجمال مرة بعد
 أخرى . فانصف الليل والخادم يتوقع أن يسبح آمن بالنزول للسبت فلم يأنس منه
 إلا استخفافاً ثم رآه يطلب طريقاً غير الذي جاؤا فيه فذهب إلى ذلك محافة أن يكون
 قد أخطأ السبل . فاجابة أنه يعرف الطرق ولا يحتاج إلى تنبيه فمكت وظل سائراً
 فوصلا إلى مكان ينفصل فيه الطريق إلى شعبتين أحدهما تنصل بطريق المدينة
 والأخرى تنتهي إلى طريق البصرة فوقف هناك ووقف خادمه وكلاهما صامتان

الفصل الثاني والخمسون

﴿ قيافة الاثر ﴾

واما الخادم فكان مع استفرايو ما رآه من غضب محمد وقتلو لا يحسر على الاستنهام منه عما يقصد . فلما وقف عند المرق وقف معه وهو لا يتكلم وكان من الساعه والذكاء على جاسب عظيم عارفاً الاسفار خبيراً بالطرق وفروعا وكان حادقاً في القيافة وخصوصاً قيافة الاثر فلما رأى مولاة قللاً ادرك انه ينتش عن ضائع فارد ان يستطلع ما في نفسه فقال ما مال سيدي واقفا الا يرى ان يامرني بمجدة أو ديبها فلما سمع محمد كلامه انه وتذكر مهارته في استطلاع آثار الاقدام فقال في نفسه لعل هذا الرجل يتعصا باختباره

وكان الخادم كلاً عركة الدهر وقضى معلمي ايامه في الاسفار وتحمل الاخطار وكان طويل القامة سريع الحركة فلما بهالي بالنصب ولا يخاف الموت فقال له محمد ألك مهارة في قيافة الاثر يا مسعود

قال نعم يا مولاي اني من امهر الثنائين
قال أنرى على هذا الرمل اثراً المشاة او فرسان وهل نستطيع تحقيق ذلك في ضوء القمر

قال نعم يا مولاي . ونرجل عن راحتيه وجعل يتفرس في رمال الطريق كأنه يقرأ كتاباً او يفسر حساباً ومحمد واقف بالقرب منه يراقب حركاته فرآه يتقل بجملة ولياقة فلا يصع قدمه الا حيث يرى انها لا تفسد اثراً سابقاً . وما زال يروح ويحيي وهو يتفرس ويمدح ويحسب وينسب ما اذنه واصابعه ويراقب جهة الاقدام او الخفاف او الحوافر ومحمد يجب لما يبدو من خنث وحذق حتى كاد يمل الا انتظار وادرك مسعود قلته فقال (وهو لا يزال يتفرس في الرمال) لا نصبر يا مولاي من طول الانتظار فاني ارى ارباباً في الركب الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقعوا فيو رهة بروحون ويحيون وربما تفاربوا او تحاوروا فاصبر هنيئاً ان الله مع الصابرين وعاد مسعود الى علوه وهو يشي الترفصاء ويحيي رأسه يتفرس في الرمال حتى يكاد

بلاسل وجهه الارض

قصي في ذلك ساعة ومحمد تألم واقف على البارور بما خبل له لعظم قلقه ان الليل كاد ينقضي . وفيما هو في قلقه رأى مسعوداً انتصب نفته وتجذب وتغنى كأنه نعب من القرفصاء والاغناء ومشي اليه فتقدم محمد نحوه وهو يقول ما رأت باع قال ان الآثار تشابهت علي لا خلائطها ولكني علمت مع ذلك انها آثار كافنة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال بينها جملان يديران واليهين كأنهما يحملان هودجاً او نحوه ومعها عدة مشاة من الرجال : كثيرهم يحملون رماحاً لاني ارى آثاراً كما هي محاسب الاقدام . ويظهر يا مولاي ان الركب وقف ها وتردد في المسير على غير نظام وربما وقع بينهم جدال او خصام بذلك على ذلك ما في آثار اقدايمهم من عدم الانظام مع كثرة الاعمار التي تراها متجمعة ولكن يظهر اسم انقول اخبراً على المسير في هذا الطريق

فقال محمد والى اين يؤدي

قال يؤدي الى الصخرة او الكوفة

ومكث محمد وقد ترحم عنه انهم هم الركب الذين رآهم في اول ذلك الليل عن بعد فاعمل فكرته وقد حدثته فسه ان يمد تلك الآثار فحاف ان يشغله ذلك عن المهمة التي جاء بها الى مكة . فوقف صائناً يتردد بين ان يطلع مسعوداً على سر الامر او بظل على كماله فخبير في امر ثم قال انفته وما ظلك يا مسعود بالمرن الذي مروا به هل هو بعيد

قال اظنهم مروا في اوائل الليل منذ اربع ساعات او خمس وهم سائرون على عجل

فقال وهل نضلنا اذا اقتنينا اثرهم ندرّكهم

قال اذا طالعهم في مسيرهم لا نضلنا ندرّكهم الا بعد يومين او ثلاثة . قال ذلك وقد ملّ من كتمان محمد عنه الغرض من هذا البحث فعول على استطلاع السر فقال هل يرى مولاي ان يطلعي على ما هم من هذا الركب لعلني استطيع خدمة له في شيء

قال يعني يا مسعود من هذا الركب امر كبير . هل تعرف خادمتنا العجوز التي

كانت في المدينة

قال نعم اعرفها

قال انها جاءت مع فاء اموية الى مكة واقامت عند اخوتي ام المؤمنين فلما اجمع اهل مكة على المسير الى البصرة جاءها اماس بكتاب مزور عن لساني يدعونها الى المدينة فصارنا معهم في غروب هذا اليوم ولا ادري من نجرأ على هذا الفعل ولا الى اين ساروا بهما . ولكن يظهر ما بينته فياضك ايهم هم الركب الذين مرؤا بهذا المكان الليلة

فقال مسعود هل ترى ان اقضي اثمهم واتيك بالخبر واذا استطعت انفاذها فعلت فاستحسن محمد رأيه واثني على غبهته واوصاه ان يحفظ سمعو وحرصه على الاسراع وودعه وركب هجئة وتحول الى المدينة

الفصل الثالث والخمسون

الحجة علي تلى البصرة

اما الامام علي فانه خلا منسود بعد خروج محمد من غرقته ففكر بما هم فيه فرأى من الحرم ان يحول عرمة عن الشام الى البصرة فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم محمد الله واثني عليهم ثم قال « ان آخر هذا الامر لا يبلغ الا بما صلح اوله فاصروا الله بتصركم وبصلح امركم » فرأى ثنائقلا منهم وقد كان يتوقع ثلبية وبهضة فلم يقل ذلك شيئا من عزيمته . على ان جماعة من الصحابة قدموا اليهم للدفاع عنه واستنجدوا الناس فعادوا الى نصرته فبقي التسمية التي تصالها لاهل الشام اخر ربيع آخر سنة ست وثلاثين وارضى اليوم من شط من الكوفيين . وفيها هوفي الاستعداد قدم محمد بن ابي بكر وابناءه بما كان من خروج عاتكة وطلحة والريير ومن معهم الى البصرة فعمل على المسير واستعجل . وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هوفي المدينة حفظا

لسلطونو فيها . فلما رأوه ركب في مقدمة الحملة تقدم اليه عد الله بن سلام فاخذ بعنانه وقال « يا امير المؤمنين لا تخرج منها فوالله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال علي لا بد من خروجي

فنكملت الحملة واحتمعت في الرينة على ثلاثة اميال من المدينة (١) وهالك بها طي للعروج ومحمد والحسن معهم . وكان الحسن في اثناء ذلك مشغولاً بهما الخلافة عن كل شاغل وربما مرت ايامه في ذهبه فيصرسه الى ما بعد هذه المشاغل اما ممد فانه امتسأ خادمة وهو لا يدري ما صار اليه وشغل ماله عليه علي انه سر لمدين هو في تلك الحملة له انه يعلم شيئاً عن ايامه

ولما اجتمع جند علي في الرينة جاءه رجال من بني ولاد واخبروه ان جنده فاشند ازروه على ان الحسن لم يكن راحياً بجروج والده في تلك الحملة بنفسه فلما رآه عارماً على ذلك قال له « لقد امرتك فعصيتني فقتل عدداً بمعصية لا ناصر لك » فقال له علي « امك لا تزال نحن خين الجارية وما الذي امرتني فعصيتك » قال « امرتك يوم احبط عثمان ان تخرج من المدينة فقتل وامست بهما ثم امرتك يوم قتل ان لا تابع حتى تأتوك وفود العرب وبيعة اهل كل مصر فانهم لن يقطعوا امرأ دوتك فابيت علي وامرتك حين خرجت هذه المرأة وهذا الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطالحوا فان كان السواد كان علي يد غورك فعصيتني في ذلك كله »

فقال « اي بني اما قولك لو خرجت من المدينة حتى احبط عثمان فوالله لقد احبط باكما احبطوا . واما قولك لا تابع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر امر اهل المدينة وكرها ان يضع هذا الامر ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى احداً احق بهذا الامر بي فبايع الناس ابا بكر الصديق فبايعته ثم ان انا مكر استقل الى رحمة الله وما ارى احداً احق بهذا الامر مني فبايع الناس عمر فبايعته ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما ارى احداً احق بهذا الامر مني فبعلني سهماً من ستة اسم فبايع الناس عثمان فبايعته ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين فاننا مقاتل كل من خالفني بمن

اطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . ولما قولك ان اجلس في بيتي حين خرج
 طلحة والزبير فكيف لي بما قد ازميني او من تريدني ان يريدني ان اكون كالضلع التي
 يحاط بها ويقل ليست ههنا حتى يحل عرقوماها حتى يخرج واذا لم انظر فيها
 يلزمي من هذا الامر . يعني فمن شرفه فكيف علك يا بني .
 وفي الرواية اخرى علي حلت محل اسم محمد بن الحنفية صاحب الراية كما كان
 عند عزيمهم على الشام واعطوا له اقامة حراء يركب عليها ويقود وراءه فرسا كميثا

الفصل الرابع والخمسون

﴿ مسعود والحجوز ﴾

اما محمد بن ابي بكر فكان في شغل عظيم من امر الحرب والاستعداد لها ولكنه كان
 كلما خلا لحظة يذكر اسماء وكلما رأى قادمًا من سرطمة مسعودًا فلما ابطأ مسعود
 في القدوم خاف ان تكون اسماء اصبحت نسوة وكلما تصور ذلك هب جسمه
 واقشعر بدنه وود لو انه يذهب في مهمة الى البصرة او الكوفة لعله يلتقها او يسمع بخبرها
 فيبعثن ماله

فبات ذات ليلة في خيمته وقد تسلط عليه القلق للافتكار في ما هم فيه من البصرة
 للامام علي وما يتوقعونه من اللأواء . فعمد عليه الامر وتسلط عليه اثنان ولاح له ان
 يلتبس الذهاب بنسوة الى البصرة يستنهض اهلها لبصرة الامام وعول ان يسكن في
 الصباح لمخاطبة الامام في ذلك

ولم يكذب بغض اجفائه حتى سمع صوتًا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود فهب
 من فراشه وناداه فاجاب ليك ودخل وهو لا يزال في ثياب السر ودخلت في اثر
 امرأته لم يعرفها محمد في ماضي الرأي لصعق نور الصباح ولكنه ما لبث ان نهى
 انها الحجوز فغفت وتذكر اسماء فقال ما وراءك يا خالة ابن اسماء
 قالت اظن اني في البصرة او الكوفة اولا ادري اين هي

قال وكيف تركتها وجبت وحدك
قالت جئت بأمرها وسأقص عليك الخبر بعد ان استريح . قالت ذلك وتهدت
من ندة الشعب فحاطب محمد مسعوداً قائلاً وابن لقبها يا - هود وما الذي دعا الى
تفريقك كل هذه المدة

قال طال علي الامد في البحث عن ذلك الركب وكأنهم غيروا طريقهم ونعرجوا
في سبيلهم فنشابهت علي الجبهات التي ظننهم ساروا فيها فقصت اياماً في ذلك حتى
كنت ادرك البصرة ورأيت جيش ام المؤمنين عن بعد . ثم تحولت الى طريق آخر
فعثرت على هذه الخاتمة سائرة وحدها فسررت بها فسالنها عن اسماء . ومكانها فقالت
ان الركب ساروا بها ولا تدري اين هم وان اسماء هي التي بعثت بها اليك رسالة لا
ادري ما مفادها وكنت عازماً على مواصلة البحث عنها فمعني فجئت بها اليك
فحبب محمد لذلك والتفت الى العجوز وقال قصي عليها الخبر يا خالة من اوله
الى آخره

فجلست وكانت قد استراحت واخذت في سرد اخذت فقالت أقص عليك
خبرنا منذ ودعنا في المدينة وسرنا الى مكة
قال كلاً فقد سمعت خلاصة ذلك الخبر من خاتني ام الفضل ولكي اريد الاطلاع
على كيفية خروجكم من مكة

قالت « كانت اسماء مريضة عند ام الفضل وهي على مثل الجمر في انتظار امر
منك في الانتقال الى المدينة لانها أصبحت بعد ما شاهدت من تألب اهل مكة على
الطلب بدم عمان لا تستطيع الاقامة فيها . وكانت مع ضعتها كلما ذكرت علناً والحرب
والانتصار له تشدد وتثوي حتى يجبل لي انها تتناق الزول الى ساحة الوغي دفاعاً
عن الامام علي لشفة اعتقادها ببراءة من دم عمان . وكانت كما ذكرت ذلك تبكي
وتحرق استائها غيضاً لتعودها في مكة بالرغم عنها . واثبت ذلك فيها خاصة يوم خروج
اخذك ورجالها من مكة يريدون البصرة للطلب بدم عثمان فانها أصبحت في ذلك
اليوم وايس بها بأس لفرط ما هاج من عواطفها رغبة في المسير الى المدينة ولما
كان يقعدا عن ذلك قولك يوم وداعها انك ستبعث اليها من يستقدمها . فعد
سفر ام المؤمنين يوم او يومين جاء رسول بكتاب يزعم انه منك ولم تذكر اسماء ثم

قراءته حتى هبت من فراشها وقد اشرق وجهها وارتفت اسرها وقالت هيا بنا ياخاله الى المدينة فان ميمداً بعث من يحملنا اليها . فظرت الى الرسول فلم اذكر اني اعرفه فقلت له وابن الجبال والاحمال . قال في خارج مكة وقد سرحناها للراحة . فلم يعجني كلامه لاني لم اعرفه وكانت خالتيك ام انصل جالسة فسألناها عنه فقالت انها لا تعرفه . فخلوت باماء وحذرتهما من المسير مع اناس لا نعرفهم . فابت الا الركوب حالاً وقالت انها لا تبالي اياً كانوا ولما غرضها الخروج من ذلك العجن . فاطعتها وخرجنا والرجل يسير امامنا واسماء لا تزال ضعيفة من عواقب الحمى التي اصابتها وكنت قبل خروجنا من بيت ام الصل قد عرضت عليها ان يذهب ذلك الرسول فيأتنا بالجبال الى البنت فتركب من هالك فلم تستطع صبراً وأت الا المسير حالاً فوصلنا الى المكان اندي اشار اليه الرسول فرأينا هالكاً هودجاً على جملين وجمالاً اخرى وضعة رجال لم اعرف احداً منهم فازددت خوفاً ونهيت اسماء الى ذلك فلم تنه كآن رغبتها في المسير اليك اسكرتها واعمت بصيرتها . فركنا والحكم في ركابنا حتي اتينا مكاناً تصل فيه السرى الى شعتين وهناك رأينا أماساً مسلحين ينتظرون ووصلوا وفيهم شاب بلباس ثمين كأنه سيدم فناما وصلنا المرق وقفت جمالنا ودنا الرجال برماحهم فتمققا وقوع الحياة . وكان الليل قد سدل ثقاؤه فلم يعرف احداً من هؤلاء فلما رأيناهم تحولوا من طريق المدينة الى طريق البصرة قلت الى ابن اثم ذاهبون بنا . قالوا الى حيث نشاء . فهالني جناه ذلك الجواب ونظرت الى اسماء بضوء القمر فاذا هي ثائنة الجاني مع وضعها وقد كست واياها في المودج معاً وحالما تحولنا في ذلك الطريق ازلوني من المودج وحملناه على جمل واحد واركوني الجمل الآخر فاطعت بالرغم عني وبهدوني وأنا لا اجيب »

وكانت العجوز تتكلم ومحمد مصغر يتناول بعنقوله سماع ثممة الحديث وقد ظهرت البقعة على وجهه



الفصل الخامس والخمسون

﴿ اسماء في الاسر ﴾

ثم قالت العجوز « ومازلنا سائرين ممرعين طول ذلك الليل فلما أصبحنا ونهنت الوجع تأملت أولئك الرجال جيداً فرأيت بينهم واحداً تذكرت اني رأيت في جملة الخدم في بيت اخنك ام المؤمنين وتأملت الشاب الذي ذكرت لباسه الفاخر فاذا هو ذو جمال باهر وقبالة حسنة فظننته سيدهم ولم اعرف من هو ولكنني سمعتم ينادونه « سعيد » ويظهر من قياضه انه من اهل البصرة »

« ولم تذكر تزيج جمالنا حتى جاء هذا الرجل الى هودج اسماء وانا انظر اليه من بعيد واسمع بعض كلامه ففهمت انه يسألها كيف ترى نفسها وهل هي لا تزال تفضل المدينة واهلها على سلام ورأيت منه احتفاءً عظيماً بها فامر لها بطعام فاخر وجعل كل رجاله في خدمتها »

فقاطعها محمد قائلاً وهل أكلت من طعامه واجابته على كلامه
قالت العجوز « اعلم يا بني اني لم اشاهد في حياتي كها لا في الجاهلية ولا في الاسلام فتاة ولا شاباً اثبت جاشاً من اسماء ولا اصبر على المكابر منها فقد كانت مع ضعفها وتيقنها بالخطر الذي وقعت فيه ساكنة القلب لم يبدُ على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يخاطبها انها كانت تغمي بكلام وان كنت لم اسمعه فقد ادركت على اثره في وجه الشاب بهيماً وخوفاً منها . وكأن الخطر زاد اسماء هيبه وجلالاً وزادها الضعف حسناً وجمالاً . واما انا فقد كنت خافقة القلب مضطربة المحاسن لا اكاد استطيع الوقوف لمدة الارتعاش وهي جالسة في هودجها والكل يلتمسون امرها وخصوصاً سعيد فقد رأيت يدي في تلبية كل اشارة »

فقال محمد ثانية لم تخيبي يا خالة على سؤالي هل أكلت من طعامه
قالت لا يا سيدي لم اشاهدها تأكل ولكنني لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام
قال ثم ماذا

قالت العجوز « ولم نترح قليلاً حتى نهض الركب وسرنا نطوي اليداء ووجهتنا

العراق وأنا لا ادري ماذا اعمل . واظن اسماء لو رأت فائدة من الدفاع لنعلت ولكنها وجدت نفسها عزلاء . لا سلاح معها وحولها رجال مدحجون بالحرب والسيوف والرماح وقد احسنت سكوبها وتصبرها ولكنها عجبت كيف استطاعت ذلك بدون ان يبدو عليها الخوف وقد كنت اراها كل مسافة الطريق ساكنة تتأمل كتابها تكرر في طريقة للنجاة

« واما سعيد الذي هو السبب في ارتكاب هذه الخيانة على ما يظهر واظنه فعل ذلك رغبة في الحصول على اسماء فقد رأيت هائبا مخاطبتها وربما م ان يخاطبها بشيء في نفسها فاذا دنا من هودجها ارفع عليه فينظأهر بامر آخر . ففضيت اليوم الثاني ولما اود الدسو من اسماء لعلنا تشاور في سبل النجاة فلم استطع لانهم كانوا يحاولون الفرار بيننا عنق . فبتنا تلك الليلة واصبحنا وقد ملكت هذه الحال فلاح لي اخيرا ان أنظأهر بالتعصب والمرض لعلمهم يسعون لي بمواجهتها وارى ما يكون فشكوت الما في طني وعجزا عن الركوب فقال سيد النوم انتركوها في الطريق وسيرط . فصحت دعوني انظر ابنتي دعوني اودعها . واخذت في البكاء فسمعتي اسماء فطلبت ان تراني فحملوني اليها فاجلستني في هودجها وارخت ستائر ومشى الركب بنا فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتحدثت وقالت « اعلي يا خالة اني في حال لم اقع عمري في مثلها ولما اعلم الناس بما يحدث لي من الخطر ولكنها لا اري الخوف يجديني نفعا ولا انا استطاع دفاعا ولو كان في يدي عصا او سيف وكأني ثلاثة او اربعة ما حبست لم حسابا ولكنكم عشرة مسلحون وأنا وحدي ولا سلاح معي . على اني سأرى ما يكون من امرهم فطالما كانت معاملتهم اياي على هذه الصورة اسأيرهم واسير معهم ولذا تغيرت تغيرت والظاهر انهم سائرون بنا الى معسكر ام المؤمنين واظن هذا الشاب المغرور من جلة رجالها وقد لاح لي انه طامع بي فليضع ما شاء اما انا فاني سائرة معه حتى اجد لي سبيلا اتجو به ولكنها احب ان ألمع حبي عمدا شيئا في نفسي فكيف العمل » فقلت لها اما ابلة اياه فان هؤلاء الرجال يودون الخلف مني فاذا انا تظاهرت بحب الخلف عنهم خلفوني وساروا بقولي لي ما تريدن . فقالت ساكنة لك ذلك في كتاب توصليو اليك قلت حسنا . وسرنا هنية ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب فرفع المتر عن الهودج وقال لي انزلي من هذا الهودج ان الجمل لا يستطيع حملك فشكوت له التعصب

والمرض . فقال لا يعني . فقالت له اسماء . نهل ريثما فصل الى مكان نستريح فيه جميعاً
فاذا لم تقدر ههنا الخالة على الركوب معنا تركناها او اوصلناها الى قافلة تسير بها . وكانت
اسماء تنكلم والشاب يظن اليها وقد هام بها ولم تزد اهتماماً إلا حباً . وكأنها سحرته
فاصابه خل فقال حساً . فوصلنا في المساء الى مكان فيو آبار وشجر فنزلنا جميعاً
ونصلاً الخيام فطلعت اسماء الخولة . نسها فتركوها واجلسني خارج خلوتي لئلا يدهما
احد ففضت هناك ساعة حتى استقل مالي عليها ثم خرجت الي وقد احمرت عينها
وتللت ويدها منديل قطعة من قميصها دفعتني الي وقالت احفظي بهذا الكتاب وادفنيه
الى محمد اذا لقيناه . فتناولته وخأنته بين انيائي وانا احاذر ان يراني أحد . فقالت
لي اسرع في السير الى محمد ما استطعت

« فظننت الى الانني فرأيت قافلة كأنها قادمة نحونا فعلت ان ركنا سير حل قبل
وصولها خوفاً من عبون الرضا . فظاهرت بائي لا استطيع الركوب ولا المشي فلما رأى
اصحابنا القافلة قادمة همأوا للرجال فطلبوا الي ان اركب او اسبي فاعذرت فقالوا
اذا نبينها . قلت اني ولكني طلعت ان اودع اسماء فاذهب لي بالحمل علي لا اسراع
فضممتها وقبلتها مراراً وكبكت وكبكت . وكنت اسبي منها كلاماً عراي على فراقها
وطأن قلبي عليها فقد قالت « لا تخافي علي يا خالتي فاني ارجو ان يكون اسري هذا
سباً في خدمة عذيمة اقوم بها للامام علي ومحمد وعلى الله اتكالي » ولم أكد اجمعها حتى
افلح حملها وسار وهي تنفث الي وتنسم ولما انكبي . فظننت وحدي انظر وصول القافلة
فاذا هي غير قادمة مخوي ل سائقة في طريق آخر فنهبت اسبي في اثرها وما زلت
اسير تارة وحدي وطوراً استعصب راعياً او ماشياً وطوراً اركب واونة اسبي حتى
لقيت مسعوداً علي ما قصة عليك »

الفصل السادس والخمسون

﴿ كتاب اسماء وتوارد المخاطر ﴾

ولم تفرغ العجوز من قصتها حتى نعت ومحمد شاخص اليها فلما فرغت من

الحديث قال لما ابن هو كآب اساء ماؤ
فمدت يدها الى جيبها واستخرجته وكانت قد خاطته سباطن ثوبها كرقعة ودفعته
اليو فتأوله فاذا هو قطعة من قميص اساء . فاستأنس وادنى المصباح منه ونظر
فاذا فيه كتابية يمداد احمر محرف لم يألّفه لفرّو من الشكل النبوي الذي كان يكتب
بو عرب الشام فرأى قراءته تحتاج الى زمن . فاولماً الى مسعود ان يذهب بالهجوز
الى مكان تسترج فيه واغلق خيمته وجلس الى جانب المصباح وطقق بقرأ
فاذا فيو :

« أكتب اليك هذا يمداد من دمى اذ لا يبيل لي الى غير واما في صحراء قاحلة
وحولي اناس لا ادري غرضهم من اسري على انهم لن يبالوا بي وطراً . وقد علمت
انهم سائرون بي الى معسكر ام المؤمنين بالعرف واظنهم من رجال تلك الحملة .
لا يخرج يا محمد ولا تحف على اساء . فانها يحول اليو لا تخشى ما ساء

« وانما اكتب هذا اليك لاشك بحالي وادعوك الى عهد نعتك يحننا نجعله نذراً
عليها على ان تكون اعمالنا وحولنا وقولنا كلها مكرسة لخدمة امير المؤمنين ابن عم
الرسول (صلعم) اللهم ظلمنا بدم عمان واما وامت اعلم الناس ببراءة . فعليها القيام
بصرته فاذا فرغنا من هذه الشؤون والانتقام الامر نظارنا في انفسنا واجننا داعي قلوبنا
« هذا ما ادعوك اليو وارجوان تعاهد بين طيو ولا اظلك تحالي فيو واما منذ
الآن ساعة في هذا الدليل وارجوان يكون اسري هذا مساعداً على هذه الخدمة فانت
نعمل من جية واما من جهة اخرى سالاتي ام المؤمنين واقنعها ببراءة الامام من
دم عثمان . آه يا ليتها كانت معاً ليلة وجدناه يبكي عند قبر الرسول (آه من تلك
الليلة كم لقيت فيها من الازمال) وسهواه ويبدب الاسلام ويخوف وقوع الفتنة لعلها
تعتقد براءته . اقول ذلك وافعله اذا قطعت العقبة الوعره التي اراها في سبيلي واذا
منته فاني اموت شهيدة العفاف والنفرة على الاسلام والصرة للامام علي رجل هذه الامة
اقول ثانية اني ادعوك الى التحالف على نصرة الامام علي والانتصاع الى ذلك بكل
حولنا وعواطفنا فاذا فرغنا منه على غير وفوز فكرنا باقتسام والسلام »

« اساء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة ذلك الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطلع اعجاباً باساء .

واستغرب توارد الخطاطر بينها وبينه فلم يتالك عن قتل كتابها والنساء على حببتها
ولكنه ما زال خائفاً عليها من غائلة ذلك الاسر
وقضى شية ليلته في مثل هذه المهاجس وقد مال نكيتو الى المسير في مهمة الى
العراق لعله ياتي اساء فينقذها من الاسر

الفصل السابع والخمسون

✽ عثمان بن حنيف ✽

فأصبح في اليوم التالي وخرج يلتمس فسطاط الامام علي لعله يسمع خبراً جديداً
فدخل عليه فرأى في مجلس جماعة من الصحابة يتحدثون في مام فيو من الاحوال
ويتشاورون في ماذا يعملون والامام منقلب الوجه بغير في ما قام من التنة
وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم مبهوتين فسال علي ما وراءك
قال ان في الباب ركبا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم
قال فليدخل كبريم

فدخل رجل ملثم الوجه حياً الامام علياً وكشف عن وجهه فاذا هو احاطط
الوجه املط لا شعر في لحينه ولا شاربيه ولا حاجبيه ولا اشعار عينيه (١) فأنكره
علي وتأمله وقال من الرجل

قال هو عثمان بن حنيف عاملك على البصرة

بعثت الامام وقال وما الذي اصابك

قال بعثني بلحمة فجئتكم امرد (٢)

قال علي أصبت اجراً وخيراً احك لنا خبرك وما دعا الى تنف شعر وجهك

علي ما نرى

قال « بعثني يا مولاي عاملاً على البصرة فلقيني الناس وسرطاً بخلافة الامام علي
ثم ما لبثت ان سمعت يتحدث اهل البصرة بأمر حدث وإن كنتاً وردت علي بعضهم من
ام المؤمنين تدعوم بها الى الاخذ بـ عثمان ولما قدم من مكة واقامت في الحنبر

على نضع لبال من البصرة^(١) تنظر الحجاب فهي الامر كثيراً فبعثت رجلين احدهما رجل عامه والاخر رجل خاصه يسألانها عما تريد فعادا اليّ واخبراني ان ام المؤمنين وثلثة واثربهم مصرون على الصليب بدم عيان مك وان الاخيرين لم يبايعاك الا كرهاً . فشاورت رجالي فقال بعضهم مصرم وقال آخرون مردّم ورأيت لم نصراء في البصرة فبحثت اتساع الخرق ثم علمت ان عائشة جاءت المرد وهو السوق خارج البصرة ومعها رجالها . فخرجت اليها تنسني ومعني بعض اهل البصرة من يرون رأني فلما انتهيت الى المعسكر سألتهم عن غرضهم فوقف طلحة وتكلم بنضائل الخليفة عثمان وأحث على الاخذ شارو ثم نام الزبير بمثل ذلك فصادق رجالها على اقبالها فقلت لما يابعتم علياً وجئتم تقولون . فوقعت عد ذلك ام المؤمنين والقت خطاباً حرّضت فيه الناس على الدلب بدم عثمان وقالت قولاً كثيراً وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كثيرة من رجالي مالوا اليها . ثم اشتد اللجاج بين الرجال واشتدت الحرب فقتل من رجالي جماعة كثيرة فنادينا الى الصلح ونواعدا على ان يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير اكرها على البيعة سلّس اليهم الامر والا فانها يرجعان فبعثت اليك وفد في ذلك

فقال عليّ وقد اجابهم اهل المدينة انها بايعا طائعين قال عثمان نعم يا مولاي جاءهم الوفد بذلك فأنكروا وبعثوا اليّ وكانت ليلة ذات رباح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة المشاء فأرسلت بعض رجالي لا ترى ماذا يريدون فقتلهم ثم جاؤا اليّ واخرجوني وتنفوا لحبي وشعر حاجبي واشتار عيني كما ترى فبحثت ما تخبر كما وقع

فقال عليّ اما لله واما ابو راجعون وكيف اهل البصرة الآن

قال ان سوادهم مع ام المؤمنين

فاطرق عليّ وكل من في مجلسه سكوت يتظرون ما يبدو منه فظل ساكناً حتى شعر الناس انه يريد ان يخلو محاصره فخرجوا جميعاً وفي جملتهم محمد بن ابي بكر وقد ساءه تعاظم الامر الى هذا الحد ولم يكذبك خبيثة حتى جاءه رسول يستقدمه الى علي فاسرع اليه فلم ير عنده الا محمد بن جعفر فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منه

امراً جديداً فلم يكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر وبه: جلوس
خاطبة الامام علي قائلاً والاهتمام ظاهر وجه « اندري لما دعوتك »
قال خيراً ان شاء الله

قال قد سمعت ما فعلت اخذك وثمجة والزبير في الصرة فقد سادوا عاملنا وحصل
الناس على حربنا لاننا على زعمهم قتلنا عثمان واست تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير
بهنا استنفارهم ليكونوا معنا في هذه الحرب اذا كان لابد منها وقد انتدبتك است
وام اخي هذا لتسير الى ابي موسى الاشعري عاملنا على الكوفة نستنصران الناس
لصرة الحق

فوقف محمد وقد ابتلا حمية وقال اما طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونهق
امير المؤمنين فرض واجب علينا

قال علي تأهبوا وحرجا الى ابي موسى^(١) واقرأ هذا الكتاب على الناس وادعوا
الى الاصلاح فاننا لا نريد سواه واني انا هب للمسير في ثركا واستعين الله في نصرة الحق
وكبح جماح الباطل

فحرجا وتأهبوا للمسير فلتتركها سائرین في هذه المهمة ولتعد للجهت عن اساء.

الفصل الثامن والخمسون

﴿ الفتنك باسماء ﴾

اما اسماء فقد كان السبب في اسرها ان احد كبار اهل الصرة من جاوذا مع
ان عامر الى مكة شاهدها ساعه وقوفها في العريش ومحاطتها مروان بتلك
المجسرة مع ما كان يخفى في عيها من المهابة والجمال فوقعت من نسو موقعاً عظيماً
وعلق قلبه بها . وكان من اهل اليسار والذخ فلما انتفض المجلس سأل عنها فاخبر
بعض الذين اطلعوا على حديثها سرّاً من خدم ام المؤمنين انها مخطوبة ل محمد بن
ابي بكر وانها باقية في مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة فحدثت نفس ان يخطبها

ويغويها بجو ويتزوحها وهو يعتقد انها لانات ان ترى جماله وتعلم بمجاهو وغناه حتى يهواه وتصله على محمد فيحظى بها ويتم من محمد لقبتو على عثمان . فاصطنع ذلك الكتاب عن لسان محمد وبعث به مع بعض رجاله حتى اغوى اسماء على الخروج من مكة وكان هو في انتظارها مع شقة رجاله عند منفرد الطريق فدار بها كما تقدم وهو تارة يستمعها باللين وطوراً يدها بالسادة ريثما يصل بها البصرة ويخيل له في بادىء الرأي انها مالت اليه لما آسء من سكوتها وتصبرها ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزناً وتعقلاً وكان بود التخلص من العجز فقبس له ذلك على امون سبيل كما تقدم . فنقض اياماً في سين وهو يصرح في الطرق ووجه وجبة يلتبس رضاها قبل الوصول الى البصرة فلما دما من البصرة عرج في طريقه بتهي بالكوفة وكان له فيها منازل وصانع

واما هي فكانت تفكر في طريقة اللجاة وكثيراً ما حدثتها نفسها ان نجافية وتظهر احتقارها له ولكنها كانت تعود فتصدر نفسها بحفاة العتك فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم ير يداً من الوقوف على عزمها فصبر حتى سدل الليل ثغاب وجاءها وهي مستلقية في المودج التماساً للراحة وقد عظم عليها ما لاقته في ذلك الامر وكان بجانب المودج نار اوقدوها للاستضاءة فرفع ستار المودج فاتبعت اسماء وجلست ولما رأت سعيداً استعاذت بالله اما هو فحياها بلطف وقال لها ألا تظنين البصرة خيراً من المدينة يا اسماء

فاطرقت ولم تجب فحبا سعيد امامها ومد يده الى معصها واراد ان يمسه ويتكلم وهو ينظر الى وجبتها وقد انعكست عنه اشعة لمهب النار . فلم يكدهم بعدها حتى اجملت وجذبتها من بين امانلو ومالعت في الاطراق

فقال لها ما بالك يا مليحة ألا ترالين نجافيتي وانت تعلمين اني أكرهك فهل است خائفة ان لا تلاقى في منزل محكم الاكرام الذي يليق بك . ولكلك لا تلبسين ان تنزلي في بيتك بالبصرة او في الكوفة حتى تشعري بالعادة اني نتظرك هناك مما لا يتأتى لاحد سواي ان يهلك اياه فهناك تجددين المخدم والحشم والدور والمنازل والحيل والملاشئة والملابس الفاخرة وكل اسباب الراحة . . . ألا تمنين علي بتظرف تدل على رضاك

وكان سعيد يتكلم وعيا اسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بحجاب هودجها ولا يحاكها في ذلك الليل الهادي. الا بيران قلبها المثقة حناً لحمد وغيرة على الاسلام وقد ازدادت انقاداً وحنّةً لما سمعت من كلام ذلك الشاب وارادت ان توحه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرست نفسها للخطر السريع فتهدت وظلت صامنة

اما هوفظن تنهها دليلاً على تأثرها من كلامه فاشتم وصحف نحوها وهولاً بزال جانيها ومد يد يمينك امامها وهم بالتكلم فخذبت يدها منه وطار اليه والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم اعرضت عنه وهي تحرق استنابها. فاشتم هو وهتق وقال سفة الحب الولدان " بالله الا رحمت قلباً قيدته سلاسل هواك . الا رمتني لثقة ألا ردت لظاء بكلمة . قولي يا اسماء . قولي انك راضية بي عذراً رفاً واما اكرس حياتي لحديثك . والله ابي لم اقل هذا لأحد قبلك تعطيني بالله وارفعني كفى سكوتنا واعراضاً اعلمي يا ملجئة ابي انما اريد سعادتك وان الله ساقني اليك لحس حطك وحظي . وان ابي بكر ليس اهلاً لك ولا هو يستحقك ولست تزين ما يحل به اذا احترم القتال وتصادمت السال "

فلم تعد اسماء تستطيع صراً على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد وحدثتها نفسها ان نصفه على وجهه ولكنها كتمت غيظها بالرغم عنها وعمدت الى توبيخه فقالت بنم واطىء وصوت رخم " ابي لا اراك اهلاً للزوال "

فسر سعيد لكلامها وان يكن توبيخاً لانه رجا ان يتصل بالحديث معها الى استرضائها فقال " وما ادراك يا فانتني اني غير اهل لذلك "

قالت وهي تنظر اليه بظفر التوبيخ " لان الرجل الذي يقضع البياض والفتار طلباً للنار او نصرة للحق على ما ترعون لا يرتكب جريمة التزوير ومن كان حراً صادقاً يلقى الرجال في حومة الوغى لا يتعاطب فتاة لا يعرفها بل هو يعلم انها تحب سواء "

فحن الرجل رأسه عند كلامها وقال " لقد صدقت اينها العذراء اني ارتكبت التزوير ولكنني لم افضل ذلك في عمري كولو غير هذه المرة وما فعلته الا التماساً لقربك اذ لم يكن لي اليه غير هذا السبيل فانا استغفر منك عن هذا الذنب "

قالت " انك انما اذبت الى غيري فان كنت رجلاً فالتق محمدًا واستغفره فاما

ان يغفر لك وإما ان يباركك فزى من هو الرجل
فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يديه فقبض بواحدة على زندها
وجعل الاخرى على شاقبها واراد ان يترعه . فجذبت يدها منه ووقفت وقد اخذ
الغضب منها مأخذاً عظيماً وقالت « ابتعد عني ولا يغفر لك سكوتي ومرضي والله اذا
مددت يدك اليّ كسرتها نصفين »

فصحك سعيد وقال « لا تنفسي يا حبيتي فاني لم افعل شيئاً يفضبك ولكنني
استرضيك واستعطفك فافيتي من غيبتك ولا ترفضني نعمة اسم الله بها عليك »
قالت وهي تعجز للخروج من المودج « اذا كنت ترعك انك تريد رضاي فاعلم
انك تطلب عني . واذا حدثت بك نفسك سوطر تغيبه فاعلم انها تحذرك باطلاً وان
احتراتي في هذه النار ايسر عليّ مما تدعوني اليه »

فقال وقد حار في امره وهو يكفم غيظاً ولا يزال يبرجو رضاءها « تهمل يا حبيتي
وتصرني في ما اقول لك ولا ترفضني النعمة التي اعرضها عليك باسم الحب . . . »
فالت بنفمة جافية « لا تنطقي بالحب فانك تتكلم باطلاً ولا تستعظم قوتك
ونستكثر رجالك فان ذلك لا يبرهني »

الفصل التاسع والخمسون

* الاصرار على الفتيك *

فلما رأى منها هذا الاصرار وقف على قدميه بغنة وصاح فيها صيحة دوت لما
الاودية في ذلك الليل الهادي وانتهرها قائلاً « اراك قد بالغت في القهقهة واستغنيت
في وانت تعلمين انك اسيرة بين يديّ » قال ذلك وامسك بيدها وجذبها اليه .
فشعرت كأن قوتها تضاعفت ونسبت ضعفتا ومرضاها وانتفضت من بين يديها ورفسته
برجلها فارسلته سطيحاً على الارض واعرضت بوجهها عنه

فهب من وقعته وصاح برجاله فجبهروا حول اسماء وقبض بعضهم على يديها
والبعض الآخر على كنفها فتملصت من بين ايديهم وصاحت فيهم قائلة « عار عليكم
وانتم رجال مسلمون ان تجبهروا على فتاة عزلاء لاسلاح منها »

فصاح سعيد فيهم « قبيحوا هذه الخائنة وشذوا ساعديها »
فقال « ما الخائن إلا أنت يا نذل الرجال أنظن القيود تقيد شيئاً من حريتي »
قالت ذلك وممت بصفا من عصي الهودج استلها وهجمت على الرجال ففروا من
امامها ثم عادوا وتكاثروا عليها وفيما هي تحاول مدافعهم عثرت رجلها بعقال الجمل
فوقعت على الأرض فاسرعوا اليها وحاملوها كما تحوم النور حول الحقة وشذوا
وثاقها وهي لا تنالي بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض من شدة الغبط وامرم ان
يلتوها في الهودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أيقنت اسماء بالخطر القريب تفرقت الدموع في عينها وصاحت « آه
يا محمد ابن أنت ... يا ويل الابدال اللئام الذين لا ذمة لهم ولا ذمام »
فلما سمعها سعيد تنادي محمداً ضحك ضحكة ضحكة بما لعلها ارتعاش الغضب وقال
« لا تذكرني محمداً ولا ترجي نجاة من هذا الاسر » ثم امر رجاله فترقبوا فدما منها وهي
في تلك الحال وعاد الى الملاينة والملاطمة فقال « كيف ترين نفسك الآن الا ترجعين
عن غيبك وتقبلين بتصفيتي . ها انك اسيرة بين يدي وحياتك رهينة اشارتي الا اذا
اجبت سؤالي فتصيرين انت الامم الناهية . قولي انك رضية بي . قولي انك تحبيني »
فصاحت به قائلة « لا لا لا احبك اذهب عني يا شيطان ولا ترني وجهك »
قال « الا ترالين على عنادك وروحك في قبضة يدي »

قالت لا تهددني بالموت فانه خير ما اتوقعه ... اقتلني وارحني من هذه الحياة
قال لا لا اقتلك بل اذيقك العذاب ... لا بل اعيد القمع ثانية وادعوك
الى حيي . قال ذلك وجلس عند رأسها ومد يده الى شعرها ولم يكذب يده حتى اقتشع
جسمها وانتفضت وكان الوثاق محلولاً من بعض اطرافه فخلعت يدها فاستخرجت
ذراعها ودفعت يده بعنف فخاف ان تنكس به فجرد حسامه وهوم به عليها فوقعت
وذراعها الاخرى لا تزال ممدوده فاخطأت السيف من يده فقطعت به بقية المحبال
واغارت عليه ففر من امامها وبادى رجاله فاسرعوا اليها فاصابت احدهم
بضربة على عنقه فمخّر قتيلاً وممت بالناقب فتكاثروا عليها وبمافئ بالرماح
والحراب والسيف فاصابها سنان في زندها فوقع السيف من يدها ووقعت على الأرض
مغشى عليها من شدة الالم فاسرعوا اليها وكنفوها وهي لا تعي . فلما رآها سعيد غائبة

امر بالماء فرشوها به حتى افانت . فقال اتركوها الآن ربنا نستريح وهو يحسب انها
ستدعن الامر . فسكت عنها رهة وهو جالس بالقرب منها يعلل نفسه برضاها بعد
ما اصابها من الصنك

واما في فكاك لا ترداد الا مرة منه وياساً من الحياة ولما رأت ما في فيه من
الخطر الاكيد علم عليها الامر فلم تمالك عن الكاء والشهيق
فدما سعيد منها وقال نغمة الظافر « والآن يا اسماء كيف تزين نفسك »
قالت لا اراي الا ازداد نفوراً منك اذهب من امام عيني
قال يا للجب اعد هذا كلوا لا تزالين نرحين خلاصاً
قالت « لا اارجو خلاصاً ولا اطلب غير الموت فانه غايه ما ارجوه ولكن
آه » قالت ذلك وعادت الى الكاء وفي قول « ابن است يا محمد . . . ارفي
وحبك قل المات ولو لحظة »

فلما سمعها تذكر محمداً اتقدت الغيرة في قلبه وعول على الفتك بها فحرد
حسامه ووقف فوق رأسها فخرت الى السيف وصوره اللهب يهكس عنه فيلمع
فايقنت انه قاتلها لا محالة فصاحت « ابن است يا محمد يا ابن ابي كبر زودني نظارة
ملك قل المات »

فقال سعيد « انظنين اي اقلك الآن لا لا تعالي نفسك بهذه الامنية فاني
ساميتك صلياً » وأشار الى بعض الوقوف من رجاله فرمعوها عن الارض واوقفوها الى
شجرة من السنط الصقل طهرها بها وشدوها اليها شدةً وثيقاً وكان في حزر التخمع
ثوات واشواك اصابت يدها فألتمها لكنها لم تكن تنالي شيء في جاب ما شعرت
به من الذوق لرؤية محمد في آخر ساعة من ساعات الدنيا عندها فاسفت كيف
انها ستارق الحياة ولا تراه . وكانت تفكر في ذلك وفي تنظر الى ذلك الافق
المظلم الذي لا يبرق فيه غير تلك البار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها متدودة الى السنطة وذهب هو ورجاله يلتمسون الراحة او
الماء وظلت هي مصلوبة تنظر تارة الى الافق وطوراً الى السماء وآونة الى النار امامها
وهي غارقة في بحار المواجه وحديثها نفسها ان تلين لسعيد وتعلن خيراً ريثما ترى ما
يجيء به القدر ولكنها علمت انه لا يكتفي من رضاها بالكلام فقط فعدت الى مواجهها

وهي تنظر الى النار فرأيتها قد اخذت بالخبود فحافت ان تنطفئ. ولا يبقى ما يؤاسها . على ان خودها جعل الافق أكثر ظهوراً لديها فقد كانت لا ترى فيه الا ظلاماً داساً فلما سجدت النار ظهر في اطرافه نص الاشباح من الشجر او اللال وكانت لمرط فلقها بحسب الاشباح اماً قادمين لافادها



الفصل الستون

﴿ باب القرج ﴾

وفيا هي تنظر الى الافق رأت هناك اشباحا تغرك فتفرست جيداً فاذا هي من وافر اس قليلة عليها رجال فاستأنت بهم وهمت ان تستصرخهم فمنعها الالفة وعزة النفس فقالت في نفسها « اذا كان لي نصيب بالحياة اتى اولئك الركب لا تقاذي بالهام من الله »

اما سعيد فقد كان ساهراً وهو يتوقع ان تسترضيه اسماء فرأى عند الافق اشباحاً وعلم ان ماره ستهديهم اليه فامر باطنائها فلما رأت اسماء الرجال يهون باطفاء النار ابقت انهم خائفون فقالت في نفسها عسى ان تقع عاقبة خوفهم على رؤوسهم واستبشرت بالقرج . على انها لم تكذب تنعل حتى رأت سعيداً قادماً نحوها والحسام مجرد في يده وصاح فيها وهو يحسبها لا ترى احداً قادماً وقال « هل لان قلبك الان ام ماذا » فلم تجب . فقال « قولي . . . احبي . . ان حياتك بين شنتيك فاما ان تصيري سعيدة واما ان يجري دمك على حرع هذه النجعة . . قولي حالا »

فغيرت بماذا تجيبه وهي تعلم انها اذا اجابت بالرفض ضربها بالحسام وهي متدودة الوثاق فرأت الماطلة خير فريضة لغنائها ربنا يصل اولئك الركب عمام ان يخطوها . فلم تجب

فادرك سعيد قصدتها وخاف اذا انتظر جوابها ان يصل الركب فشرع الحسام يده وصاح بها « قولي حالا فاما ان اسمع صوت قولك واما ان اسمع صوت حسامي على عنقك »

فعظم عليها هذا التهديد وهجرها التعلل فقالت « لا لالا ارضى . . . فاضرب عني والله يجزي الغالمين . . . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن ابي بكر اين انت . . . آه لو تعلم مصير اسماء »

فلما سمع سعيد رفضها نزل بالسيف على عنقها ولكنة لشدوا واضطرابه حاد سيفه قليلاً فوقع على كتفها ولم يصب غير الحبال وهي مجدولة من الياف الخبل فقطعها ولم يزد فاقحل وثاق اسماء وهي لا تدري وكانت تتوقع الحيام فلما رأته وثاقها محلولاً ظنت نفسها في منام ولكنها ما لبثت ان ادركت انه اخطأ الضرب فقولت اليوهي كالاسد الكاسر لفرط غيظها منه فلما رأى اطلاقها زاد فشلة وصاح رجاله فتكاثروا حولها بهزاهم وسبوهم فصاحت فيهم « اما فيكم من يرعى الذمام ويخاف من الله » قالت ذلك ولاحت منها الثعانة فرأت الركب قد اصبحوا على قاب قوسين منها ولم تكن تصح تلك الصيحة حتى سمعت صوتاً كالرعد القاصف وقع في اذنها ووقع الماء على قلب الثأان ألا وهو صوت محمد بن ابي بكر يقول « ليك يا اسماء لقد جاءك الفرج . . . اخسأ يا اناثال »

أما هؤلاء فحالما سمعوا صوت محمد ورأوا معه رجالاً آخرين حولوا وجوههم واركبوا الى الفرار بما استطاعوا حمله ولم تنص هنيهة حتى غابوا عن الابصار وقد تركوا اسلأهم وبعض جمالم والمودج

ولا نسل عن اسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها لبثت مدة صامتة تحسب نفسها في منام حتى دناها وناداه « اسماء » فقالت « محمد . آه اين كنت يا حبي اللم الله بعثك بمجيرة ليعاني ام انا في منام »

قال « بل انت في يقظة . ما الذي اصابك . هل فبك من بأس »
قالت لا بأس لي غير جرح خفيف في زندي اصابني واما ادافع هؤلاء اللئام ولولاه لقتلهم جميعاً ولكن السيف سقط من يدي وعثرت بعقال الجبل فشددوا وثاقي .
قالت ذلك والتفتت فرأت مع محمد رجلاً آخر لم تعرفه فنجالت لما ابدته من عواطف المحب فأدرك محمد ما بها فقال « لا تستغري رفاقي فان هذا محمد بن جعفر ابن اخي امير المؤمنين وهؤلاء خدم سائرون في ركابنا الى الكوفة وقد جشنا بهمة في خدمة امير المؤمنين فاجلسي الان واسترعي وقصي علينا خبرك » فجلست وجلسا

ومحمد ان جعفر يحب لما يبدو من همة تلك الفتاة وكان قد سمع من محمد عن حديثها وغيرها على الامام وعلى الاسلام فاحبها بمجرد السماع فلما رأى فيها تلك الحمية سر لسماع حديثها فجلسوا وقصت اسماء ما جرى لها وما شاخصان بزياداد انجاباً . وقص محمد ما تم له بعد مجيء كتابها وقصوا قصة ذلك الليل بالاحاديث وقبل الفجر أغضت اجفانهم ساعة فاستراحوا فلما انسلج الصبح وافاقوا من منامهم نظروا الى ما حولهم فاذا بقايا المارين وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد فنظر محمد اليها وسأل اسماء عنها فقالت انه احد اولئك الطعام ادر كنة بصرية ذهبت بجبانة

فقال يورك فيك ففحن الآن ذاهبون الى الكوفة وهي على مقربة ما فهم بنا اليها ينقضي مهنتنا ثم نعمت بك الى المدينة تقيمين فيها ريثما تنقضي الحرب فقالت وهي تنظر اليه نظر العاتب « العل كتاني لم يصلك » قال بلى وصلني

قالت فكيف تدعوني الى الإقامة في المدينة وقد عاهدت نفسي على نصره الامام علي جهد طاقتي

قال لقد جاهدت وسعلك وانت مريضة

قالت لا بأس بي ياذن الله

قال فلنذهب معاً الى الكوفة ثم يرى ما يكون

قالت لا ارى في ذهابي اليها فائدة

قال ماذا اذا

قالت « انت تسير في مهنتك ولما انا فاني اسير الى اخذك ام المؤمنين في البصرة عساي ان اتوفى الى اقناعها ببراءة الامام علي فتكف عن الحرب حجاً لدماء المسلمين وفراراً من سوء العقبى . ان الامر لا أعظم مما تتصوره يا محمد وقد آليت على نفسي ان اضحي كل شيء في سبيل دفع هذه الفتنة »

فأعجب محمد ومحمد مجيئها فقال لما ابن ابي بكر « ولكنني لا اظن سعيك الا ذاهباً عبثاً »

قالت علي السعي وعلى الله التدير . . . وابن في الطريق الى البصرة

قال اذا كان لا بد من ذهابك اليها فاني اصحبك بخبر من رجالي يسير في خدمتك الى حيث تشائين . قال ذلك وبأدى مسعوداً وكان في جملة من صحبة في هذا السفر فجاء مسرعاً فقال محمد بن اسماء التي حملت الي كتابها انها سائرة الى البصرة فاوصلها الى معسكر ام المؤمنين وعد الي بالخبر في الكوفة فنهضت اسماء للحال وامرت مسعوداً ان يهيئ الجمل . فقال ألا تركين المودج قالت لا ليس هو وقت التمتع اركني جلاً خفيفاً قالت ذلك ونظرت الى محمد قائلة ان الوقت ثمين يا محمد فلنسر في مساعانا عسائنا ان نوفق الى ملاقاتك كما اخترتك فنهض محمد وركبوا جميعاً . فسارت اسماء ومسعود نحو البصرة ومضى الباقيون نحو الكوفة وهم يحسون لما آسوه من تنهاها اسماء وحميتها وغيرها

الفصل الحادي والستون

﴿ خطر آخر ﴾

وسارت اسماء وهي تسحب جملها ومسعود سائر على جملها امامها ليهديها الى الطريق فمضى معظم النهار ولم يستريحوا ولا تناولوا طعاماً فلما كان الغروب سالت اسماء عن البصرة فقال انها على نضع ساعات منا فارى ان سبت ههنا الليلة وصبح فتصاحج المدينة قالت لا صر لي على الانتظار هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة فنقيم في المريد قال ان جيش ام المؤمنين يحجمون هناك قالت سر بنا على خيرة الله فاني انما اقصد معسكرها فلم يستطع مسعود مخالفتها وظل سائراً يتلمس الطريق تلمساً لان الليل كان حالكا وانفق مع ذلك هبوب الريح وتلبد الغيوم فلم يعد يرى الطريق امامه ولا الغيوم حتى يهتدي بها ولكنه رأى نوراً عن بعد فعلم انه نور دير لبعض النسايط كان قد زاره في بعض خطرانه في تلك الاغواء . فجعل ذلك النور وجهته واسماء سائرة في اثره وهما صامتان لا يسمعان الا وقع اخفاف الجمل اما على انجادة فتفرق واما على الاشواك والادغال فتخش خشيئاً

وكان مسعود منشغل المال لمسيرها في ذلك الظلام وخاف ان يعترضها وحش او يهويها في هوة وقد عجب لنبجاة اسماء وتحملها مشقة ذلك السر . على انه ما عنتم ان سمع طنين سهم مرسل في الجو مرّاً امام عينيها فحمل واقعنس وصاح قائلاً " من ذا الذي يريد غدركنا " ولم يتم كلامه حتى سمع اسماء تقول " آخ .. قتلني قتلك الله " فلم ان السهم اصابها فتقول اليها وقال " ما مالك يا سيدتي ما الذي اصابك "

قالت " اصابي سهم في جني واطنة قتلي " فترجل عن جملو واباح حملها فاذنا في تسند جها يدها والسهم لا يزال مغروساً فيو فزعة مخفة فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها فتقول في امره وخاف ان تموت اسماء بين يديه في ذلك القفر المظلم فوضع يده على جرحها وضغطه بكفه وهو يرتعش من عظم التأثر ثم سألها عن حالها فقالت " اني مقتولة لا محالة . اظن ذلك النذل قد كمن لنا في هذا الطريق " وازادت التكلم فارنج عليها فلم ير مسعود خيراً من ان يحملها على حملو ويسرع الى ذلك الدبر لما يجها . فاردفها خلفه وساق جملة وقاد حملها وراءه واسرع الى الدبر ولم يصدق انه وصلة فاذا هو مقفل وسوره عال لا يمكن احيازه فتذكر ان الديور يعلقون فوق ابوابها اجراساً يدهقها من يحمي طارفاً فاهتدى الى التحمل فشد فطن الجرس فلم يحمية احد فكرر الدق بعنف وصدر هتية فسمع صوتاً جهورياً يقول " من الطارق " فاجاب مسعود قائلاً " افتح ماشدتك الله واسرع الى اغاثنا " فقال من انت

قال اننا غرباء في اشد الضك افتح رعاك الله . قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتاً وانصرف فكره الى اسماء وهي متطرحة عند عتبة الباب نعم عتيماً عميقاً فامسكها يدها ويد ترنخ خوفاً عليها فراها باردة فحس جرحها ففاصت انامله في الدم وكان قد تخثر وملاً ثوبها فحاول اجلاسها ليتحقق صحتها فاذا هي تنخر وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابه وم ان يصيح بيواب الدبر فرأى نوراً انشئ من كوة فوق الباب فالتفت فرأى رأساً عارياً قد دخله الشيب فايضاً باضاً ماصعاً قد اطل من الكوة والمصباح في يد يتعكس بوره عن ملينو البيضاء وهو يقول " اصدقنا ايها الطارق من انت "

فصاح مسعود قائلاً « انا غرياء ومعى مريض مشرف على الموت اتجدا جزيك الله خيراً »

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج (سَفَاطَة) كأنه شد بمجل فافتحت خوخة صغيرة في وسط ذلك الباب المصنوع بالحديد فرأى مسعود انه لا يستطيع الدخول من الخوخة وإساره في تلك الحال فتقدم الى الراهب ان يفتح الباب كله وأشار الى ما بين يديه فاسرع الراهب مخفياً مع شيوخه وجرّ عضادة ضخمة من خشب كانت وراء الباب ففتحه وساعد مسعوداً في نقل أساءه الى اقرب غرفة هناك واجلسها على الفراش وخفّ الراهب الى رئيس الدبر ليخبره الخبر . ولم تمض هنيهة حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رقى بدهه وتجدد جلد وجهه واكتسى بالشعر الابيض على خمة ولكن عينيّه ما زالتا شقيقتان بوراً وصحة وقامته معتدلة تدل على نشاط وهمة . فتقدم الرئيس الى الفتاة وهي ملقاة على الفراش وسأل مسعوداً عما بها فقص عليه الخبر مختصراً . فادارها على جنبها الصحيح واخذ في كنف الجرح فحوّل مسعود وجهه عنها حياءً وحتمّة واشتغل الرئيس وراعه غسل الجرح وتضميده وامر بلبن غسلة ثم صب عليه ماء مقدساً يحتفظون به لمثل هذه الحال وربطه وامر بملائة من نسج الماء فغطاها بها القاساً للدفء ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه زيت من مصباح الدبر المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الى الله ان يقرب الشفاء . فأفاقت أساءه هنيهة ولكنها لم تقل شيئاً ثم عادت الى العتيق . وكان رئيس الدبر وهو يغسل وجه الفتاة بتأملها ويتفرد في ملاحظتها كأنه تذكر شخصاً يشبهها . وهو في أثناء ذلك يعتذر لمسعود عن تأخر الراهب في فتح الباب لتخوفهم من بعض الطارقين الذين كثروا يومئذ على اثر قدوم جند مكة الى الصرة ووقوع بعض المواقع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحوّل الى مسعود فسأله « من الفتاة »

فقال « انها فتاة لبعض كبار الصحابة . ولم يزد »

فاعاد الرئيس نظره اليها وادنى المصباح من وجهها وكان قد امتنع ونحل وهي مطبقة العينين كأنها في سبات وقال « فهي اذاً مسلمة »

قال نعم

فلح الرئيس في صدرها حجاباً اعتاد النصارى تعليقه في صدورهم وكان زندها

مكتشفاً فرأى عليه رسم الصليب فالتفت الى مسعود وقال " ولكني ارى عليها
بعض اشارات الصراية "

فلم مسعود من تدقيقه وهو لا يجهل ساعته الا شفاؤها فقال " لا ادري يا سيدي
بوي انها مسلمة فلعل لتلك النارات سبباً لا اعلمه "

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو نارة يظفر الى
وجهها وطوراً يطرق متأملاً كأنه يبحث في ذكرته عن شخص يشبهها

ثم نظر الى مسعود بغتة وقال له امضي يا سيدي الى غرفة الاضياف اذا تمنت طعاماً
ثم اذهب الى رقادك مريضاً فلا يصح على هذه الناة قليل حتى تعمو وتتحسن صحتها
بقوة الله وبركة صاحب هذا الدير

فقال مسعود اني لا اشعر بانحوع ولا انا في حاجة الى الرقاد واصطل النقاء هنا
لارى ما يتم لها

قال لا حاجة الى فائتك ولا بأس عليها لانا ما سمحنا حرجاً او مريضاً بهذا
الماء المقدس الا شاء الله اذهب الى فراشك واذا تمنت النقاء خارج هذه العرفة
فلا بأس

فاستخيا مسعود من تكرار الاعتذار فخرج وجلس على حصيد وراء العرفة
اما الرئيس فحالماً خلا بالراهب حملاً بتساراً ويقاطبان لسان نصارى
العراق (الكلداني) ويتبران الى اسماء . وكان مسعود لفتق لا يغفل عن كل حركة
تحدث فانشغل باله لتلك المسارة واصاح سمعو فلم ينهم من كلامها شيئاً . فحعل يرصد
ما يبدو منها فاذا بالرئيس امر الراهب فخرج ثم عاد ويده كتاب ضم ففتح وقرأ وتم
ثم ركع الاثنان فعلم انها يصليان . فلت ريثما فرغا من الصلاة وقاما فرأى الرئيس دنا
من اسماء وهو يمسخ الماء عن جبينها وينأملها ثم جلس الى جانبها ولست يتظر ما
يدوم منها . وبعد هنيهة تحركت كأنها تحول عن احد جنبها الى الآخر وما كادت تعمل
ذلك حتى صاححت من الالم . فسر مسعود لصياحها لعلها انه يدل على الصعو فدخل
العرقة فرأى اسماء قد فطعت عينها ونظرت الى ما حولها فوقف نصراً عند وجه
الرئيس وحاولت التفرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذبلت اجفانها وأطمنت
عينها فعدت حالاً الى الرقاد . فأومأ الرئيس الى مسعود بيده وملاح وجهه

وهو ينسب كأنه يقول « استبشر بالخير أيها قد افأقت » . فانسط وجه مسعود وظهر الشر عليه ونسل الى الله ان يتم شئاءها مخافة غضب محمد بن أبي بكر . وقضت نية تلك الليلة راقدة وتنعسا هادي »

وفي الصباح بكر مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف عن الجرح وتديل رباطه فتحول حالاً حتى اذا فرع الراهب من عمله نادى مسعوداً فدخل ونظر الى وجه اسماء فاذا هي قد افأقت وفتحت عينها فحمد الله ودنا منها فلما رأته قالت له « آه من ذاك النذل الذي عجز عن مصادرتي وجهاً لوجه فاراد قتلي غدراً ولو كان رجلاً لظهر نفسه وطلب الرأز او الطعان » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فقال مسعود لا بأس عليك يا سيدتي ولا تعأبي بما فعله هذا الغادر على اتنا لا ندري اذا كان هو العاقل

قالت لا ريب عندي انه هو عينو والآ فمن يعرفنا في هذه الديار سواء .. هو هو عينو قبحه الله

قال مالنا وله فمارأيك بي هل اذهب لاخبر مولاي محمداً بما وقع ليأني لاعالك ..

فقطعت عليه الكلام قائلة « لا لا لا تفعل لاني اخشى اذا علم بما حل لي ان يسعي اليّ ويعمل مهمة التي انتك امير المؤمنين لفضانها وهي تتعلق بمصلحة عامة المسلمين فلا يليق ان نشغل عنها مجيء فرد من افرادهم . وزد على ذلك اني بحمد الله مستريحة لا اخالني بعد ايام قليلة الا راكبة جملاً او جواداً الى معسكر ام المؤمنين اودي المهمة التي اتدبت نفسي لها » . قالت ذلك واصعدت بصرها الى فوق وشارت يدها كأنها تقول « فقد لي الله ان افق هنا في هذه الحالة » وشغلت اشارتها بدمعتين كبيرتين اغمرتا على خديها ثم التفتت الى ايقونة معلقة بالحائط امامها شغلت نفسها بالنظر اليها

وكان الراهب في اثاء ذلك . مغفلاً بقراءة درج (رق) في يد فيه فرض من فروض الصلاة

اما مسعود فلما سمع كلام اسماء وشاهد الدمع ينحدر من عينيها على تلك الصورة

تأثر من منظرها واستعظم كيان حاملها عن محمد فقال لها كيف اكتم عنك حالك وقد عهد اليّ العناية بك

قالت « افعل ما اقول لك . اتركني هنا واذهب اليو لعله يحتاج اليك في شيء . طاما انا فلا بأس عليّ في هذا الدبر فان اصحابه اهل ضيافة ورعاية وقد صرت على مقربة من معسكر ام المؤمنين وبعد بضعة ايام انقضى من جرحي فاذهب اليها والانتكال على الله »

فتركها وذهب الى غرفة الرئيس فقرأ خارجاً فسأله عن رأيه في حال اماء فقال له ان جرحها خفيف لا خوف منه وتمهد له ان يتولى العناية بها حتى تشفى فاطمان خاطره ومكث هناك الى مساء ذلك اليوم ومات الى الصباح التالي فرأى اماء قد تحسنت حالها فارتاح باله فودعها ومضى وهي تلح عليه ان يعين محمدًا عنها

الفصل الثاني والستون

﴿ عودٌ الى السر ﴾

اما رئيس الدبر فكان قد قضى نهار الامس وليله وهو ينظر الى اماء ويجهد فكره في تذكر ما يعرفه عنها او عن يشبهها فلم يهتد . فلما خرج لوداع مسعود عاد الى اماء وكانت قد تعبت من الرقاد فجلست في الفراش . فلما دخل الرئيس نظرت اليه وتأملت وجهه فتذكرت انها رآته مرة قبل ذلك الحين في دمشق يوم سفرها منها مع والديها الى المدينة . وكانت قد لحظت اشتباهاً بها منذ دخولها الدبر . فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليه وقالت « ألا تذكر يا حضرة الاب المحترم انك رأيتني قبل هذه المرة »

قال هذا الذي شغل بالي منذ رأيك بالامس ولكنني لا اذكر اين رأيك
قالت اظنك رأيته في دمشق في العام الماضي

فلما سمع قولها انبسطت سمحة وتدرس في وجهها وقال للحال « نعم نعم .. شاهدتك مع والدتك وقد جئتما الى كنيسة ماري يوحنا في دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ

الدار ... نعم اذكر ذلك ... ابن هي والدتك »
فلما سمعت اساء ذكر والدتها تفرقت الدموع في عينيها فبادرت الى مسجها
بطرف كها وسكنت

فادرك الرئيس ان هناك امراً محرماً دعاها الى البكاء فسكت لحظة ثم قال
« وهل اصاب والدتك سوء »

فالت وفي تنكي « مع ياسيدي انها ماتت وأسأف عليها ولولا ما هنا ... »
قالت ذلك وشرقت دموعها

فاطرق الرئيس برهة ونظر الى الراهب وكان لا يزال جالساً وأشار اليه ان يخرج
من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس ماساء جعل يحفف عنها ويمزحها ويلتمس صبرها حتى
هدأ روعها ثم قال لها « وهل عرفت امالك »

فلما سمعت سؤالا توجست من ورائه نوراً اعلمها عهدي يو الى استطلاع ذلك
المر الذي كانت تظنه دفن مع والدتها . فالت « لا ياسيدي لم اعرفه وهل
انت تعرفه » فسكت برهة ثم قال « لا يا ابنتي ولا انا اعرفه ولكن ... » وسكت
فالت « ولكن ماذا ... قل ياسيدي ان معرفة ذلك تنهي كثيراً وقد كنت احسب
امر والذي الحقني مكتوماً عن كل بشر سوى والدتي . ولما توفيت حسنت ضاع
ودفن معها . فكيف عرفت انت ان والذي مجهول وقد كان ذلك سرّاً مكتوماً عن
كل انسان على ما اعلم فاطلاعتك عليه يستلزم معرفتك حقيقة . فهل انت عارف
شيئاً ... قل لي وافرج كرتي » قالت ذلك لهفة وقد نسيت جرحها وضعها

فلبت الرئيس الشج برهة صامتاً وهو يمشط لحية باصابعه كأنه يكتم امراً ودّاً
لوائه لم ينفع عليه بآناً للسؤال عنه . ولكنه لما رأى اساء تخاطبه بهذه اللفظة قال لها
« صدقيني يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك ولكنني اعلم ان الذي كان مع والدتك
يوم رأيتك في كنيسة ماري يوحنا دمشق ليس هو والدك الحقني »

قالت وهي تخفض صوته احتراماً لمقام الرئيس وشجوخه « وكيف عرفت ذلك
ياسيدي . ربما لا يهلك امر هذا المر مطلقاً ولكنه بهني كثيراً لاني علمت ان يزيداً
الذي كان مع والدتي (رحمها الله) ليس هو والذي الحقني وان لي أباً غير كان
والذي قد وعدتني بذكر اسمه ووصولنا المدينة ففضى الله بومها قبل وصولنا واحسرتاه

عليها . . . فظلمتُ مجهولة النسب . وظن الله قد اراد كشف هذا الذل عني على يدك »
قالت ذلك وجمت بتفصيل بين وهي تقول « انوسل اليك ان تطعمني على ما تعرفه من
هذا القليل »

وكانت هي تتكلم والرئيس السبيخ مطرق فلما فرغت من كلامها رفع نظره اليها
وقال « قلت لك يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك ولما كنيته اطلاقي على ذلك
فاني اقصد عليك لعله ينفذك في شيء »

فاعتدلت اسما في مجلسها وبداها على جنبها المبروح تضغط عليه تخفيفاً للآلام واصغت
لما يقوله الرئيس

فقال « اتذكرين يوم جاءت والدتك الى كنيسة ماري بوحنا في دمشق وكنت
استريح معها فتركناك مع والدك خارجاً ودخلت في لوداع القسيس مرقس قسيس تلك
الكنيسة ثم خرج ذلك القسيس الشيخ لوداعك فهل تذكرينه »
قالت نعم يا سيدي « اذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعاً »

قال الرئيس « وقد كنت اما يومئذ زائراً عند فلما عاد الي رأيت على وجهه آثار
البغته فقلت ما باللك يا حضرة القسيس فقال « ان هذه المرأة سرّاً عهدته الي منذ بضع
وعشرين سنة وهي الآن شاخصة الى المدينة لتبيع . وهناك واخشي لضعفها ومرضاها ان
تموت قبل وصولها . فاذا حدث ذلك ظل هذا الامر مكتوماً عدي وحدي واراني
قد شغفت وربما دنا اجلي فيذهب السرضاعاً وهو بهم هذه النتاة » (وشار اليك)
فقلت له « هل هو سراعتراف » قال « نعم » فقلت « لا سبيل اذا الى كشفه لي ولكنني
اود ان اعرف موضوعة بحيث لا يكون في ذلك ما يهده اباحة » فتردد كثيراً قبل ان
اجابني ثم قال لي « ان هذه النتاة التي تراها مع هذه المرأة هي ابنتها واهل دمشق يظنون
هذا الرجل والدها وهو ليس والدها » فقلت « ومن هو والدها اذا » قال « لا استطيع
كشف هذا السر الآن ولكنه سيظهر بعد قليل لان المرأة متعلقة بنفسها لكشف
امرها لاصحاب الشأن في يثرب (المدينة) لان والد النتاة الحقيقي هو احد كبار المسلمين
هناك . . . »

فبغتت اسما وخفى قلبها فصعد الدم الى وجهها فتوردت بالرغم عن وضعها ونطاولت
بعنفها لسباح الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهنة « وما هو اسمه »

قال « لا اعلم يا ابني ولم أسأل القسيس عنه لعلمي انه لا يوح و حفظاً لمر الاعراف فالذي فهمته ان والدك الحقيقي انما هو من كبار المسلمين في يثرب »
فبهتت وقد عاد لونها الى الاصفرار للهنثها وتأثرها ثم قالت « ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك واما لا اعرف يثرب قبل هذه المرة ولم اسمع والدتي تذكرها »

قال « علمت يا ابني ان والدتك كانت تبالي في اخفاء هذا الامر عن كل انسان لانها رومانية الاصل حملها بمض قواد المسلمين الذين فعلوا الشام في جملة السبايا واهداها الى والدك فمكنت عنده بضع ليال ثم قسم عليها اخوها (خالك) خلسة وحرضا على الفرار ففرت الى دمشق ولم تستطع الظهور خوفاً من العيون فبعت مصر . فظهر حملها هناك وقبل ان تضعك التمس القسيس مرقس وكان في كنيسة المعلقة بمصر بونثو وكانت تعرفه مذ كان في الشام وبنت له هذا السر واخبرته عن والدك . ثم جرت الحروب بمصر ففقدوا العرب وقتل خالك ووقعت والدتك في جملة السبايا ثانية وانت طفلة فتزوجها يزيد الذي تعرفته واقام بها في دمشق وانت معها . فلا نجي لا اغفال والدتك ذكر والدك الحقيقي لانها كانت تعتبر نفسها مجرمة ونحشى اذا عرف مكانها ان يقتل منها »

ولم يلم الرئيس كلامه حتى استولت البغته على اسما وتولتها الدهشة ولبثت صامتة وهي لا تزال ترجوان يكون الرئيس عارفاً اسم والدها فتولست اليه ثانية ان يخبرها بو . فاكد لها انه لا يعرف اسمه ثم قال « اذا لقيت القسيس مرقس في دمشق بطملك عليه وربما اطلعتك على امور كثيرة تنبئك فاسري اليه حال شفائك قبل ان ينقضي اجلة لانه شيخ طاعن في السن . انظري الى شيخوختي واعلمي اني اذا فهمت الاعمار بالاجيال كنت اصغر من اولاده »

وكانت اسما قد تعبت من الجلوس فلما يست من استطلاع اسم والدها من الرئيس زاد نعيها فالتفت نفسها على الفراش وتهدت تهداً عميقاً وهي صامتة تفكر في ما سمعته واشتاقته نفسها للسفر الى دمشق لعلها تلاقى القسيس فيقتص عليها الخبر . علي انما علمت ان والدها بمض كبار المسلمين فاخذت تفكر في من عسى ان يكون وهل هو حي او ميت فاستغرقت في مثل هذه المواجس . ولما رآها الرئيس مستغرقة ظمها نبل الى الرفاد فخرج وتركها فنامت ولا تمل عن احلامها المزعجة

الفصل الثالث والستون

﴿ حملة علي ﴾

قضت اسماء في ذلك الدبر اياماً وهي تنقلب على فراش الوجع وهو اجسها تتعاطف لا تدري اذا شفيت تسير الى دمشق لمقابلة القسيس مرقس ام الى ام المؤمنين لاناذا مهمتها . وكانت تتمرر لانجاسها في الدبر بالرغم عنها فلم تكذ تستطيع الوقوف حتى صارت تشدد وتخرج الى فناء الدبر تمن نفسها على المشي

وصعدت ذات يوم الى سطح الدبر فاطلعت منه على سهل واسع رأت في آخره ما يلي الصرة معسكراً فيه الخيام والاعلام وحوله الجمال ترعى في بعض المغارس ومعها العبيد . فعلمت انه معسكر ام المؤمنين في ضاحية الصرة وكان الوقت اصيلاً فجعلت تفكر في ما تنوي من مخاطبة ام المؤمنين وما تتوقع ان تسمعه من دفاعها وبهي الاجوبة اللازمة . وما زالت غارقة في مثل هذه الهواجس حتى مالت الشمس الى المغرب فانجذب بصرها نحوها وقد تعاطف جرمها وتكورت ومالت الى الاحمرار شأها قبل المغرب . فانشغلت بالنظر الى الافق والتفتع بذلك المظر البديع وقد نسبت موقفها . ولم تكذ تغيب الشمس حتى احسنت اسماء بالبرد فحولت تلتبس الدفء في الفراش فاسرعت اليه مخافة ان يضر البرد بها

فبانت تلك الليلة وهي تتوقع ان تصبح نائمة فتستظر في ما اذا كانت تسير الى معسكر ام المؤمنين ام الى الشام

فلما اصحبت شعرت بانتماش ولكن الضعف مازال يمنحها عن السفر وخصوصاً على الجمل او الجواد . فلم تَرَبْداً من الاصطبار ريثا يتم لام المرح وتفتوق قليلاً فالتفتت من رئيس الدبر ان يأذن لها في الخروج للرياضة في بساطين الدبر فاذا لما فخرجت وحدها الى البستان ثمشي الموبناء فاجتهدت عن الدبر مسافة طويلة وهي لا تدري فانكشف لها من الافق قسم كان مستترا وراء التلال فرأت فيه خياماً واعلاماً وجمالاً وعبيداً ولم تكذ تنفوس في ذلك المجمع العظيم حتى علمت انه معسكر الامام علي ففتح قلبها ومشت قليلاً حتى دنت من آكمة صعدت اليها وجعلت

تناً ملكاً ونفسها تحديها بالذهاب اليو لعلها ترى محمداً فيو او تسمع شيئاً عن خبره على
 انها نداءست من قدوم جيش الامام لانه بدل على اقتراب الحرب
 وفيها هي غارقة في هذه الافكار سمعت صوتاً يزجر جملأ على مقربة منها . فالتفتت
 فانذا ببعير سائب يعلو ورجل يركض في اثره يستنجد الناس ليساعده في القبض
 عليه . فلم يبع اسماء السكوت مع ضعبها فاعترضت الجبل وهوأت عليه ليرجع وكان
 قد جمع ملا بردهً بهوم فظل مسرعاً في سبيله فاعثاظت لعدم اكترانو بهويها
 فركضت اليو وتعلت بعفو لانه لم يكن له رسن فظل راکضاً واسماء ممسكة عقه
 مكنتا ذراعيهما كأنها تسلق للصعود الى ظهره . ولكنها ما لشت ار شعرت بخوارقواها
 واحست كأن شيئاً تمزق في مكان الجرح فعات ان الجرح قد امتح واشتد بها
 الام حتى لم تعد تستطيع صرا عليه . وكان العبر في اناء ذلك قد خفت سرعته
 فادركه صاحبة واسك بعفو حتى اماخه فسقطت اسماء الى الارض لانهي من شدالام
 وكان صاحب البعير شاباً من عبد القيس وهي من جملة القبائل التي اتحدت
 عليها ^(١) وجاءت معه للحرب . فلما رأى اسماء ساعدته في القبض على بهيم ثم رأى
 ما ألم بها من التعب حتى سقطت خاتق القوى شعراة السبب في ما اصابها فدما
 منها واجلسها وقد بهن جمالها وعجبتة هيتها فكلها فأفاقت ويدها ضاغطة على جنبها
 تنقي الام . ولما رأأت ذلك الغريب مجاها علمت انه صاحب العبر . اما هو فحالما
 نظرت اليو هاب عينيها ورأى فيها هبة اوقفة عد حذره وربما كانت نفعة تحذره
 بشيء فلم يستطع الا تنطيف ما بها والاعتذار عما اصابها بسبهو
 اما هي فجلدت واغتتمت تلك المرة لاستطلاع حقيقة ذلك الجند فقالت له
 « من انت »

قال « من عبد القيس »

قالت ومن هم هؤلاء الجند الذين راهم امامنا

قال اما سمعت بما قام بين الامام علي وطم المؤمنين

قالت سمعت وطمت وهل هذا الجند هو جند الامام علي

قال نعم ونحن في نجدتو لاعتقادنا فضله على سائر الناس

قالت وكم هو عدد رجاله

قال عشرون ألفاً بين راجل وفارس^(١)

قالت اتعلم عدد جند ام المؤمنين

قال اظنهم ثلاثين ألفاً^(٢)

فبهتت وهي تفكر في الفرق بين الجيشين والام يشغلها عن ذلك حتى كاد يسمها
عن الكلام على انها تنددت وقالت ولم تظن الغلة منها

فابسم الداب وقال لا حاجة بنا الى هذا الظن والامر قد قضى بالامس

قالت وماذا تعني

قال لقد تمّ الصلح واصرف العدا

فبهتت اسماء ولم تصدق مقالة فقالت « وكيف ذلك اصدقني الخبر » وشعرت منذ

سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض فمشت وهي تحاطب الرجل حتى

جلست على حجر تحت شجرة وأسدت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكها فوق اثوابها

فأراد الرجل ان يشرح لها اصل العدا فظن انها خالية الذهن من خبره . فابتدرته

قائلة لا تشرح القصة فاني اعلمها ولكن اخبرني كيف تداعى الى الصلح

فجيب الرجل لاطلاع اسماء وود ان يعرف من هي ولكنه اجابها على سؤالها

قائلة : ان جيشنا وصل الى هذا المكان بالامس فلما تقابل الجيشان خرج من جيش

ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يلتمسان البراز فخرج اليها الامام عليّ حتى

اختلفت اعناق دوليهم ونحن نتظار عاقبة ذلك الملتقى لانه سيكون فاصلاً اما علينا

واما لنا فنجاوله مدة ونحن ننظر اليهم لنرى ما يبدو منهم من راز او نحو . فاذا هم

وقوف يحاطبون وعلينا بعد رجوع الامام انه لما اتىها قال لها « لعمرى قد اعددتما

سلاحاً وخيلاً ورجالاً ان كنتما اعددتما عند الله عذراً فاننا الله ولا نكوننا كالكافي

تقضت غزها من بعد قرة انكثا . الم اكن اخاكما في دينكما تحرمان دمي واحرم دمكما

فهل من حدث احل لكما دمي » فقال طلحة « البت على عثمان » قال علي « يومئذ يوفيه

الله دينهم الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان فلنم الله قتلة عثمان يا طلحة اجئت بعرس رسول

الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت اما يا عني » قال « يا عينك

والسيف على عني» فقال علي للزبير « يا زبير ما اخرجك » قال « انت ولا اراك لهذا الامر اهلاً ولا اولى به ما » فقال له علي « الست له اهلاً بعد عثمان قد كنا معك من بني عبد المطلب حتى بلغ انك ان السوء ففرق بيننا » وذكره اشياء وقال له « أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر اليّ فضحك وضحكت اليه فقلت له لا يدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بهز لتفانئت وأنت ظالم له » قال الزبير « اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا والله لا اقاتلك ابداً » (١)

وهكذا عاد الامام اليها بالخبر وتوسمنا خبراً من ندم اولئك على عملهم . ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة البراز سار توتاً الى ام المؤمنين فقال لها « ما كنت في موطن منذ علقت الا واما اعرف في امر غير موطني هذا » فقالت له « ما تريد ان تصنع » قال « اريد ان ادعهم واذهب » فوجّهت اليه عبد الله وقال « جمعت بين هاتين الشئتين حتى اذا حدد بعضهم لبعضهم اردت ان تتركهم وتذهب ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلقت انها تحملها قبة انجاد وان نحتها الموت الاحمر فخشيت » فاعنذر الزبير انه حلف ان لا يقاتل علياً . ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره فتم الاتفاق على الصلح وبتنا ليلتنا البارحة والقلوب مادية وكل فرح بما حجب من دماء المسلمين فلما سمعت اسماء كلام الرجل اشرق وجهها وارتقت اسرعتها ونسيت ألمها وضعفها وقالت « بورك الله بالخبر يا اخا عبد القيس » وازادت الاستغمام عن محمد ومقامه فقالت « وهل جاء اهل الكوفة لنصرة الامام » قال لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيراً

قالت كيف يترددون عن نجدة امير المؤمنين

قال : ذهب اليهم اولاً محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر فلقيا ابا موسى الاشعري عامل الكوفة فكلما فضل القعود على المسير فعاد محمد ومحمد الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس فعادا ولم ينالا وطراً . فأرسل ابنة الحسن وعمار بن ياسر فجاء الكوفة وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدة . وظل ابو موسى يمرض الكوفيين على القعود فلا يسبرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . فجاءد الحسن حتى

اقنعهم ان يقوموا لصرة امير المؤمنين فجاهد منهم تسعة آلاف
فأدرت اسماء من خلال ذلك ان محمداً في معسكر الامام علي وكانت قد
نعتت من الجلوس على المنبر فنهضت تلتبس الدبر لمداواة الجرح لانها شعرت وهي
قابضة عليه ان الدم يسيل منه . فأحس الرجل برادها فأراد مساعدتها بالمشي
فأبت فرافقها حتى دنت من الدبر فودعها وخرج يحملو يطلب المعسكر
اما هي فالتصمت الغرفة فلقبها الرئيس عند الباب فسالها عن حالها فقصت عليه
حديث الجبل ووقوعها فهم الى الجرح فاعاد ضياده وبشرها بان لا خوف منه فلبت
تفكر بما سمعته وكانت كلما تصورت وقوع الصلح يكاد قلبها يطير فرحاً لتخلصها من
مصائب كثيرة وحجب دماء الناس . على انها كانت وهي في وسط هذه المصائب اذا
تذكرت ما سمعته من الرئيس عن والدها اندفعت نفسها مخافة ان يضيع خبر قصصت
انها حالما تستطيع الركوب تسافر الى دمشق فاذا تحققت من هو والدها علمت
مدخلها ومخرجها

الفصل الرابع والستون

﴿ الحرب ﴾

فنفست أياماً وهي تتوقع في كل يوم ان ترى محمداً آتياً لمشاهدتها في
الدبر لعلها ان مسعوداً لا بد من ان يخبرها باصاها فكيف يتم على مقربة منها
ولا يسأل عنها فلما مضت ايام ولم يأت ابنت ان مسعوداً لم يره بعد ذهابه من الدبر
فهي لا يعلم مقرها . وكان الجرح قد لأم فلم تر بدءاً من ملاقاته محمداً لتخبر به زمها
على دمشق وتستعينه في دابة تركها وخادم يسير في ركبها . ولكنها تذكرت
الحسن وما لحظت منه يوم كانت في المدينة فخافت ان لا يرضى محمداً بذهابها الى
المعسكر فعولت على استخدام البها فكسبت بطاقة بهذا الشأن واستأذنت رئيس الدبر
في ارسال بعض خدمته اليها . فاذن لها فبعثت احدهم وأفهمته كيف يسير الى من
يسلم الورقة ودلتها على الجهة التي يلاقي فيها جيش الامام علي

فخرج وجلست هي في فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معه . وكلما نصورت لقاءها محمداً اخلج قلبها في صدرها وأعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما في نفسها وقد هما من هذا الصاح اقتضاه تأجيل الاقتران فأخذت تعد نفسها بالمعاداة المستقبلة وخصوصاً اذا عرفت والدها الحقيقي

فقت ساعة وبض الداع في مثل هذه المحاسن وهي كلما سمعت سعال رجل او وقع أقدام او جمعة يهوا و صهيل فرس ظننت رسولها عائداً ومعه محمد . ولم تعد تستطيع صبرا على الانتظار فصعدت الى سطح الدبر تستطلع قدومه عن بعد ولم تك تحطو خطوتين فوق السطح حتى رأت رسولها راجعا يمدو ويلتفت وراءه فانشغل خاطرها ولتنت تنظر وصواء فما عثم ان وصل وهو يلهث من شدة الجري . فقالت ما وراءك

قال خرجت من الدر في الجهة التي رسمتها لي فإ وصلت المكان حتى رأيت النبال تتطاير في الجوف فلما اشرفت على المعسكر رأيت الحرب عثمدة

فقتت اسماء وتعلمت كلامه قائلة « الحرب . . . بين من ومن »

قال سألت بعض العبيد من كانوا يلتقطون النبال المتساقطة وهو خارج المعسكر فأخبرني ان الحرب انتشبت بين الامام علي وعائشة وكانوا قد ارموا صلحا فقتضوه قالت لا حول ولا قوة الا بالله ومن قتضه . . ؟

قال لا ادري ولكن العبد اخبرني انهم ماتوا على صلح فاصبحوا فاذا بجيش عائشة على الحرب

فقالت الم تلقى محمداً

قال وكيف اتفاه ولما لم استطع الدنو من المعركة مخافة ان تعيبي النبال فاموت ولا يني من يرجع اليك بالخبر . فقارت الحمية في رأس اسماء ولم تر بدا من العدول عن دمشق الى معسكر ام المؤمنين لتخاطبها بالرجوع الى الصلح قبل ان يتفاقم الخطب فسألت رئيس الدبر عن دابة تركها فقال ان خادمك الأول ترك هنا جملك الذي جئت طوي

قالت اين هو . فامر الرئيس باعداده للركوب وخرجت اسماء الى غرفتها فبدلت ثيابها على كيفية تشبه بها ثياب الرجال وشدت وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة

وغطت رأسها بكوفية وتقلدت حصاناً كان قد اعطاهما اياه محمد يوم سفرها مع
مسمود وركبت الجمل وولت وجهها معسكر ام المؤمنين وكان الوقت ضحى وهي للهنثما
لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدبر تذكرت ذلك فالتفت اليه وأشارت بالسلام
بيدها ورأسها . ولم تعد عن الدبر قليلاً حتى أطلت على المعركة فرأت السهام
تطير من كل جانب حتى كادت تعجب اشعة الشمس بدلاً من الغبار لان الجو
كان قد امطر في ذلك الصباح فتناكس التراب . ووقفت هيهة ربما تعرف الطريق
الذي يؤدي الى ام المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون ميماً وتمالأ وفهم المشاة والفرسان
وسمعت النساء من وراء المجمع يخرجن الرجال على اثبات . وكان الجو صافياً لا
غبار فيه فكانت اذا تهرمت في الرجال ترفتهم فرداً فرداً فجهلت تنفوس بالفرسان
عساها ان ترى محمداً فلم تره ولكنها ادركت ان النصر للامام علي لانها رأت رجاله
يتقدمون ولولئك يفرشون بعتر بعضهم يجثث مض وم بن جريح وقتيل فتفطر
قلها . فاجالت بصرها لعلها ترى مسطاط عاتقة لتسرع اليها وتحاطبها في الكف عن
القتال فلحمت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارساً آخر علمت انه طلحة وقد رماه
مروان بسهم في رجله فشكها في صحة الفرس ^(١) ثم رأت طلحة حوّل عمان جواده نحو
البصرة وترك الجيشين يقتتلان فعلمت انه اما ذهب اليها لجرح . ابغ اصابة فتأكدت
فشل جند مكة ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وما من جد واحد . على انها اولت
فعله الى طبعه بالخلافة لفي امية لرعمو انها اذا خرجت من يد الامام علي وكان طلحة
حيّاً طمع هو بها وربما طمع بها الزبير ولما اذا قتل هذان فلا يبقى من يطالب بها فتدق
في بني امية

الفصل الخامس والستون

﴿ هودج ام المؤمنين ﴾

وفيا في تأمل في حركات الجيشين وتسمع ضجيج الناس ونداءة الصوف

والرماح وصهل الجمل رأت في معسكر ام المؤمنين فسطاطاً كبيراً طلت انه فسطاط عائشة ولكنها لم تر ازارحاً حولها فارتابت في امر ثم لحت جمعاً متكاثراً حول هودج فوق بعير فطلعت من لون الهودج وشكله انه هودج ام المؤمنين فساقت جعلها نحو . فلم يسعها في انجري فرأت فرساً تائماً خارج المعركة وقد قبل صاحبه فاسرعت اليه ونحوكت عن الجمل وركبته وسارت باسرع من لمح البصر تائس الهودج ولم تكد تصل المعركة حتى رأت فارساً خارجاً منها يطلب عرض البر لا يلتفت وراءه وعرفت انه الزبير فتذكرت انه اقسم ان لا يجارب علياً فقالت في نفسها ها قد فر الزعيمان ولا احوال ام المؤمنين اذا طلت ذلك الا آمره بالكف عن القتال . فاسرعت في وسط المعركة لا تالي بما يتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جثث القتلى والجرحى ولم تدن من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصبح بصوتها الجهوري وتنادي احد رجالها وقد مدت يدها من الهودج وفيها مصحف وهي تقول « اليك يا كعب ادع الناس الى هذا المصحف » فلم يكد الرجل بتناوله حتى اصيب بنبل فقتل . وكانت اماء قد وصلت الى الهودج فرأت الرجال حائمين حوله وعائشة تقول « أيها الناس العنوا قتلة عثمان وإشباعهم » ^(١)

فترجلت اماء واقبلت الى الجمل فرأت الهودج قد اصبح كالقنفذ لكثرة ما غرس فيه من السهام المسافطة وارادت التسلق على الجمل لتلقي عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال فازاحت اللثام وبادت ام المؤمنين فعرفت صوتها فاذنت لها فقال قائل من الوقوف « هي انا اذن لك بالصعود على الجمل تسلياً فهل تستطعون ذلك » فتذكرت ما اصابها من تسلق حمل الامس فعادت الى فرسها واتصلت منه الى الهودج . فتجسبت ام المؤمنين لوجودها هناك بغثة . اما اماء فترامت عند قدمي ام المؤمنين وهي تقول والسمع ملء عينها « اشقني يا اماء على اولادك اجمعي دماء ارحي رجالاً يوحسون الله . لقد كفى ما اصابهم من البلاء مري بالكف عن القتال ان السلام بين شقيقك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . واعلمي ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار هذه الحرب قد فرّا من المعركة . مري بالله مري رجالك بالكف والعودة . امضي واطلي على الجندين وانظري القتلى في المجانين »

وكانت اسماء تكلم مخشوع وتذلل وفي جانية عند قدمي عائشة . وكانت عائشة في معظم التأثر لا تملك وقتاً للنظر في الامر والناس حول هودجها يتلقون ما يتساقط عليهم من السهام حتى قُتل عند خطام الجمل نصف واربعون رجلاً . فنظرت الى اسماء وقد اثر فيها كلامها مع ما توهمته من قتل جندها وقالت : « لقد كذا على موعد من الصلح فلا تدري ما حملهم على نقضه »

قالت « وم يزعمون انكم انتم الناقضون »

قالت بل م لاننا بننا مصاحبين فاصبحنا وانام على قتالنا فقالت اسماء يظهر ان في الامر دسيسة فلعل بعض الاعضاء سعى فساداً فرمى الشقاق بينكم وعلى كل حال ان الصلح قريب وحجب الدماء سهل عليك يكتفيو كلمة منك

قالت وقد ملئت الجبال « لقد قضى الامر ولم يعد الرجوع ممكناً فلا تنسني ذلك مني » قالت ذلك وفي غمة كلامها وملاحمها ما يزحر اسماء عن البحث في هذا الموضوع . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القاتل للدفاع حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافعون عن جملها

وودت اسماء القول من المودج ولكنها لم تجسر عليهم هيباً من عائشة . ثم سمعت صوت علي يقول « اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا » ولم يكذبتم امرة حتى احسنت اسماء بسقوط الجمل وهو يبعث من الالم فعملت انهم عقروه فهبت بالخروج من المودج ولكنها اطلت قبل ذلك فرأت كل من كان حوله من الرجال تفرقوا وعلي يقول لرجالو « ارسلوا من ينادي في الناس الا يتبعوا مديراً ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا الدور » . ثم قال احملوا هذا المودج من بين القتلى فحملوه وفي لاتزال فيوم مع ام المؤمنين وام المؤمنين غافلة عنها لعظم ما ألم بها . وكانت اسماء تنظر اليها وفي هاتبة التكلم معها خشية ان تسمع انتهارها وربما لا تستطاع جواباً . ثم سمعت علياً يقول « يا محمد يا ابن ابي بكر اضرب على اخذك قبة وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت اسماء ذكر محمد وما امره به علي لبست تنظر ان تراه مطلاً من المودج . اما هو فلما ادخل راسه في المودج ورأى اسماء مع اخوتها اندهل ولكنه لم يكذب

يتكلم حتى سمع اخنوخ يقول « من انت »

قال « اخوك »

قالت « الحمد لله الذي عافاك »

واشار محمد الى اسماء ان تخرج فخرجت ونظرت الى ما حولها فرأت الارض قد خلعت من الناس غير من قُتل او قُطعت رجله او جرح جرحاً بليغاً فلا يستطيع المسير . وسمعت عنين الجرحى ورأت الدم جارياً اقنية والحيل والنوق سارحة بعضها يبرج وبعضها يمجج من الجراح ورأت في بعض تلك الدواب سهاماً لا تزال مفروسة في رقابها او اعجازها وكان المنظر بالجملة رهيباً محزوناً لم يكن أكثر منه تأثيراً . وفيما هي تنظر في ذلك رأت علياً دنا من هودج ام المؤمنين وقال « كيف انت يا امه »

قالت « بخير »

قال « يغفر الله لك »

قالت « ولك »

ثم امر اخاها ان يدخل بها البصرة ريثما تستريح وفيما هو يتكلم رأى اسماء واقفة فعرفها . فلما رأتها هي ينظر اليها همت يده فقبلتها وعلتها البغته فقال اهلاً بك اين كنت يا اسماء

فسمع علي عائشة تقول من داخل المودج « احفظوا هذه الفتاة فوالله اني ما رأيت أكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لهجة في الدفاع عن الحق وهي انما خاطرت بحياتها وانتي تحت النبال المتساقطة تلتمس الكف عن القتال »

فخجلت اسماء لهذا الاطراء واطرقت فقال « علي بورك فيك يا بنية اني نوسمت فيك هذا الخبر منذ رأيتك المرة الاولى . تعالي »

فسار وسارت في اثره وفي مطرقة وعلي يشتغل بتدبير الجرحى والتثلي فأمر الناس ان يدفنوا قتلاهم . ثم علم ان طلحة والزبير قتلوا فاخبرته اسماء عما رأتها من مروان . فقال « لا تعجبي من كان سبب هذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها فترل علي في دار العامل قرب المسجد وتواردت الناس لمبايعته وقد سلم الامر له وخلا له الجوى

ونزلت اسماء في تلك الدار مع بعض النسوة من جنين مع الامام وقد عرفهن

اثناء اقامتها في المدينة . وظلّت ابائاً تحاول ان ترى محمداً بعد هذه الحرب
وعلي* يتفقه باخوام المؤمنين فلم يكن يستطيع التحلي عنها فادركت اسماء ذلك
فسارت في نحو* بحجة زيارة عائشة

فلما التفتيا ارادت ان تعرف سبب تخلو عن زيارتها مع علو انها كانت جريئة في
الدير فاستغرب قولها واكد لها انه لم يكن يعرف عنها شيئاً لان مسعوداً لم يعد اليه
وهو لا يعرف مقره الى ذلك الحين . فترجع لديها انه قتل في طريقه الى الكوفة فاسما
عليه كثيراً . وسكتا هنيهة ثم قال محمد ما قد انقضت الحرب وانصر الامام
والحمد لله وأن لنا السكون والاحتماع

فسكتت اسماء لما وراء كلامه من الاشارة الى الرواج وغيرت الموضوع فقالت
ولكنني على امانة السفر الى الشام

قال ولماذا

قالت لا سأل عن والدي الخنفي

قال وكيف ذلك ومن يهرك عنه

فقصت عليه خبر رئيس الدير مختصراً فذهب وانذهل واصبح اكثر اشتياقاً لمعرفة
والدها منها وارتنع مقامها في عينيه لما علم انها انة بعض كبار الصحابة في المدينة فقال
لها لا بعد ان تكون بيننا قرابة قبل القرابة التي سعى اليها اليوم

فنجلت ثابته وارادت تغيير الحديث فقالت وكيف ام المؤمنين

قال هي في خير وقد أمرني الامام باعداد ما يلزم لسفرها الى مكة وها ابي اعد
ذلك وقد جهزت لها اربعين امرأة من نساء النقرة المعروفات ليسرن معها فاذا
سافرت عدنا الى ما يدعونا اليه القلب على قولك . . . فنجلت

ولم يتم كلامه حتى رأى الناس في هرج وم يقولون « جاء امير المؤمنين » .
ثم وصل علي* وكانت عائشة قد نهأت للسفر واعدت لها المودج وجاء الناس لوداعها
فخرجت لوداعهم فلما رأت علياً قالت وهي تنظر الى الناس « يا بني لا يعتب بعضنا
على بعض انه والله ما كان بيني وبين علي في القدم الا ما يكون بين المرأة وبين
اسحائها وانه على معنني لمن الاخيار »^(١)

فقال عليّ « صدقت والله ما كان بيني وبينها الا ذاك وانها لزوجتي نبيكم في الدنيا والآخرة » وودعها من بني من الناس ثم قال عليّ لهمد « سر يا محمد مع اخذك الى مكة »

فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظرت الى محمد ونظروا اليها ففهم كل منها ما في ذهن الآخر

الفصل السادس والستون

الخطبة

وكان المحسن قد جاء مع والدك لوداع ام المؤمنين فرأى اسماء وقد علم بما اظهرته من الغيرة على الاسلام فازداد حبه لها وصم على خطبتها وهو لا يعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان والدك عازم على الكوفة لاخذ البيعة هناك كما اخذها في البصرة

وكانت اسماء لما فرغت من وداع محمد عادت الى عزمها على الشام للملاقة النسيب مرقس وسؤاله عن والدها وقد اصبحت هذا الامر شغلها الشاغل . فأنت علياً بعد سفر محمد تودعه وتخبره بعزمها ونسأله رفيقاً ودابة فلم تملك فرصة لانشغاله بمن يند عليه من المايعة والمشركين حتى اذا اراد الكوفة سارت هي اليها في جملة السائرين

وقضت في الكوفة اياماً كأنها على حمر الفضى حتى اصبحت يوماً وقد مأت الانتظار فعولت على الاستئذان في السفر فسألت عن علي فقبل لها انه في مجلسه وحده فاستأذنت في الدخول عليه فاذن لها فدخلت فاناها وجالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه . فلما رآها هتفت لها ورحب بها فهمت بتقبيل يده وهي تقول « نحمد الله على ما اولانا من نعمه في احقاق الحق ونشكره على ما اولاك من النصر »

فتنهت وقال « قد كنت اود ان تنتهي الفتنة ولا يسفك فيها دم ولكنهما ابتان تنام الآن على فراش من الدماء » قال ذلك وسكت هتية ثم قال « وكنت

عازماً على استفدامك اليّ لاشكرك على سعيك في هذا الامر فقد سمعت فيو سعيًا حديدًا »

فأطرفت ولم تجب

فقال لها « ولنا فوق ذلك اقتراح نقرحه عليك عشاءً ان ينال وقعاً حسناً »

فقلت « اني امة اذاً أمرت اطاعت »

فقال « اننا موث استبقاك عندنا فتكويين بمنزلة ولدنا »

فأدركت اسماء ما وراء ذلك فأجملت مخافة ان يسمع ظنها باقتراحه لعلها بما

في نفس الحسن ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقلت « اني احقر من ان

احظى بهذا الشرف العظيم »

قال « لا بل انت اهل لأفضل منه ولا اخفي عنك ان ولدي الحسن راغب

فيك لما آتته من غيرتك على الاسلام ورغبتك في اعلاء كلمته فهل ترضين

يو خاطباً »

فلما تحققت ظنها لم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار

السريع ولكنها تجلدت وقالت وهي تظهر الامتنان « اني لا استحق هذا الاكرام

يا مولاي لانه فوق ما توقعته فتاة بتمية غريبة مثلي . كيف لا وفيه التقرب من اعظم

رجال هذه الامة وان عم النبي (صلعم) . ولكنني انما جئت الى مولاي الامام الآن

في أمر مهمي كبيراً وهو يدعوني الى سفر قريب لا أرى منه بداً فنجيت لاستأذن

امير المؤمنين بشأني »

قال وما ذلك

فالت « لا اظن مولاي ابا الحسن يجهل حال والدتي يوم قدومها المدينة وما

ظننا نفسنا فقدناه بوفائها من السر »

قال « لا اجهلة »

فالت « وهل يجهل يا سيدي ان يزيداً الذي كان معنا في ذلك اليوم المشوم .

ليس والدي المحتفي »

قال « ظننت ذلك فيو مذ رأيتك ثم سمعت انه ليس والدك »

فالت « وكنت انا ايضاً عالة بذلك من والدتي فقد اخبرتني انه ليس والدي

وانها ستخبرني عن والدي الحقيقي عند وصولنا المدينة ففضى الله بوفائها قل ووصلنا
 وأسفاه عليها (وتنهدت) فظننت خبر والدي عدم من الوحود فأسنت وبكيت
 ولكن التفادير ساقطني بالامس الى دير بجوار الصرة بعد جرح اصابي في اثناء سفري
 فأقمت فيه ابانما اعالج الجرح رأيت هناك راهباً شيخاً عرفني وعرفته وكنت قد
 رأيت في كيسة دمشق قل - سري فاخبرني خيراً اعاد اليّ آمالي بالاطلاع على كه
 ذلك السر »

فقال عليّ* « وهل اخبرك عن والدك »

فالت كلاً يا مولاي ولكنه اخبرني ان قيس كيسة دمشق يعرفه لان والدي
 اعترفت له بـ « دون سواء » ثم قدمت اسماء ما اخبرها برئيس الدير بتفاصيله
 ولم تكذ ثم كلامها حتى ظهر الاستغراب والدهته على وجه الامام لقولها ان
 والدها من كبار المسلمين في المدينة وان والدها جاءت المدينة للبحث عنه فقال
 لها « الم يحرك عن اسمو »

فالت « آواه يا ليت فعل ولكنه لا يعرف الاسم وهذا ما حملني على الاسراع
 الى دمشق استطلع خبر والدي لاني مع ما ملته من التفات امير المؤمنين وما اصبحت
 من المخطوطة في عينيه وعيني اسوة لا ازال اشعر بدل عظيم لضبوط سمي فقسامي ان
 ارفع عني هذا العار على يد ذلك القيس »

وفيما هي تكلم استأذن المحسن ودخل فوفقت له اسماء فسلم ونظر الى والده فانس
 في وجهه تغيراً وم ان يسأله فاذا هو قد اشار الى اسماء واليه بالجلوس وقال
 « ان اسماء يا بني راضية فرحة ولكنها في شاغل جديد - فهي ذاهمة الى دمشق سريعاً
 لتتحقق نسبها من قيس كيسة ماري يوحنا هناك - اذ لا يخفى عليك ان يزيداً الذي
 زعم انه والدها لبس الآ زوج والدها واما والدها الحقيقي فلا يزال أمر مجهولاً »
 فشق ذلك على المحسن وقال « ان البحث عن والدها واجب ولكنه لا يدعى
 الى تأجيل الخطبة على ما اظن »

فقال « بلى انه يدعى الى ذلك لاسيما وقد فهمنا الآن ان والدها الحقيقي احد
 كبار الصحابة بالمدينة فاذا كان بيننا وبينه ما يحرم الزواج من قرابة عصب
 ان رحم اورضاعه او غيرها فلافضل يا بني ان نؤجل هذا الامر الى حين عودتها »

صكت الحس وسرت اسماء لفصلها مما كانت تقفوه فأمر لها بهودج نسير فيه
فقال في أفضل ركوب الجواد . فأمر لها بجواد وخادم أمين وقال لها تنتظرين
قافلة سائرة من الكوفة الى الشام نسيرين رفقتهما لان الطريق يعسر سلوكه على
شخصين منفردين

قالت سأرى اصطباري . وودعته وخرجت وهي تود أن تطير الى دمشق
للمقابلة القسيس وصممت في باطن سرها على الاسراع ما استطاعت لا تنتظر
قافلة ولا ركبا

الفصل السابع والستون

* معاوية وعمرو بن العاص *

كان معاوية في الشام كما علمت محالفا لعلي في خلافته ناقما عليه وقد حزن
اهل الشام على مطالبة دم عثمان . فجعل قبض عثمان هذا واصابع مائلة امرأتين على
المنبر دمشق ينظرها الناس . فنار اهل الشام وانكروا معاوية علي وبعث معاوية
الى علي بالظومار كما تقدم وهو عازم على مقاومتهم ما استطاع الى ذلك سبيلا . وحددته
نفسه ان ياتمس الخلافة ولكنه كان لا يزال يرى ذلك بعيدا حتى سمع بنقض الخبة
والزهر ومسيرهما في اهل مكة الى البصرة . فقال لأصبرن حتى ارى ما يكون من
عاقبة تلك الحرب فسمع بخروج علي من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزهر
فعلم ان ليس ثمت من يطالب بالخلافة غيره

وكان عمرو بن العاص القائد الشهير فاتح مصر في اوائل الهجرة ومُخرجها من
ابدي الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب — لما فيها تولاهما هو
واصلح شؤونها ^(١) فلما افصت الخلافة الى عثمان بن عفان وكان عثمان كما قد علمت
من ايثاره ذوي قرابته في ولاية الاعمال فعزل عمر عن مصر وعهد بولايتها الى اخيه
من الرضاة عبد الله بن سعد فخرج عمرو ناقما على عثمان وكان من دهاة العرب
المشهورين . فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الامصار الى المدينة

كان هو في جملة من نتم عليه . ولكنه غادر المدينة قبل حصر وسار الى فلسطين وأقام فيها ينتظر ما يكون . فلما علم بمقتل عثمان قال « اى قتلت وانا في وادي السباع » وجعل يفكر في من يلي الخلافة بعده وما هي علاقة ذلك بمصلحته فقال في نفسه « ان يلي هذا الامر طلحة فهو فتي العرب وان يليه ان ابى طالب فهو اكبر من يليه الي »

فلما بلغت بيعة علي اشتد عليه الامر ولست ينتظر ما يصنع الناس فبلغه مسير أم المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة فاقام ينتظر ما يكون من امرهم . فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام علي فارح عليه ووقع في حيرة . ثم بلغه ان معاوية في الشام لا يبايع علياً وأنه يعظم شأن عثمان وكان معاوية احب اليه من علي لانه داهية مثله . فاخذ انيو محمداً وعبد الله وسار الى دمشق واتفق مع معاوية على الطلب بدم عثمان ونفس عمرو طامحة الى مصر يحن اليها لانه فاتمها وكانت مصر يومئذ على دعوة علي . وعمرو يعلم ان علياً لا يوليها اياها فلم يبر خيراً من الانتاء الى معاوية لهذا الشأن فجعل يجرّض اهل الشام على الطلب بدم عثمان ويقول لم « انتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم »^(١)

الفصل الثامن والستون

﴿ اسماء في دمشق ﴾

قضت اسماء اياماً في سيرها من الكوفة الى دمشق ولم تصدق انها اشرفت على غولتها المشهورة بالخصب وظهرت الى دمشق عن بعد فانما هي في ميسر من الارض تحف بها المحدثات الفناء والبساتين النضياء وفيها اغراس المشمش واللوز والفرجل والخوخ والدراق والليمون وسائر انواع الناكهة وفيها الاعشاب والرياحين وكلها بانسة تجري بينها جداول من الماء القراح . وكانت اسماء ملتنة بالعبادة والكوفة فوق جواد يساق الرياح ومعها الخادم على جواده فاقبلت على دمشق في الصباح وقد تعطر نسيها بشذا الازهار فتخلله نقات الاطيار فلم يشغلها ذلك كله عما قام في خاطرها من الشوق للاطلاع على اصلها . فدخلت المدينة من باب الجابية بعد ان ترجلت

وامرت الخادم ان يسير في اثرها بالجوادين فتمت بها وكوفيتها ثلثين كيسة ماري
يوحنا من اقرب الطرق وهي تعرف دمتى معرفة جيدة . وظلت مائة ليلاً يراها احدهم
اهلها او جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هي ساعية في طلبه . وخوفاً من ان يمتدح الناس
لها اذا مشيت والخادم والجوادان في اثرها امرت ان يتظاهرا في خان دلتة عليه وقالت
له « امك هناك حتى اعود اليك » فاطاعها

وظلت هي سائرة حتى دنت من الكنيسة فذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة
المعروفة باسم القديس ماري يوحنا لما فتح المسلمون الشام اتخذوا نصفها الشرقي معبداً
يصلون فيه وتركوا النصف الآخر وهو الغربي للنصارى . وقسموا بين القسمين
عاجز . فاستلم الباب المؤدى الى القسم الغربي وهي لا تزال لباس السر .
فاستلمها خادم الكنيسة واستعرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة فكلها باللسان الرومي
وكانت قد تعلمت من والدتها في حداثتها فسالها عن غرضها فقالت انها تريد القسيس
مرقس فدعاها للاستراحة على مقعد من رخام في صحن الكنيسة وسار للسؤال عن
القسيس فلبنت في انتظاره وهي تلبي نفسها بما هناك من محاماة النساء كالاعنة للصعبة
الشاقة والفسح البديع من التزينات وغيرها ما يهلك عن الصور على الحدران
والسقف في اشكال غريبة واللوان زاهية . ولم تكن تلك اول مرة دخلت هذه الكنيسة
ولكن غرابة ذلك البناء وفخامته يستلزمان النظر ويتملان النال
فما لك الخادم ان عاد وهو يقول تنظري الى غرفة الاستقبال فتقابلين الشمس
وهو يجيبك على ما تريد

فخرجت من الكنيسة الى دار في وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر
دور الشام فانصلت من الدار الى قاعة مخفية استلمها فيها لباس حالما وقع نظرها عليه
تذكرت انها رأت يوم زارت الكنيسة مع والدتها قبل هجرها الى المدينة فاستأذنت
وسألت عن القسيس مرقس فدعاها الى الجلوس على ساط من العباد وبين يديها
بركة اخرى اصغر من بركة الدار والماء يسيل عن جوانبها الى قناة تحيط بها
وتصرف من هناك . فلما جلست قال لها ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة اشهر
فاجلست وقالت الى ابن

قال الى بيت المقدس

قالت ومتى يعود

قال لا ادري متى يعود لأن سنه لم يكن لتغل خاص بالدبر ولكن خرج فراراً
ما ألقى راحته من اصوات البكاء والدويل اني ترن في آذاننا كل يوم في انتم
الأخر من هذه الكنيسة

قالت وما هو هذا الدويل وعلى من

قال ربما سمعت بمقتل الحليمة عنان في يرب فان بعض رجال حاكنا معاوية
جاء بقبضو الملعغ بالدم واصابع امرأتو التي قتلت وهي تدافع يدها عنه ووضعوها
على المنبر اندي يصلون فوقه وكلما اجتمعوا الحلة وذكروا مقتل الحليمة يصبح الناس
رجالا وساء شيوخا واطبالاً يكون ويولولون حتى تكاد تغم الآذان وتتمت
القلوب وكان ابونا القديس في انشاء ذلك مريضاً مرض التيفوخة فزاده ذلك الحال
صعناً فاشار عليه طبيباً ان يسافر الى القدس يقيم فيها ربما تنفجر اعمال فصار ولا
رال في انتظاره وقد بلغنا انه لا يزال مريضاً

فقالت ألا تسري متى يعود

قال كلاً واذا كنت تريد من خدمة فاننا نؤديها عنه

قالت « كلاً وانما غرضي يتعلني هو رأساً » وفكرت في ماذا نعمل هل نقيم هناك
ربما يعود ام نخرج الى الحان . وفيما هي صامئة تنكر ابندرها الشماس قائلاً اذا شئت
ان تقيي ضيئة في هذا الدار ربما يعود ابونا القديس اقميت على الرحب والسعة
فان عندما نساء يقمن بمخدمتك . قال ذلك وصنق فجاء الحادم فامرته ان يدل اسماء
على غرفة التيسمة فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس اسود
وعليها هيئة الكمال والوقار فنهضت لها واستقبلتها واجلسنها الى نافذة تغل على بعض
ابنية دمشق وامرت لها بما تحتاج اليه من طعام ونحوه فاعتذرت انها لا تحتاج
الى طعام

وجاست اسماء وقد استأنست بملك المرأة ولكنها ما زالت متقبضة النفس من
تعرقل مساعيها بغياب القديس وتصورت لشدة كبرها ان ذلك التعرقل من نفس
طالها وخجل لها ان القديس مرقس سيموت في القدس لضعفه وشيوخه فبضع السر

وتذهب آمالها ادراج الرياح . فخطرها ان تذهب في اليو وتستطلع الشرق لدو
اجلو وكانت تفكر في ذلك والتميسة تبالغ في ملاطبتها وتدعوها الى زرع العبادة
والكوفية وفي تمنع

الفصل التاسع والستون

﴿ القبيص والاصابع ﴾

ودما وقت الظهر فخرجت التسمية الصلاة كالعادة وظالت اماء منزدة فاطلت
من النافذة فوقع نظرها على محن الكتيبة كنه وفيه القسم الذي جملة المسجون معجدا
فراحت في أرضه الاسطة والذفافس والاصابع وشاهدت على جدرانها رسوما معجبة
في حلتها صور صلمان وقديس لا تزال كما كانت قبل الفخ . وفيها في تأمل مجدران
المجود ومنروشاته سمعت المؤذن يدنو الناس الى صلاة الظهر . وما كاد يفرغ من
آذانه حتى رات الناس يتقاطرون الى محن الممد ررافات ووجدنا وفيهم الرجال
والنساء شيوخا وشبابا واخذنا على غير المألوف . فاسهل خاطرنا بالنظر اليهم
وفيهم جماعة عرفت انهم من النجيران الذين كانوا يزورون والدها
ثم رأت الناس يوحون موج البحر يتقهقر بعضهم تملأ والبعض الآخر يمتناحي
فجعل طريقنا واسعا فادركت ان احد الكبراء داخل . فصدت واذا رجل جميل
المخلقة ايض الشرة ذي هيئة ووقار عليه ثياب موشاة تأتني كبير العامة عرفت
حالا انه معاوية بن ابي سفيان والي الشام وراحت الى جاسه رجلا قصير القامة
وافر الهامة ادعج البلع عيناها تكادان تققدان حدة . فمتيا وهما ينظران الى التجمع
والناس سكوت اجلالا لما فلم تعرف اماء رفيق معاوية ولكنها سمعت واحدا من
المصور يقول بصوت عال « انت لها يا عمرو يا اس العاص انت نصير الخليفة
المظلوم » فعلمت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنظرا بيدومنها فرأت معاوية ظل مائتيا الى دكة عليها قبص ايض
مطلع بالدماء وعلمت ان الدكة المير وان اقبص قمص عنان فتذكرت مثل ذلك
الرجل على مشهد منها وتذكرت نافذة المسكنة وقالت في نفسها اين هي الآن يازر

وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى معاوية فرأته صلى ركنين وصعد المبر فسكت الناس واصفوا فوقف واجال نظره وحمد الله واتى عليه وار بالمعروف ونهى عن المكر . ثم سكت لحظة وهو يمشط لحية اصابعه وعينه تشغلان في الناس واحداً بعد واحد ثم تناول عن المبر هات كانت معلقة بالقميص جعل يعلقها بين يديه وينظر الى الناس ويقول « اتعلمون ما بين يدي » . . . انها اصابع مائنة زوج الخليفة المظلوم قطعت بسيف الفتاة وهي ترافع عنه « فتأملت اسماء في الاصابع فاذا هي اصبعان وثني من الكف واصبعان مفلوحتان من اصليهما ونصف الايهام ^(١) ثم امسك معاوية القميص بين وقال « اتعلمون قميص من هذا . . . انه قميص الحيلة المظلوم . . . انه قميص عثمان المتبول ظالماً »

ولم يكذبهم كلامه حتى ضج الناس من جواب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلوماً . . . قتل مظلوماً » وسمعت بعضهم يقول بصوت عالٍ « اقم بالله ورولو وخلفنا ان لا يسي ما لا للفصل من الجنة وان لا انا على الفرش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم » وما اتم الرجل كلامه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والعيول وبهاقوا على المبر ليكسوا على القميص والاصابع فزجرهم معاوية فعاذوا الى اماكهم وعاد هو الى كلامه واسماء تكاد تميز غيظاً لما سمعته من التعريض وعلني ومحمد وما آتته من التهديد . فثارت الحمية في رأسها ولكنها صبرت فيها لعلها ان موقفها خطراً . فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض وهي صابرة حتى سمعته يقول « ان علياً قتل عثمان وآوى قتله » فلما سمعت ذلك لم تمد تستطيع صرا فحولت من النافذة اسرع من لمح البصر وهزلت الى باب الجامع بعاءها وكوفيتها . وفيها الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بقناة وفقت فيهم وعيناها تنقدان غيظاً وحفاً والمابة تخبلي في عجاها فاستلنت اتباهم فشغلوا بالضر لها عن سماع الخطاب اما هي فصعدت الى دكة من الرخام ولت وجهها الى الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبتها تضطربان « ايها الناس اراكم تسمعون وتنفضون لامر لم تشاهدوه ولا اتم على بينة منه لانكم لم تكونوا في المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلوماً وان علياً امير المؤمنين قتلا وآوى قتله وهو

افتراء واختلاق لان علياً اول من دافع عنه بلذاتو وسيفو واولادو . قتل عثمان ايها الناس والحسن والحسين في داره وقد تطلع وجه الحسن بالدم ولولم يأمرها عثمان بالكف عن الدفاع لبدلا الدس عنه . على ايها لم يفرّج مع ذلك من تأييب الامام . وقد شهدت ذلك بنحس ورأيت رأي العين . فاتهم علي بمذاو افتراء وقتة لا يصيب القائم بها الا ما اصاب اصحاب الجبل في الصرة . نزعون له قل مظلوماً وربما كان زعمكم صحيحاً ولكن علياً لم يرد قلة ل هو اول من قال باستنفاثه خوفاً من هذه الفتنه فكيف يقولون انه قتله »

وما انت اسماء كلامها حتى صاح معاوية « من ذا الذي يتكلم من انت يا رجل »
فالتفت اسماء اليه وقالت « اني فتاة يا معاوية ولدت رجلاً »

فحبب هذه الجسارة من فتاة بمنزل سنها وتأتّر من هيبتها وجمالها واسنها ومع كل غيظو وحقد لم يأمر بالنقض عليها ولا المثلة بها ولكنه دعاها اليه والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلها في الامر . فاشار اليه عمرو اشارة فهم منها انه لا يليق به ان يجادلها امام الناس لان الجدل يقل قيمة ردهاء عدهم ويزيدها وقاحة . فاعجبه دهاء عمرو . فلما صارت اسماء بين يديه امر بالنقض عليها فتكاثف بضعة عشر من رجاله لشد وثاقها فصاحت فيهم « تعجروا على فتاة واتم رجال ولا حاجة الى شد الوثاق فاني لا افرّ من بين ايديكم . ولكن عار عليكم ان تدفعوا الحق بالثبوت والاغلال وهو انما يدفع بالدهان والجدال »

فاشار معاوية ان يسهر بها الى السجن كما هي حتى يظفر في امرها بعدئذ

الفصل السبعون

﴿ حلم لذيذ مزعج ﴾

ولا نسل عن حال اسماء لما وجدت نفسها في حجرة لا يدخل اليها النور الا من كوة في اعلى الجدار وليس في الحجرة الا حصير بال . فتأملت في حالها وقد جردت من سلاحها مع ما هي فيه من الضنك وما شوقه من الشفاء فتدست على ما ابدته من الجسارة

في الدفاع عن علي ولكنهما شعرت انهما فعلت ذلك بالرغم عنها فقد كانت لا تسمع ذكر علي الا طربت واستعزت او خافت ونميت وهي لا تقدر على كبح احساسها فلما حلت نفسها في تلك الحجرة المظلمة تاملت لما حالها كما هي فتذكرت ما مر بها من الاوهال منذ حداثتها وما قاسته من البلاء في اسفارها وجهادها وما كان من وفاة والدتها قبل وصولها المدينة وضياع ذلك السرا ولما وصل ذهنا الى هناك اعترض ظلمة كدرها نورٌ ضئيف لما تجدد من آمالها بكشف السر على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم تصور مروان وما ساءها من العذاب في بيت الخليفة عثمان وتذكرت ان هناك كشفت محمداً ما به الحب فانبعثت نفسها . ثم تذكرت ان ابراهيم الى مكة وما لاقته فيها من المرض والدمع وما عذب ذلك من اسرها ومسيرها في الصحراء تحت خمار الموت والعار . حتى قضى الله سبحانه فعدت الى خطر آخر ونجت منه ثم انترت بالكشف عن اصلها ثم حضرت وقعة الجمل ...

وما زالت تسلسل الافكار في ذهنها حتى وصلت الى ما جرى عليها ذلك العجب فعظم الامر عليها واشد الاسف بها حتى اجتمعت للبكاء فحاولت التجلد الا يقال انها بككت من اليأس او الخوف وهي انما بككت لتكد حذقها وسوء طالعها وما يقف في بيئها من العتات التي لم تكن تحظر لها بال . فالتفت الى ما حولها فلم تجد احداً ونشأت وتسللت الى باب العجن فرائت العجان في غفلة عنها . فطلعت لنفسها عيان البكاء واخذت تاجي نفسها نارة تذكر والدتها وطورا حبيبها وآونة عليها واخرى تندب حذقها . واستغرقت في ذلك حتى نميت نفسها وغاب رشدها كانتها اصوت نبوة عصبية فلم يعد في امكانها اسلاك عواطفها عن البكاء والغريب

وما زالت في ذلك حتى نعتت فغلب العاس عليها فتامت على ذلك المحصر . فرائت في منامها كأن والدتها ماشية نحوها على بساط من الورد المشور وعليها حلة ارجوانية طويلة الذيل مزركشة بالذهب تجر وراءها وعلى رأسها تاج من زهر الرمان -- رأته تمشي الموبوءة وهي تلمس الخطى كانتها تحاذران نفوش مهب النسيم . فبغت اسماء لرؤية خيال والدتها وخصوصاً لما رأته بصحبها الكاملة وقد ارتد اليها لونها ونور دت وجنتها واشرق وجهها . وظلت اسماء مبغومة شاحصة الى ذلك الخيال حتى سمعها تقول بصوت رخيم وهي تبسم « هل عرفت والدك يا اسماء »

فأسرعت اسماء اليها وألقت نفسها على صدرها فاشتمت رائحة الوردية فاتعشت وجعلت تنشقها وهي تقول « لالا لا يا اماء لم اعرفه بعد .. قولي لي ... قولي فقد نعد صبري »

فضممتها والدتها الى صدرها وهمت في اذنها قائلة « اخفي صوتك فلا بسمك الامام »

فاطاعنها وقالت بصوت خافت « قولي لي يا اماء من هو والدي » قالت « اما جئت اليك الآن لاخبرك بذلك فعلي ان والدك هو ... » وسكنت لحظة وهي تلثث بيبك وشالاً وعيناها نلحان كان الماء يغشاهما واباء شاخصة اليها يبصرها وقلبا يكاد ينشق لاستقبالها وآداها متبوعة لسامع اسم والدتها . ولكنها ما لبثت ان شعرت بوالدتها ترتعد وقد اخذ لونها بالانقاع وهي شاخصة الى شبح قادم اليها . ثم رأتها اجلس وحاولت انترار فتشبهت اسماء بها وهي تقول « امكني بالله لا تنهني قولي لي اسم والدي » فلم تلثث اليها ولكنها حاولت التماس منها واباء مسكة ثوبها . وفيما هي في ذلك افافت من نومها مذعورة فرأت نفسها في تلك الحجرة المظلمة على ذلك المحصر القدر ومسمت صوتاً لم تكن تتجأنة تدرك ذملة اذن حتى ارتعدت فرائضها لمشاهدة صوت مروان من الحكم عدوها انقدم . فقالت في نفسها « اعوذ بالله من مكده حظه على يد هذا الرجل ألا يزال ذكره شواً علي حتى في احلامي . كنت في الذ الاحلام فايقتني بصوته »

وكادت تكرر في ذلك وهي تمسح عينيها باناملها لتخفق اذا كانت في نقطة ام في منام . فما كادت تنفخ عينيها حتى رأت مروان واقفاً امامها وقد تقلد حشامة واثن هندامه . فلما رأتها استعادت بالله ولم تلثث اليه

فتقدم مروان نحوها وهو يقول « لقد صفحا عما مضى يا اسماء اذا كنت ترجعين عن غيك وتعلمين ان محباً وعلياً لا يفنيان عنك فتيلاً . ما انت الآن في دمشق مستقط رأسك ومفرآ باتك . مالك وللمدينة والكوفة . اصغي لصحي وارجي عن عنادك واعلي انك اذا اطعني هذه المرة صفحت عما مضى وكنت اسعد فناء والآ فانك مقبولة لاجالة لانك في قبضة يدي اعمل بك ما اشاء . واعلي ان معاوية سيبعث اليك يستطلع اقوالك بشأن ما نهت به في المسجد ما لا يأتيه الا كل عقل الشعور فاذا شئت البقاء حية

اعنذري عما فرط منك وكوني مع القوة ولا بفرك انتصار علي في البصرة فانه سياتي منا
سبوقاً لا نفل ورجالاً لا تردّ وقلوباً كأنهم الحلد وسحر جح الخلافة من يدي فنجزع
لنا هو واولاده وكل من يلوذ به »

وكان مروان يتكلم واسماء ترتعش وقلها يكاد يفر من صدرها لشدة التأثر
وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجتها ولاحرت عينها وهي مع كل ذلك لا تزال
مطرقة تنكر في ما ذا تنجي وقد ايقنت ان حياتها بين يدي ويدي معاوية فحدثها
نسها لاول وهلة ان تعمل بمنتهي عواطفها فتنتهر مروان وتوجه ولكنها تذكرت
تهورها في ذلك الصباح في المسجد وما آل اليه امرها بسبه فامسكت نفسها وتجلدت
وهي تكلم اللفظ ولكنها لم تنقطع جواً

فلما سكوتها ليلا او رضاء فدا منها وبالغ في صهما فقال « لعالك تذكرين
ما عاملتني به من الجفاء حتى الآن وانا اعطيك وارجو ارجعك لاني انما كنت
مدفوعة الى ذلك بغايش النسيبة وكنت تحسبن محمداً اهلاً لك وقد رأيت كيف
انقلب امرهم جميعاً وكيف قام المسلمون عليهم بيد المنهم بدم الخليفة عثمان ولا اظنك
تجهلين ما فعله محمد يوم قتلوه وقد كنت في جملة اليهود . ألم تروى دخل على الخليفة
وامسك بلمنبرته وم قتلوه فوجّه الخليفة وذكره نواله فرجع . اتحسبن ذلك دفاءً وامت
مع ذلك ترعين ان محمداً خيراً من مروان »

فتقل كلام مروان على اسماء ولا تنقل الجبال حتى كادت تصرخ باحتقارها له
ولكنها حاولت الكدام والسكوت فضجعت عواطفها عن طريق العينين فاسكب دمعها
قطرات تسابق بعضها بعضاً وهي معارفة لا تنظر اليه

ففرح مروان وتحنق بدمها وم بالدومنها والرجوع الى الحديث واذا بالسبحان
دخل وقال لمروان « ان الامير معك رجالاً يستقدمون السجينة اليه » فاذن بدخولهم
وتقدم السبحان وهو لا يحسر على محاطبة اسماء الا بالوقار فقال لها تعظي يا مولاتي
الى الامير . فوقفت وقد سمعت عينها وخرجت فرأت خارج السجينة بضعة رجال
بالسبوف والحرايب فقال لم مروان لاجابة الى سلاحكم وخفارتكم فانها تسير بنسها
الى مجلس الامير سير وانتم عن بعد

الفصل الحادي والسبعون

* مجلس معاوية *

وسارت أسماء تقدم ثاثة وقلب لايهاب الموت ومروان يمني وراها وقلبه متفتح
بما تجد من آماله في الحصول عليها . لانه كان لا ينظر اليها الا سحر مجالها وهيبتها .
ولقد يكفيه من الفخر في الحصول عليها ان يقهر محمداً ويقلبه

وبعد بصع دقائق وصل الجميع الى قصر متنع من بناء الرومان كان في الاصل
قصرًا لحاكم الشام من الروم وعند ما وبض الخفر بالسبوف والحراب . فدخلت
الى دار واسعة ومروان يسير امامها يهديها الى قاعة المجلس فخرج بها حول الركبة
حتى دخل قاعة كبيرة فيها الوسائد والضايف على الجانين وفي صدرها معاوية على
منعد والى جانيه عمرو بن العاص وولده محمد وعبد الله وبين ايديهم جماعة من
الامراء لم تعرفهم . فدخلت ووقنت ونظرت الى المحصور نظره فاحص بسكية
وجلال ثم وجهت نظرها الى معاوية غير هائبة

فتنظر معاوية اليها وتأمل ما ينجلي في وجهها من الهابة وكانت لا تزال غاضبة
وقد تقطعت اسرتها وازدادت همة فاعجب معاوية بهيبتها ومجالها وكان قد أعجب
بتجاعتها واقدامها . فلما وقنت بين يديه قال لها « ما الذي حملك على الجرأة التي
ظهرت منك في المسجد اليوم »

قالت انما حملي على ذلك الحق والصدق فقد سمعت نعر يضا رجل انهمتموه
نمها هوري منها

قال معاوية وما ادراك ببراءت و انت فتاة قاعة في بيتك
قالت اني اعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم وقد تحققت يقينا ان عليا
امير المؤمنين بريء من هذه التهم
فاعترضها عمرو بن العاص قائلا لا تقول « امير المؤمنين » فاننا
لم نباعه

فقالت واذا لم تباعوه انتم فقد بايعه سواد المسلمين في المدينة والبصرة والكوفة

ومصر وسائر الحجاز وهو ابن عم الرسول (صلعم) واحق الناس بهذا الامر
فقال عمرو اراك تحمكين وتفصلين في امور يظهر امك تجهيلها . فلو اجمع
الناس على بيعتي ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكفيو امة سبب قتل الخليفة
عثمان الذي اصبح دمه طليعة ما سفك وسبب سفك من الدماء
فنظرت اسماء الى عمرو وقالت الست عمرًا ابن العاص

قال اللهم سم

قالت « ألم تكن اول ما تم على ذاك الخليفة المقتول لانه عرلك عن مصر وولاهما
أخاه عبد الله . . . ألم تدرج بقتلو . . ولكن الدهاء اوجب بعدك والناس يعلمون
من هو القاتل او الساعي في القتل » قالت ذلك وقد ظهر التأثير على وجهها مما
بدا عليه من الاستفهام

فظم جوابها على عمرو وخاف تماديها في الجرأة فقال لها « من انت يا فتاة »
قالت من هذا المكان

قال اني اسألك عن ابك

فسكنت ولم تجب فتقدم مروان وهو يرحوان يحفف غصب معاوية وعمرو
عن اسماء طمعاً برضاها واستبقائها وقال « انها اموية وهي بنت يزيد الاموي وقد
قتل اوجها رحمه الله في حملة من قتل يوم مقتل عثمان
فقال معاوية أموية است فلم تجب

فقال كيف تكونين أموية وتقولين غير قول بني امية وهم مجمعون على ان
عثمان قتل ظلماً وقد نهضوا جميعاً للاخذ بشاره

فقالت « لا يهمني أموية كنت او غير أموية ولكنني استهد بما اعلم . فاننا لا أرى
احداً مظلوماً في هذه السنة الا امير المؤمنين علي بن ابي طالب واني اقول اعتقادي
رضيت ام غضيت . ولعلكم تهتدونني بالقتل او السجن فلا ابالي بالتهديد ولا بالوعيد
هذا قولي قلته فافعلوا ما تشاؤون »

وكان مروان في اثناء كلامها يكر في ما يرجوه من رضاها وعيناه شاخصتان
الى الحضور لئلا يظن اليها احد نظر الراغب فيها وود لو انهم يقطعون الحديث
لئلا تقول قولاً يثير غضب معاوية فيا مرتبتها

اما عمرو فرأى بحسن فراسه ودهائه ان يظهر الاختلاف بكلام اسماء ويبدى
الفرق بينهما لانهما رأها لا ترسخ بالعنف . وخاف ان تنادى في كنف ما كان ساعياً فيهِ
على عثان قل قتلوه . فقال لما اراك بائنة مغرورة ومن العث ان غادلِكَ وخصوصاً
ان النبي (صلعم) اوصانا النساء رفقا لا بين صعيفات والأخص امك أموية
من لحمتنا ودمنا . فارقتي بسلك وارحمي عن غيك وامكني عندنا في امن واقلي عما
است فيه

فالت لا تستعزوني ولا ترحلوا رجوعي ولا تحسوبي أموية ولا هاتمية فافعلوا
ما تشاؤون وقد قلت لكم اني لا أهاب الموت ..

تتقدم مروان الى معاوية وهمس في اذنه قائلاً « أرى الاقتصار عن جدالها
فاتركوا امر اقناعها التي لاني اعرفها قل ذهبا الى المدينة فقد كانت مقيمة في
دمشق واعرف والدها ووالدتها واما اصبن اقناعها اما طوعاً واما كرها اذ لا يليق
با استنفاءها على هذا العناد فاما ان ترجع عن رايها او ان نقتلها والقتل امر
مستدرِك فأرى ان نقتلها بالحسي » ثم تحوّل الى عمرو وقال بحيث يسمعه الاناس
ولا يسمعه اسماء « ولا يخفى عليك انا اذا اكتسبناها لحزبنا اطعننا على كل محبات
علي ورجالها لانها عالمة بكل اسرارهم فاتركا هذا الامر الي » قال ذلك وتعي جاساً
واسماء خائفة مما بدا منه . فقال معاوية خذوها الآن الى منزل مروان وسنظر
في امرها

فقطعت الحديث قائلة الملّ منزلة حبي

قال كلاً

قالت « بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصباح »

فخاف مروان اذا اصر على ارسالها معه ان تصرّح بتيّه ضده فقال « خذوها
الى السجن » وعوّل على ان يحاطبها هناك



الفصل الثاني والسبعون

﴿ ظلة السجين ﴾

وأشار معاوية الى المخفر فساروا واسماء تمشي امامهم غير هائمة ولا جزعة . وأما مروان فانه اسر الى كبير المخفران يجعلها في غرفة من غرف السجين منفردة وان يضيفوا عليها لعلمها تشعرمحايتها الى استنفاذه . ولم يدركوا السجين الا بعد الغروب فدخلوا بها والسجان معهم من باب كبير الى دار كبيرة اتصلوا منها الى دهايز مظالم انتهوا فيو الى نضع درجات زلوا عليها الى دار صغيرة تستغرق الى غرف عديدة دخلوا في احداها واتصلوا من هذه الى سجن اخرى واطنة السقف مظلمة تصاعد منها رائحة الرطوبة والعنوة وقد سنت الفخالب على جدرانها ونخلب الماء عنها . فأقعدوها على حصير نال ورجعوا وظل السجان وحده . فلما خلا بها نظر اليها وكأنه اشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة وجلالاً ولكنه لم يحاطبها فتركها على ذلك المحصر وعاد وهو يرحون تحاطبة هي وتلتبس بجذته متى احسّت بالوحدة او شعرت بالمجوع والخوف اما هي فلما رأته فيها في تلك الغرفة وقد خلا المكان من الناس واستولى السكوت على تلك الجدران العفنة لشت تنكر في حالها وما صدر منها في حضرة معاوية من الاقوال مخافة ان تكون قد فاهت بما يدل على عجز او خوف فرأت انها ادت الامانة عنها . ولكنها مع ذلك تأسست لانها لم تسمح لها الفرصة باستنزاه الكلام وقضت ساعات وهي جالسة لا تنالي بالظلمة ولا بالمجوع او بالخوف لعظم تأثيرها ثم انتهت لنفسها وماهي فيو من الخطر اذا لم يكن من معاوية ورجالو فمن مروان وآمالو وايقنت انه آت اليها تلك الليلة طمعا رضائها . والموت عندها خير من اجابة طلبو فالتفت الى ما حولها وهي لا تكاد ترى جدران الغرفة لشفة الظلام فاصفت بسمها لعلمها تسمع مشياً او كلاماً فاذا كل شيء هادئ ساكن لا يكدر سكونه الا وزوزة العوض حول وجهها وتيقق الضنادع تيقاً ضعيفاً يظهر من جهته وضعوه ان السجين قائم على ضفة نهر بردى الذي يتشعب في دمشق فيسقي اهله بمسائل من الحجارة او المخزف متفرقة في كل منازلها . فاستأنست بذلك التيق ولكنها استوحشت الظلمة الدامسة مخافة ان تغتالها غروب او ثمان على غرة

وفيا في ساكنة تكرر في حالها وقد شغلها الوحشة عن الافتكار بالمخطر المصدق بها سمعت خطوات باطية تدل على تسرق صاحبها في منبج فجهد الدم في عروقها وخافت ان يكون ذلك القادم مروان آتيا نحوها . فوحشت انسابها نحو المعنى وقلها بجنق بشدة وسرعة حتى كادت تنزع بحفائه في عنها . فاذا بذلك الصوت يقترب نحوها فاجلست وبهضت وتبيأت للدفاع اذا رأت لروما ولشت تنتظر ما يكون . فاذا بالخطوات تسرع وتنعد وتصعق حتى لم تعد تسمعها . فعلمت ان واحداً كان قادماً نحوها ثم رجع فازدادت قلقاً وظلت واقفة وركبتها ترتعدان لعظم التأثير وودت لو ان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه واما رجوعه فقد زاد بلالها . وصميت في ماطن سرها ان تستهلك في سبيل الدفاع وان القادم اذا كان مروان فتصرح له بما في ضميرها ولو آل ذلك الى التل

ولشت رفة لم تعد تسمع في انائها صوتاً ولكنها ما رحت مضطربة شاخصة بعينها الى الجهة التي سمعت بها الصوت وطال تلوذها حتى لم تعد تستطيع اطباق اجفانها وسبت موقفها رفة

وفيا هي في ذلك لخت موراً ضعيفا في دار البحر الصغرى فاستأنت به ولكنها تذكرت مروان فخافت ان يكون قادماً اليها . على انها انتعمت وقالت في نفسها غلبات اما اقتله او يقتلي فاسترجع من هذه المخاوف . ولم تذكر في ذلك حتى رأت الور يتعاطف ويقترب ثم بان المصاح يحمله رجل عرفت من لباسه وقيانته انه النجبان فهذا روعها . ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصاح في احدى يديه ويحمل بالآخرى قصعة فلما دنا من غرفتها تاكدت انه النجبان

فلما تنتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول لها ساهيني يا سيدتي لاني تركتك الى الآن بلا طعام ولا نور فاني لم اكن اعرف انك تنتمين الى الامير مروان فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت مرانها ولكنها لم تحسب . وكان النجبان قد دخل الغرفة ووضع المصاح على الارض وقدم القصعة اليها وفيها خبز ولحم وهو يقول هذا طعام بعث به الامير مروان اليك وكذا ان اطعمك انك لن تبقي في هذا المكان الا الليلة وفي الغد يتفك الى منزله

فنفرت منه وقالت لا حاجة لي الى طعام فارجع من حيث اتيت

فقال لقد قصبت طول النهار بلا طعام ألا تأكلين شيئاً
 قالت لا لست جائعة عد الطعام حالاً
 فحسب البجان لقولها وقد كان يتوقع ارتياحها لالتفات مروان فقال لها « ولماذا
 هذا يا سيدتي . . . كئي . . . تناولي ثمرة تسدين بها جوعك
 قالت خذ الطعام اني لست جائعة قالت ذلك وحوّلت وجهها عنه
 فقال دعي القصعة والمصاح هنا انعلي بها ما نشائين وما اني عائد . قال
 ذلك ورحم
 فلما خلت تنتمها طل بصرها على المصاح ثأمل حركاته والعوض بحوم حوله
 وفكرها نائه وقلها بحسنى كلما تصوّرت مروان قادماً نحوها . وإرادت ان تسند ظهرها
 الى الحائط فاحسنت ردو لوتو فعادت عنه

الفصل الثالث والسبعون

﴿ طارق مفاجيء ﴾

وعاد المكان الى السكون مدة طويلة وقد غرقت اسماء في مجار الهواجس ونسيت
 وجدانها ولكنها ما لبثت ان انتهت لصوت اقدم تمشي في الغرفة الخارجية يهدو
 فأجلت ونأكدت ان مروان قادم فحنت قلبها وصعد الدم الى رأسها وبهأت
 للفتك به . وحوّلت نظرها الى الخارج فرأت شجراً قادماً بجعلو خطو السارق المخلص
 وقد ألف بصباة . فحافت ولكنها تجلّدت لترى ما يدومنه فلما دنا من باب الغرفة
 همّت ان تخاطبه فاذا هو يقول بصوت خافت « لا تخافي يا سيدتي اني جئتك
 بالبرج لا تخافي »

فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها وتذكرت انها تسمع صوتاً تعرفه فقالت
 « من انت »

قال اني عبدك مسعود لا تخافي . وقد جئت لا فاذاك
 قالت ومن اين اتيت ومن ارسلك هل هبطت من السماء ام خرجت من جوف الارض

قال لم يرسلني احد ولكنني كنت سجيناً في هذا المكان منذ تركتك في دير البصرة .
لاني خرجت من الدير وفيما انا عائد الى الكوفة ظمري جماعة من بني امية كانوا قادمين
بهمة من معاوية فقبضوا عليّ وساقوني الى هذا السجن لاني من صنائع ابن ابي نجر
واسكر الله لوجودي هنا لاني استطعت افادك من ايدي هؤلاء الظالمين
فاطمأن بالما ولكنها حسبت نفسها في سام مثل منام الامس . فقالت وكيف عرفت
اني هنا

قال رأيت المخزوماً أتوا بك عند الغروب ولست انتظر فرصة آتي بها اليك
وقد جئت منذ ساعة حتى كدت اقترب اليك فسمعت خطوات السجناء فهزلت
راجعاً ولما الآن فلا خوف عليا من السجناء تعالي معي
قالت واين هو السجناء

قال انه ذهب الى بيت مروان
قالت وكيف ذلك واخشى ان يكون ناقياً
قال لا تخافي لاني حرضت على المسير الى مروان ليعين برفصك طعاماً ويردني على
الهيبة للانتقام منك والمطعة بمال ياله مئة اذا فعل ذلك وعولت على الخردج في
اثناء غيابي

قالت « والباب »

قال يظن السجناء المسكين انهم اقلية ولكنهم لا يزال منتوحاً تعالي قبل ان يعود
السجناء أو يأتي مروان . فترددت برهة وقد اعطمت الفرار
فأدرك مسعود ترددتها فقال لما التحسين خروجك من هذا السجن فراراً وما
في بقائك فيه غير الموت او العار . . تعالي . . اسرعني ناشدتك الله

ومشي فمشى هي في اثره ثم تاد الى المصباح وقال اري ان نلقى هذا المصباح
لئلا يدل علينا . واطمأنه فاطمأن المكان ولم تعد اسماء تعرف الطريق فأمسك بيدها
ومشياً وهي ترتعد حتى خرجا من الغرفة الثانية الى الدار الصغرى واطمأن على الدهليز
وما صعدا الدرجات حتى سمعا كلاماً في طرف الدهليز الآخر ما يلي الدار الكبرى
فوقفا ينتصنان فاذا بمروان والسجناء قادمين ومروان يقول « لا بد لي من قلبها اذا
ظلت على عنادها وقد كدت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فاني ارسلتك بالطعام

وسرتُ في اثرك »

فجهد الدم في عروق مسعود واسماء وابقنا بالملك وشق ذلك على مسعود بالاكتر
لانه عرض اسماء للخطر

اما هي فامسكت اضطرابها وشدت على يد مسعود وجرتة الى خلوة وراء باب
الدلهيز اتروبا فيها وقلبها يخفقان والظلام حالك وابنا ينتظران دخول مروان
والسجان فسمعا مروان يقول « مات المصاح وتمال »
فأجابه السجان « ان في حجرنا مصباحاً تركته عدها »

قال ذلك ودخلا في الدلهيز وصدى خطواتها يتماظم رويداً رويداً حتى
بلغا الباب الثاني الذي اخبأ مسعود واسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلماً
وقف وقال للسجان « اين هو المصباح اني ارى السحن مظلماً »

فقل السجان اني وضعت في حجرها ولعلها اظناً انه لكيدها ووقاحتها فلم بنا لنرى
فقال مروان اني لا ارى الطريق لشدة الظلام مات مصباحاً آخر
قال « هلم بنا ندخل ثم آتيك بالمصباح ... انزل هذه الدرجات على مهل ...
ها اني اخطوها امامك ... ثم لك بصراع الباب من عدك » قال ذلك وزلا ومروان
يتوكأ باحدى يديه على السجان وبالاخرى على الباب حتى وصلا ارض الدار الصغرى .
فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يلحسان الارض

ولا نسل عن حال مسعود واسماء في تلك اللحظة فقد كانت عندهما اطول من شهر
فحالما علما بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى اسماء ان تخلع نعلها لتلا
يسمع وقعها وكان هو بلا نعال فخلعت نعلها وحملتها بيدها وتحول كلاهما من وراء
الباب الى الدلهيز بخفة وسرعة ومنه الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان لا يزال
مفتوحاً واسرعا الى الشارع وبما صدقا انها نجيا

وكانت اسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بدا عن السحن وقفنا برهة
يتدبران المكان الذي وصلا اليه فعرفته اسماء فسارت تلمس كنيسة ماري يوحنا

الفصل الرابع والسبعون

﴿ النجاة ﴾

وقبل ان نصل الى الكيسة تذكرت خادما والجوادين في الخان فوقفت تتردد بين ان اسير الى الكيسة اولاً او الى الخان . فسا لها مسعود عن سبب ترددنا فقالت انزدد بين ان اذهب الى كيسة ماري يوحنا فأقيم فيها او اسير الى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب

فتعجب مسعود لترددنا بين الاثنين وهو لا يرى حاجة الى الكيسة لانه لا يعلم بها انبأها يو الراهب في دير الصرع . فقال وما لنا وللكنائس هلم بنا الى الخان وسة الى الكوفة حالاً فقد بلغني ان الامام علياً وسائر الصحابة هناك

فتنهبت وقالت نعم انهم جميعاً هناك ولكن لي في هذه الكيسة غرضاً بهي طنا انما جئت دمشق من اجل ولا بد لي من انامو . ولكني اري ذمالي الى الكيسة في آخر هذا الليل ما يوجب شية او تساولاً والكيسة والمسجد متلاصقان اوها بناء واحد فأرى ان امضي بقية هذا الليل في الخان فأرى الخادم وادبر اموره ثم اسير الى الكيسة . قالت ذلك ومشت ومسعود الى جانبها فسألته هل انت عازم علي الكوفة قال نعم ان شاء الله

قالت اذا لم يكن بد من ذلك فأوصبك ان تلغ الامام ورجاله مام فهو اهل الشام من النقة لعنان والطلب بدمو . وقصت عليه ما رأته في المسجد من الغريص والتهديد بالاصابع والقبض الى ان قالت . وقل لم اتي باقية منا بضعة ابام اخرى ريثما نتم مهتي و . . . ثم ادركت ان مسعوداً شديد الميل لمعرفة السبب الذي بدعوها الى البناء هناك مع ما فاسته من الخطر والعذاب وشعرت ان بقاءها على كهاتو عة مبالغة في احتفاره بعد ان كان سباً في اناذها من الموت والعار . فأحببت اطلاعة على بعض السرّ تخبيماً له لما في ذلك من دلائل الثقة والاعتماد عليه وهمت بالكلام فاذا ما قد وصلا الى باب الخان ففرع مسعود الباب فتفتح له صاحب الخان واراد ان يستنهم عنهما وما غرضها فابتدرته اسما . بالسؤال عن خادما هل يقيم هناك فاستأنس بهما ودعاهما الى غرفة الخادم فدخلوا . وجلسا هناك في مأمن وقد استولى التعب

على اسماء على أثر ما فاست من الجهد والسفر والمهر والخطر
 وحس مسعود بتعبها فقال لها ما اتي ذاهب الى الكوفة وساخبر امير المؤمنين
 ومحمداً بما جرى ولكن اذا سألتني احدهما عن سبب فائك ها ماذا اقول له
 قالت « قل له ان القيس الذي جئت في المأوى غائب في بيت المقدس فاما
 ان انتظر قدومه او ان اسافر اليه » وقصت عليه بعض الحديث ونمض وودعها
 وخرج وظلت في الخادم فدخلت ثيابها وتناولت بعض الطعام ونامت والخادم في غفلة
 نامة عما وقع لها في ذلك اليوم . وظلت راقنة الى ظهر اليوم التالي حتى اتراحت
 على ان نومها كان منقطعاً نخله هواجس وبلابل . وفكرت طويلاً في هل تقيم
 في دمشق ام تاتمس بيت المقدس لمشاهدة القيس ولكنها تركت ذلك الى ما بعد
 السؤال عن مآل افانته هاك وما يرجوه من الاسراع في قدومه

وقضت بقية ذلك اليوم في الخان وفي الصباح التالي لبست ثوباً غير الذي
 كانت فيه يوم المسجد . وادعت خادمتها ان يكتم كل شيء . فاذا سئل عن سبب افانته
 هناك لا يذكرها وخرجت تاتمس الكنيسة من غير طريقها العمومية فدخلت الكنيسة
 وسارت تروا الى النسيبة فادارت في غرفتها تصلي فمكثت ريثما فرغت من صلاتها
 ودخلت عليها فلقبت منها ترحاباً عتيباً وكانت قد علمت بالنقض عليها وقالت لها
 لقد مكثت يا ابنتي وبدلتك محافة ان تكوني قد اصبحت بسوء فقضت اسماء عليها اخرها
 من الوجهة التي تمها . فهتت النسيبة ان حالها تستدعي الكتمان فنالت لها اقبى ها
 ما شئت وليس لاحد سبيل اليك اذا اقميت معي في هذه الغرفة فالك بمنزلة ولدي

فلما سمعت اسماء قولها « ولدي » تذكرت والدتها فهاجت اشجانها وقالت في نفسها
 « لو كانت والدتي لا تزال حية لكنت في غنى عن كل هذه الماعب . آه ما اعز
 الامهات وما اشد حاجة البنات اليهن » . ولكنها اجابت النسيبة شاكرة وقالت اعلم
 ذلك جيداً ولولاه ما جئت بتسبي وقد كمت عازمة على الخروج من هذه المدينة لو
 لم اكن في انتظار القيس مرس . هل تقبلين بقيم طويلاً في بيت المقدس
 قالت لا ادري عرمة يتيماً ولكنني لا اظن بطول الاقامة هناك

وقضت اسماء اياماً في عنائها عند النسيبة تنتظر قدوم القيس فابطاً وملت
 الانتظار وخافت ان يموت قبل رجوعه بالظر الى شيوخته وضعفه ولما تصورت موته

قبل اطلاعها على اسم والدها هب جسمها وانشعر بدنها وخافت اناسارت اليه ان
يأتي هو من طريق آخر فلا يلتفتان فلتست تتردد بين الامرين

الفصل الخامس والسبعون

* خلافة الامام علي بعد وقعة الجمل *

مر بنا ان الامام علياً لما انتصر في وقعة الجمل نزل الصرة فبايعة اهله
فاستعمل عليها عبد الله بن عباس وسار على الكوفة ففتحا واسطم له الامر بالعراق
ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان ونايحه اهلها ولم يبق خارجاً عنه الا الشام
وفيها معاوية واهل الشام معايعون له في الطالب بدم عثمان كما قد رأيت
وكان علي قد ولي على مصر قيس بن سعد بن عاذة وهو من خيرة المهاجرين
وكان من جهة الامام علي وهو من دعاة العرب . وكان في مصر جماعة يجرى بها
هرون غيبراً يؤيدون بطالون بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يهتدون لحرب فرأى قيس
من السياسة والدعاء ان يكف الحرب عنهم ويداهم لئلا يضطروا الى معاوية
وكان معاوية قد كتب الى قيس يستنبله ويبذل له الولايات العظام فلم يجبه
قيس الا دفاعاً عن علي . فاصططع معاوية عن لسان قيس كتاباً قرأه على الناس في
الشام يهيمهم ان قيساً معه وانه لذلك لم يقاتل المعتزلين في خراسان . فدفع ذلك علياً
فصدق الوشاية في قيس وعزله عن مصر وولي عليها محمد بن ابي بكر^(١)
ولم يكن لعل شاعلاً به بعد وقعة الجمل الا معاوية وجود الشام فرأى ان
يبعث اليه يطلب يعمته فيبعث اليه جرير بن عبد الله الجلي في ذلك ويطلب منه
الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار . فسار جرير الى الشام فاطلة معاوية
مدة ريثما اراد حال اهل الشام وما يقاسونه من البكاء والمويل عند قبض عثمان
واصاب نائلة كما تقدم فرجع جرير بذلك الخبر الى علي . فعلم ان لا بد له من الحرب
فسار من الكوفة في جيش ياتس الشام وقد علم ما تحالف عليه معاوية وعمره . وسار

معاوية وعمر من الشام يطلبان علياً ولكنها ابناً في السبر حتى التقى الجيوشان في صفين . ودخلت سنة ٤٢ هـ والجيوشان في صفين (صفين) وصفين موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من غربيها . بحيث تكون الرقة على الضفة الشرقية وصفين في الغربية والفرات بينهما . او هو بين الرصافة في الجنوب والفرات في الشمال . بين صفين والكوفة نحو ثلاثين ميل او أكثر وبينها وبين الشام نحو نصف ذلك . وهي من الشام في الشمال الشرقي ومن الكوفة في الشمال الغربي

هناك نزل الجيوشان العظيمان يقودها اعظم رجال الاسلام ونخبة المهاجرين والانصار . في ذلك السهل الواسع جرت واقعة صفين المشهورة التي قتل فيها عشرات الالوف من الرجال . وقد مال فيها علي ما ناله في وقعة الجمل من النصر والفلبة . ولكن هل انتظم له الامر بعدها . كلا . فانها كانت خاتمة نصراته على مناظره في الخلافة . ولم يكن ذلك لضعف عزيمته ولا لقلول حماسه ولكنها حيلة دبرها عمرو ابن العاص فتنت فيه وقتل رجاله واسموا فيا بينهم كاسيجه

الفصل السادس والسبعون

* اسماء وجدّاه *

ولبت اسماء اياماً واسارع عد النسبة تنظر عود النيس من بيت المقدس فلم يرجع فحسبت لا بطائفة الف حساب واشغل بالها ولم تر خيراً من ان تسير في اليو بنفسها فاستشارت النسبة في الامر فاستغربت قلتها وتسرعها في مشاهد النيس فقالت لها وهل تحتاجين الى النيس في امر يدعو الى هذا القلق فتأومت الفتاة وسكنت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تخرج كربتها فقالت لها النسبة قولي يا ابنتي ما الذي اوجب نهديك عساي ان انفعك قالت اني احتاج الى سيدي النيس في سرّ عنه عن والدي لا يعرف احد سواه

وقد كانت والدتي فقط تعرفه وباحت بالنميس . ولما الآن فلم يبق غير عارفاً به فادركت النميسة ان والدتها ماتت فلم تشأ ان تذكرها بها ولكنها احبت ان تعرف ما هو موضوع ذلك السر فقالت وهل يجوز ان اعرف ما هو ذلك السر قالت اعترف لك يا سيدتي اني ربيت في دمشق في حجر والدتي ورجل كنت احببه والذي فاخبرتي والذي يوماً ان ذلك الرجل ليس والذي فسالته عن والذي المحبوتي فوعدتني باطلاعي عليه في فرصة اخرى . وقصت اسماء قصتها على النميسة من اولها الى آخرها ما يتعلق بحقيقة والدها

وكانت اسماء تتكلم والنميسة تنظر اليها وتأمل ملامحها فلما فرغت من كلامها تبسمت النميسة وهشت لها وصمتها وقالت أملك اخة مريم

قالت « نعم يا سيدتي » واستأنست مجنوها

فقالت مسكية والدتك

فقالت اسماء وهل تعرفنيها

قالت اعرفها جيداً قل ان تزوج وكانت كثيراً ما تأتي الكنيسة للصلاة مع والديها وكنت اما يومئذ شابة وفي صبية وكنت احبها كثيراً فلا يضي عيني من اعيادنا الكبرى كالنصح والشمسين والابلاذ وغيرها الا كنت انا والنميس على مائدة جدتيك رحمهما الله . واذكر انه كان لوالدتك اخ جميل الصورة حاد الذهن كان يأتي مع امك ووالديها الى الصلاة . وظللت على ذلك حتى جاء ما العرب منذ بضع وعشرين سنة فتغل هذه المدينة واستولوا عليها وفرقوا شملنا . وكانت والدتك قد اصحبت شابة وهي في مثل خالك جمالاً وذكاء ولم اعد ارى جدتيك ولكنني سمعت انها قتلت . اما امك فلغني انهم اخذوها سبية ولم اعد اراها الا منذ عام وبض العام اذ انتت الى النميس واذكر اني رأيتها وهي داخله فحكيت عن رفة ولما احببني اعرفها ولما خرجت سألت النميس عنها وان يكن سؤالي قطيلاً وقلت « اليست هذه مريم بنت قسطنطين (وهو اسم جدك) » قال بلى هي ولكنني رأيت على وجهه بعد خروج والدتك من عنده اثر الاقباض ورأيت الدمع في آفاقه فانشغل خاطري ولم اسأله عن السبب مخافة ان يكون سؤالي من قبيل التطفل لعلي ان النميس مستودع اسرار كثيرين وقلت في نفسي لو كان خبر هذه المرأة ما يجوز ذكره

لما تأخر عن ذكره لي فسكت . اما هو فكأنه ادرك عظم قلتي لمعرفة خبر والدتك لما يعلمه من رابطة المودة بيننا فلما جلسنا على المائدة في المساء أخبرني عن كنيته سببها وسبب غيابها عما كل هذه المدة ونهت من خلال كلامه ان الرجل الذي كان معها بومئذ ليس والدك وان والدك رجل آخر

فقال اسماء بلهنة « لم تعرفي اسم والدي » . قالت كلاً لاني لم اسأله عن ذلك فاستأنت اسماء بالقسيمة وازدادت ميلاً اليها فقالت لما باننا نشيرين علي الآن أن أنتظر رجوع القسيس ام اسير الى القدس فاستعلمه السر

فصمت القسيمة كأنها تذكر في امر ثم تغير لوننا بنفثة وانقض وجوها ونظرت الى اسماء والدمع يتلألأ في عينيها وقالت اري ان تدهي الى بيت المقدس لان القسيس اصبح شيخاً هرمًا . قالت ذلك وشصت كلامها

فادركت اسماء انها غاف انقضاء اجله عاجلاً فقباهلت عما بدا من عواطفها وقالت ما اتي ذاهبة ولا تنكأل على الله . ونهضت للحال فودعت القسيمة وخرجت تلتقي الخان وفيه خادمها والجو ادان قمارته بالاستعداد وفي صباح اليوم التالي ركبت وسارت قاصدة بيت المقدس

النصل السادس والسبعون

﴿ القسيس مرقس وانطاكية ﴾

وكان القسيس مرقس كما تقدم يعرف جدي اسماء واهلها قبل النسخ وله انعطاف خصومي لما قلنا تعلم السر من مريم والبن اسماء شاركها في مواطنها وبلاياها وازداد انعطافاً لما وود لو استعاض ما يفرج به عنها . فلما جاءته البرق الاخيرة قبل سفرها الى المدينة وأخبرته انها عازمة على كنف امرها لاصحاب الشأن هناك سرّ ولكنه رآها مريضة ضئيلة فتشاءم من مظاهرها وتوقع قرب انقضاء اجلها فاوصاها ان تهت اليه بما يتم لها وهو انما يريد بذلك تخفيف وصولها الى ما منها حجة . فلما مضى الامام ولم يرد عليه خبر تعاطف قلقة عليها وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) تجدد بدالة وود

لو يرى اسماء ليخبرها عن والدها ولكنه لا يعرف مقرها . فلبث وذلك شأنه حتى جاء الامويون قبض عثمان واصاح نائلة وكان ما كان من مكائهم وعويلهم وعلم ما حدث من التنة في المدينة فارداد انتغال خاطره واثرت تلك القوعاء في صحنه فاضطر مع ضعفه وعجزه ان يرح دمشق الى مكان يستكن فيه ريثما نهى الاحوال . فخطره المسير الى بيت المقدس لان له فيها اهلاً يرتاح الى مجاورتهم فركب اليها قبل وصول اسماء الى دمشق ومكث هناك منه وهو لا يرد الاضعاف ولم يجد تحب اهله واحشائهم يوم نفعاً واحس بقرب الأجل

فخطره الركوب الى انطاكية وهو الكرسي المطريكي الذي سيم فيه نسياً فيرى المطريكي انطاكي ويتروّد الاسرار المقدسة على يد قتل الوفاة وانتق ان مركباً امبراطورياً كان راسياً في مياه عسقلان اسند الامبراطور قوسطاس الثاني ليجلب المطريكي الاورشليمي الى انطاكية لخارة مطريكيها في بعض الشؤون الدينية التي كان الخلاف قائماً عليها في تلك الايام . وكان المطريكي الاورشليمي قد علم بزم القيس مرقس على انطاكية فدعا ليسر اليها معه بجرأ لان النصل صيف ولا خوف من الاسماء والطريق في الرشاقي لما ينتضيه من ركوب الدواب وقطع الجبال والادوية فسر القيس بتلك الدعوة وسار في حاشية المطريكي على البغال والحديد الى عسقلان على ان يسيروا منها الى انطاكية في المركب الامبراطوري

وانتق وصول اسماء الى القدس بعد خروج القيس منها بضعة ايام ولما اخبروها انه قصد انطاكية استعازت بالله مما انتق لها من المحس في اسنارها الاخيرة وبانت ليلة وصولها في الخان حزينه لم ينشف دمعها طول ذلك الليل لفرط ما تولاه من القنوط فاصبحت شديدة الاعتقاد بغص طالها

على انها اصحت في اليوم التالي وقد هدأ روعها فاستعدت ارادتها ونقلها وعادت الى رابطة جاشها فقالت في نفسها لا ذهبن الى انطاكية على عجل قبل ان يخرج القيس منها والاتكال على الله . فركبت جوادها وسارت والحادم في رفقتها يوم لها بما تحتاج اليه من الخدمة في السفر . وهي حينما توجهت متكة بلباس الرجال مخافة ان يعلم مروان بها ولا ينجيها منه شيء الا التل وكان المسافر من القدس الى انطاكية يقلب ان يمر بدمشق اما هي فجعلت طريقها في لبنان . وبعد مسيرة ايام وليال

اشرفت على اناكية

وكان وصولها اليها في الصباح قبل طلوع الشمس والشمس لا تشرق على اناكية الا متأخرة لاحتجابها بالجبل الشرقي. واشرفت اسماء على تلك المدينة العظيمة ام مدن الشام وكرمي تشاركتهما لفي ثالثة مدن تلك الايام (رومية والاسكندرية واناكية)^(١) فاطلت عليهما من مرتع مغرف فاذا في مستعيلة التكل على ضفة نهر الاورتنس الجبوية تحديق بها الساتين الغناء وفيها الاثمار والناكية من كل الانواع . فاندهلت اسماء لعظمة تلك المدينة وما فيها من الانية الناهضة واكثرها من الكنائس فوقها انساب المخرقة ماهيك عن التوارع التي لا تكاد تشرق الشمس حتى تنص بالاس . وما ذهبا نوع خاص سورها العظيم وما عليه من الاراج التي يبلغ تعددها ٢٦٠ رجالة خمسة ابواب . وشتمت ذلك السور الواسع بنظرها لعلها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول عشيا لان السور يصعد مع الجبل الى اعتلاء ثم يتزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعا^(٢) بما تريد مساحته على عدة عشر ميلا مرعا

فبهت اسماء لتلك الماطر القبيحة وكان بحر الروم يترامى لها عن بعد في الافق كأنة هلال مستطيل . وبعد ان وقفت هناك رهة تتأمل عظمة هذه المدينة تحولت الى باب من ابواب السور في الشرق انصلت منه الى الشارع الاعظم وهو يقطع المدينة في طولها من الشرق الى الغرب طوله اربعة اميال عليه من الجاسين اربعة صفوف من الاعمدة الرخامية تعلوها اقواس حيلة وفي الوسط طريق واسع مكتوف مرصف بالفرانيت . يحد من الجاسين منعد من الرخام المنقوش . والشارع كله على استقامة واحدة تنفرع منه طرق صفرى الى كل من الجاسين فذهلت اسماء لما شاهدته من العظمة والذخ في اناكية ما لم تر مثله قبلاً . وما زاد ذهولها ودهاشنها انها رأت نيجان الاعمدة في ذلك الشارع الطويل محلاة بالذهب الخالص ما يندر مثاله في اعظم مدن الارض . على ان ذلك المنظر الجميل كان ممزوجا بما يدعو الى الامف الشديد لما توالى على هذه المدينة من الرلازل التي دكت معظم انبتها فشوهت وحيها وغيثت مجرى نهرها على ان العظمة مع ذلك ما زالت تقبل فيها^(٣)

(١) انيكولونيا نهر بيطانية (٢) مراد الاطالع (٣) الانيكولونيا بديا البريطانية

وما زالت أسماء سائرة تلمس دار الطبرك لعلها ترى القيس هناك فوصلت إلى بناء شاهق يدخلون اليه من باب عظيم قائم على أعمدة من الرخام عتيبة العليا من الفرائيت الأحمر الجميل عليها نقوش باليونانية لم نستطع أسماء قراءتها . فاطلّت من ذلك الباب إلى فناء واسع مرصّف بالسيفساء ينتهي إلى سلم عريض يصعدون منه إلى دار رحمة رأيت فيها جماعة من القسوس والشمامسة وغيرهم يحيطون وكل اثنين أو ثلاثة منهم في شاغل من الحديث . فقالت في نفسها أأدخل . . . فإذا كان القيس ليس هنا فما الذي يدخلني . ثم سألت بعض الوقوف عد الباب عن القيس مرقس فقال إنه لا يعرفه . فذكرت أنه قادم على مركب البطريرك الأورشليمي وإنها يصلان معاً . فسألت عن الطبريك فقالوا إنه لم يصل ولا م يعلمون زمن وصوله لأن السفر في البحر إنما هو تحت رحمة الرياح فإذا هبت في جهة سير المركب أسرع وصوله وإذا عاكسته تأخر أياً ما وسابع . وعلت أسماء ذلك فقالت لا بد لي إذا من الترخص ربنا تصل السينة . وأمرت الخادم أن يسير بها إلى خان تقيم فيه

الفصل السابع والسبعون

* المسير إلى صفين *

وقضت أسماء في الخان أياماً وفي على مثل الحمر تصعد أحياناً إلى الجبل تنطلّع منه إلى البحر لعلها ترى مركباً قادماً . ولكن بعد البحر من انطاكية كان كثيراً ما يحول دون رؤيتها شيئاً فإذا ملّت الاضطمار أرسلت خادماً إلى الطبريك يسأل عن القادمين حتى لم يبق لها صبر على البقاء هناك وأبقت نسوة طالعهن فقالت في نفسها لا بعد أن تفرق السينة بين فيها نهيماً لتقائي

وكانت غرفتها تنصرف على الشارع الأعظم فاستيقظت ذات يوم من فراشها على ضجيج الناس وغوغائهم وجابهم في الشارع فاطلّت من النافذة فإذا جماعات من العرب بالعدة والسلاح سائرون على غير نظام بعضهم يحملون الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تنقدهم بعض النساء بالدخول بين مربع ومستدير يصرس عليها وينشدن

الاشعار المحاسية يستغنون بها الرجال ويتنهن همهم . فعلت اسماء انهم من جند
انطاكية ولكنها لم تنهم معى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجيبها لانه كان قد اغرط في
سلك المارة بجادتهم ويستنهم منهم عام فيو . وبعد قليل عاد مسرعاً وامارات
البغلة بادية على وجهه

فقال وما وراؤك . . من هؤلاء

قال م جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام في صنين

فقال لي من

قال علي جند امير المؤمنين علي بن ابي طالب

فقال بلهفة وهل م في حرب هناك

قال نعم يا سيدتي انهم هناك منذ مدة طويلة لان بعض الدين خاطبهم
الآن يزعم انه كان في حملة سابقة وانه شهد معركة هائلة هناك انكسرفها
جيش الامام

ولم يتم كلامه حتى اقتشع بدن اسماء وصعد الدم الى وجنتها غيرة وحمية وقالت

ابن هي صنين

قال انها على بضع مراحل من هذا المكان شرقاً

فلبثت في حيرة بين ان تظلل في انطاكية حتى يصل القيس او ان تسير الى صنين
وترى ما تم لجند الامام فللبث صامتة برهة فتركها الخادم وخرج . اما هي ففالت في
نفسها ان انتظاري مركباً قادماً في هذا البحر قد يطول كثيراً لان سفر البحر لا حدود
له وقد يتهى انتظاري بالنشل اما بفراق المركب واما بموت القيس قل وصوله لثم
نماسي . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها اسفاً على حالها وغيطاً مما احق بها
من البلاء فبكت ثم عادت الى هواجسها ففالت واما الحرب في صنين فان عليها
تيوقف سعادة المسلمين او شقاوتهم وما انا خير من احدم ولا بد لي من الاسراع
الى هناك عساي ان استطع خدمة اولي اقتل في ساحة الوغى فانجو من هذه المتاعب
ثم نادى الخادم فلما حضر قالت اسرع الى دار البطريرك واسأل عن القيس مرقس
فاذا قيل انه لم يأت عد حالاً واسرج الجواد واعدد معدات السفر

فخرج الخادم وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لا غنى عنه في الطريق

واخبرها ان السينة لم تصل ولا يعلم احد زمن وصولها واني اعددت ما نحتاج اليه في الطريق

قالت نذهب اذا الى انطاكية حتى اذا انتقضت الحرب وظللنا في قيد الحياة نعود الى انطاكية والآن ... فعلى الدنيا السلام

ولم تقص ساعة حتى ركبت اسما وركب خادمها في اثرها وخرجا من المدينة فالتقيا بالنجدة سائرة امامهما ففكرت اسما بماذا تستطيع خدمة الامام وهي يد واحد لا تنيد في القتال فائدة تذكر فلاح لها ان تحدة في استطلاع حال العدو وكشف عوراته ومخباته ولا يتم لما ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لا يكون الا اذا تنكرت وانخرطت في سلكه

وقصت مسافة الطريق وهي تفكر في الامر وكانت قد سفت نجدة انطاكية فاضلت في صباح الخميس بعد نضعة ايام على سهل صنون من جبل عال فها لما ما شاهدته في ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والحيل والجمال ولم يكن في ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما في الشرق والاخر في الغرب بينهما ساحة خالية فعلت انهما معسكرا معاوية وعلي في هدة وشاهدت الجبال سارحة في المراعي وراء الخيام ومعا السيد ترعاها . وتأملت معسكر الشام لانه اقرب الى موقفها من ذاك فرأت في وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والحيل فعلت انها قبة معاوية امير تلك الحملة ...

وما كادت تتأمل في ذينك الجنتين ردة حتى رأت فيها حركة وقد نهبا وجميعا للقتال والتم الجيوشان وتطابرت النبال وصهلت الحيل وخفت الاعلام وصاح الفرسان من الجاسين . فلم تر بقاء من العمل فقالت لخادمها اعطني ثيابك وخذ ثيابي واتق انت هنا بالجوادين

الفصل الثامن والسبعون

﴿ وقعة صفين ﴾

فلبست اسما ثياب خادمها حتى اشبهت بعض رجال حملة انطاكية وكانت

لم تصل بعد على ايها وصلت بعد هنية فانخرطت اسماء في سلكها وسارت مع المشاة لا ينبه لها احد حتى دخلت معسكر معاوية والحرب معتمدة وكل مشتغل بنفسه . وما زالت تخرق الجماهير وهي تتظاهر بالمقاتلة معهم حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت حولها خمسة صفوف من الرجال قد عقلوا انفسهم بالعالم^(١) حول القبة للدفاع عن معاوية بحيث لا يستطيع احد منهم الدار وحده . فعلت ايهم مستهلكون في سبيل نصرته او مستفتلون في الدفاع عنه . وتطلعت من خلال الصفوف فرأت معاوية والى جانبيه عمرو بن العاص وكلاهما في وجل واعينها تكاد تعابير شعاعاً تظلماً لما سيكون من عاقبة تلك الواقعة وهما يستحضران الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات والتمسك بظواهر كأيها الجراد في السحاب . فاحتالت اسماء في الدخول الى قبة معاوية فرأت فارساً جاء مسرعاً ودخل من ثقب بين تلك الصفوف فدخلت هي في اثره ودخل غيرها ايضاً فلم ينبه لها احد فصمت معاوية يسأل الفارس عما هو فقال ان وطأة العدو شديدة ولكننا سنغلبهم باذن الله

ونظرت اسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو منتفع وقد ظهرت البقعة عليه وكذلك معاوية ومن معها من الامراء . ثم رأت عمراً خرج مسرعاً فركب فرسه وسار يخرق الصفوف يستحث الرجال ويحرضهم واسماء واقفة في جملة الوقوف وقد سرت بما شاهدته من شعور معاوية بقوة رجال علي . وبعد هنية عاد عمرو مسرعاً ودخل القبة واخلى بمعاوية فلم تعلم اسماء ما دار بينهما ثم عادت الى فرسها ينصرفان عنها على الواقعة واسماء ترتقب حركاتهما

وفيا هي في ذلك سمعت صوتاً كالرعد القاصف رن في اذنها ريناً مطرناً لانه صوت الامام علي يقول

اقتلهم ولا ارى معاوية * الجاحظ العين العظيم النخوة^(٢)
فالتفتت فاذا هو علي في فرسه وقد تلغفت ثيابه وسالت الدماء من نصال
حسامه . ولما دنا من قبة معاوية صاح فيه « الي يا معاوية علام يقتل الناس بيننا
هلم احاكمك الى الله فأيما قتل صاحبه استقام له الامر » فسمعت اسماء عمراً
يقول لمعاوية همساً « والله انصفك » فقال له معاوية « ولكنك ما انصفت » . اما

الامام علي* فانه صدهنية فلما لم ينزل معاوية لما رزقوا عاد على فرسو يهب الارض
بها وعينا اسماء تشعابه وهي تدعوه بالنصر

وانضى النهار والحرب قائمة وخيم الظلام والناس لا يراون يتقاتلون فاعتمدت
اسماء ظلام الليل لاستطلاع بية معاوية فددت من القنة حتى كالت بالقرب من
معاوية ليس بينها وبينه الا الحذر وهو لا يشبه لها . فسمعت يحاطب عمرآ وفي حديثها
ما يشف عن خوفها من طافة تلك المعركة . وما سمعت قول معاوية « ارى اهل
العراق قد شتوا امام اهل الشام »

فاجابه عمرو « انهم شتوا . نعم ولكن لا ندس الحيلة والا فقلنا وانقضى
الامر علينا »

فقال معاوية « وما الحيلة يا اما عبد الله »

قال « نرصد على ما نحن فيه الى الصباح فاذا تخفنا قتل حدا عدينا الى
الحيلة وهي عندي هينة »

قال معاوية « وما هي »

قال « ساقولها غدا صاها وارحو ان لا رى حاجة اليها »
فودت اسماء لوانه ذكر حيلة لتسرع مخبرها الى علي ولكنه لم يقاها

الفصل التاسع والسبعون

* رفع المصاحف *

واصبح يوم الجمعة والحرب لا تزال متواصلة وقد نفهر حد معاوية حتى
وصل رجال علي الى الصفوف المعنولة حول القنة . فالتفت معاوية الى
عمرو وقال « ما الحيلة يا عمرو »

قال « ارفعوا المصاحف على الرماح وقولوا كتاب الله بينا وبينكم فان قلنا
بذلك جميعا ارتفع القتال عنا . واذا قل بصهم دون العصا آخر تفرقوا وانفسوا
على انفسهم فيكون لنا بانفسهم راحة »^(١)

فلما سمعت أسماء ذلك خافت انه لاء تلك الحيلة على علي فهرولت مسرعة
تحترق المنوف وقلها يرتص فرحاً لانها استعطت خدمة تنفع بها علياً وفي علي
يتبن من فتل جند معاوية وإن علياً اذا ظل على القتال فاز بالنصر المبين واذا
صدق حيلة عمرو ضاعت الفرصة منه

اما علي* فكان قد حارب سالة تغلي طول نهار الامس ولبو وقد تحنى
فوزجته وما انك يدافوف في صنوفهم يستغثم على الثبات ويدعولم بالنصر حتى عاد
في الصباح الى فسطاط لمرض له وفيما هو هناك جاءه محمد ان اهل الشام رفعوا
المصاحف على الرماح وهم يقولون « هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من
لتنور الشام بعد اهلوه . ومن تنور العراق بعد اهلوه . فلما سمع علي* كلامهم قال
« لا لانجيهم الى ذلك لانها حيلة منهم »

فجاءه نمر من رجاله وقالوا « يجب علينا ان نجيب الى كتاب الله »
فوقف علي* وقد خاف التبعة وقال :

« عباد الله امضوا على حكمكم وصدقكم وقال عدوكم فان معاوية وعمراً وامر
ابي معيط وحبيبا وامر ابي سرح والشعاعك ليسوا مصحاب دين ولا قرآن اما اعرف
بهم منكم قد صممهم اطلاقاً ثم رجلاً فقتلوا شره اطفال وشر رجال ويجكم والله ما
رفعوها الا خديعة ووهماً ومكينة »

فقالوا له « لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فمأبى ان مقبله »
فقال لهم علي « فاني انما اقاتلهم ليدبوا لحكم الكتاب فانهم قد عصوا الله فيما
امروهم ونسوا عهد وبنوا كتابه »

فقال له سمر بن ذكوان التيمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من الثراء
الذين صاروا خوارج بعد ذلك « يا علي اجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت
اليه والآن دفعتك رمتك الى القوم او تفعل بك ما فعلنا بآبى عنان »

قال « فاحفظوا عني نهي اياكم واحفظوا مقاتلتكم لي فان تطيعوني فقاتلوا
وان تعصوني فاصنعوا ما بداكم » (١)

قال ذلك وقد أخذ النضب منه مأخذاً عظيماً . وفيما هو في هذا الجدال انشق

الجمع وخرج من وسطهم شخص شباب الرجال ولكنه اساء فانها وصلت وسمعت الناس يحاجون علياً فهرولت حتى وقعت بينهم وبين علي وقد ثارت الحمية في رأسها وعلا وجهها احمرار الشعب من شدة الجري فصلاً عما قام في نفسها من الاسف لتلك الحال . فكشفت عن وجهها وسلت على الامام بحجة الخلافة والتفتت الى الوقوف هناك وقالت لم « اعلم اني قادمة من مصكر معاوية وقد سمعت حديثهم عن هذه الحملة يا ذني وانما جئت مسرعة مخافة ان تطلي الحملة عليكم وتكفوا عن القتال . انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقي التفاتك بهمكم . واخشي ان تنفذ حملة فيكم فاطبعوا امير المؤمنين وامن القامون »

فصحبكم من كلامها وقالوا « كيف تدعى الى كتاب الله ولا تحب . هذا لا يمكن ابداً »

ثم وجهوا كلامهم الى علي وقالوا « ابعت الى الاشترا فليأتك » وكان الاشترا النعمي من اشجع قواد تلك الحملة وقد امل في تلك الحرب ملاء حسناً وكان لا يزال يحارب وهم انما طلبوا استقامته ليكف عن الحرب . فبعث علي اليو فلم يأت لانه رأى الفوز بين يديه واذا تحوّل عن موقفه عدت اعماله

فلما ابعثاً قال اولئك الناس لعلي « فظنك امرته بالحرب فابعت اليو والاولاه اعترلاك » فبعث اليو علي ثابته فجاء وهو يقول « اظلمكم تدعونني الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »

ثم اقبل عليهم وهو يقول .

« يا اهل العراق يا اهل الذل والوهن احين علوم القوم ووطنوا انكم لم قاهرون
رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما امر الله به فيها وسنة من
انزلت عليهم فاهلوني فواقا فاني قد احسنت بالفتح »

قالوا « لا »

قال « اهلوني عدو النرس فاني قد طمعت بالنصر »

قالوا « اذن تدخل معك في خطيتك »

قال « فجهروني عنكم متى كنتم محضين احين تقاتلون وخياركم يقتلون فاتسم الآن
اذا اسكنتم عن القتال مبطلون ام اتسم الآن محضون فقتلكم الذين لا تنكرون فضلهم

وم خير مكم في البار »

قالوا « دعا ملك يا اشتر قد قاتلناهم لله ودع قتالهم لله »
قال « خدعنم واعدهنهم ودعينتم الى وضع الحرب فاجتم يا اصحاب الجباه السود
كما نظر صلاتكم رهادة في انديا وشوقا الى لقاء الله فلا ارى مرادكم الا الدنيا الا
قبعا يا ابناء السبب الجلالة ما اتم رائثين عدوها عزرا ادا فابعدوا كما بعد
القوم الظالمون »

فسوه وسهم وصروا وجه دانه سباطهم وصر وجره دواهم بسوطه . فصاح
بههم علي فكموا وقال الناس قد قلنا ان يحل القرآن بيننا وبينهم حكما
وطال الاخذ والرد بينهم واساء واقفة وقلها يكاد يتقد غوغا من عاد اولئك
المحالين فلما سمعت الاقرار على اجابة الدعوة تاترت الدموع من عينيها بالرغم منها
والتمت الى علي فاذا هو مطرق وقد اخذ العصب منه ما خذا عظما كأنه يرى
عاقبة ذلك يعيبه فتعاضم عيها وارادت نوبع اولئك وتقريرهم فخافت ان يعد
ذلك وقاحة بعد ان وقع الاقرار فتنتعت جاسا ولبتت تنتظر ما يكون

الفصل الثمانون

﴿ أمر الحكيم وعقد التحكيم ﴾

فتقدم رجل من خاصة علي فقال رى الناس قد قبلوا مادعوا اليه من حكم القرآن
فهل تأذن ان سمع ما يدعوا معاوية اليه من هذا الامر
قال علي سر اليه واسأله عن ذلك

فذهب وعاد وهو يقول سألت معاوية عما حمله على ريع المصاحف فقال
« الرجوع الى ما امر به الله في كتابه فامضوا رجلا ترضون به ونعت نحن رجلا
يرضى به تأخذ عليهما ان يعمل بما في كتاب الله لا يعدوا ثم تبع ما اتفقا عليه »

فقال علي قبلنا بذلك فأي رجل اختاروا م
قال اختاروا ان ينوب عنهم عمرو بن العاص

فالتفت علي* الى من حوله وقال « ومن تخارون انتم »

قالوا « تخار ابا موسى الاشعري »

فلما سمع علي* كلامهم اجعل وقال « لا لا .. انكم لم تصيبيوا . وقد عصيتوني في اول الامر فلا تصوني الان . لا ارى ابا موسى كنوا لان العاص وهو مع ذلك ليس بثقة فقد فارقتي وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى امتد بعد اشهر . فكيف ركن اليه في مثل هذا الحكيم . هنا ابن عاص اوليو ذلك »

فصاحوا بصوت واحد « والله لا يبالي انت كنت ام ابن عاص لا يريد الا رجلاً هونك ومن معاوية سواء »

قال علي* « فاني اجعل الاشتر »

قالوا « وهل سعر الارض غير الاشتر »

قال « قد ايتم الا ابا موسى » (١)

قالوا نعم

قال افعلوا ما اردنم

وكانت اسماء نسع ذلك الجدل وهي تكاد تتميز غفلاً ولكنها لم تكن تجسر على الكلام عبيهاً من علي

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعري وعمره قد خلا على علي* ليكننا القضية محصورة وهي صورة عقد الحكيم فبدأ بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه امير المؤمنين .. » فاعترض عمرو قائلاً « هو اميركم وليس اميرنا » وطال الجدل في ذلك حتى وقع شور شديد بين علي وعمره وانتهى الامر ان يكتب العقد على هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية ابن ابي سفيان قاضي علي على اهل الكوفة ومن معهم وقاضي معاوية على اهل الشام ومن معهم . اننا ننزل عند حكم الله وكناؤه وان لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحنوا الى خائنتو نجبي ما احيا وثبت ما امات . فما وجد المحكان في كتاب الله وما ابو موسى عبد الله بن قيس وعمره بن العاص عملا به . وما لم يجدها في

كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . واخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن
الجندين من اليهود والمواثيق انهما آثان على نفسيهما واهلهما والامة لما انصار على
الذي يتفاضيان عليه . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان
يحكما بين هذه الامة لا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا . واجل القضاء الى رضان
وان احبا ان يؤخرا ذلك اخرا . وان مكان قضيتها مكان عدل بين اهل الكوفة واهل
الشام » (١) (وبلي ذلك اسماء اليهود)

وقد كتب ذلك العقد في ١٢ صفر سنة ٤٢٧

ولما تمت الكتابة تلي العقد على الناس وانض المجلس ولجأت الجنود الى الهدنة
رئيسا بجل الاجل المضروب لمجلس الحكم

وتراجع الناس عن صنيعة وم علي بالتزوع الى الكوفة فجاءته اسماء في ساعة
كان فيها محتلبا وقلت به فسا لها عن حالها وما تم لها بعد سفرها فقصت عليه
خبرها وما الذي حلها على التذوم قبل مقابلة التيس فاثني على غيرتها ودعاها الى
الذهاب معهم الى الكوفة

فالت يا حبنا ذلك ولكنني اقرب الآن الى انطاكية فأذن لي بالذهاب
اليها فقد آن لي ان اعرف حقيقة سبي . فاطرق علي مرة يتأمل تخافت اسماء ان
يكون في شغل آخر فودعته وخرجت على ان تعود يوم الحكم لتسمع حكم الحكمين
وكان المسلمون كافة في انتظار ذلك اليوم لانه سيكون يوما عظيما ولم تنتقد
محمدا لعلها انه كان يومئذ في مصر يتولى امورها

الفصل الحادي والثمانون

﴿ قطعت جبهة قول كل خطيب ﴾

عادت اسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادما وبدلت ثيابها وركبت
الى انطاكية لا تقيم ليلا ولا نهارا كأن قلبها حدثها بما ستلاقي من الفشل هناك
واشرقت على انطاكية من جبلها الشرقي واطلت على البحر فلعنت شجعا كأنه مركب

ولكن البعد حجب عنها فحقت قلبها سروراً فتزلت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقاً بعيداً منقطعاً فقالت في نفسها لآلهم بمحتشون بدوم البطريرك ولكنها لم تنكد تدخل الشارع الاعظم حتى رأت الناس بمحتشون فيهم يتقدمهم سرب من الاكلاروس بالمباخر فعرفت انه احتفال بجنائز

ولا نسل عن حالها لما علمت انها جنازة القديس مرقس وقد مات بعد وصوله انطاكية يومين فاعيا لطمت وجهها وتذبت سوء حظها ولكنها تحولت حالاً الى الخان واعلقت باب غرفتها واطلقت لنفسها عنان البكاء وجعلت تعد ما اصابها من الاحزن منذ ولادتها وكما قاست من المصاعب والمشاكل والاختطار حتى اذا دنا وقت سعادتها وآن لما ان تعرف والدها وهي ترجوان تكون معرفته سبباً في زيادة سعادتها داهها التدر بذلك النشل

وتذكرت مروان وما قاست من البلاد بسببه وتذكرت اسرها في الصحراء بين مكة والبرصة وما قاسته على اثر ذلك من الجرح وغيره . وغرقت في بحار الهواجس ونفقت نعامها وودت ان تموت فتخلص من العذاب . ولما تمت الموت اجلعت وبدست لانها تصورت محمداً وحيه لما وما ترجوه من السعادة فربو فقالت « لا اموت بل احيا لاجل حبي واقصى مرادي وهو تعزيقي الوحيدة في هذا العالم فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتني كل نعمها وحصلت على عهد فذلك يكفيني »

ثم تذكرت ما قاله الامام علي للحسن يوم سألها ان يخضبها له فانه جعل غموض نسها مانعاً من زواجها بها فقالت في نفسها ان لي في وسط هذه النعاسة رجاء وبشري ان غموض نسي يدنني من محمد . وبعدني عن سواء وهذا هو مرادي . . . ان الحسن لا يلتبس الزواج بي بعد . . . ولكن ربما كان ذلك عينة سبباً في اقصاء محمد ايضاً . ولما تصورت ذلك اقنعت بدتها واطلعت الدنيا في عينها ولكنها عادت بفئة الى فكر انعمها فقالت « ولانا كان غموض نسي يمنع محمداً من زواجي فهل يمنع من ان يكون اخي فنعيش معاً بنية حياتنا لا فترق ابداً . . . نعم اني اتحدت اماً رفيقاً اتبع بمشاهدته وحديثه »

وظلت اساءة في انطاكية بضعة ايام رثا استراحت من السفر وقدا تقطع جل رجائها من قبيل اصلها وانتمعت ان تعيش مع محمد عيشة الاخوت مع اخيها اذا رأى هو ما يمنع

الزواج او اشار عليه علي* بذلك . ولكنها تذكرت الحكمين وما يخوفه الناس من حكمها فقالت اسمع حكم الحكمين ثم التمس . مصراً لتي محمداً فيها
وبعثت خادمها يستطلع مكان التحكيم وزمانه فأتاها اثنان سيكون في اذرح
من اطراف الشام من اعمال السراء ملوحي البقاء وعان^(١) في زمن معلوم . فلما دنا
الاجل نكرت وسارت تلتبس اذرح والخادم معها

الفصل الثاني والثمانون

* حكم الحكمين وحيلة عمرو *

ولما جاء الاجل المعين لللاق حكم الحكمين بعث علي* ابا موسى الاشعري في
اربعة رجل ومعهم عبدالله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعة
من اهل الشام والتقى باذرح . وكان عمرو بن العاص قد استقدم كل دعائه في
اقناع ابي موسى ان يوافقه على خلع علي وتولية معاوية لانه المطالب بدم عثمان فلم
يقلع فذكر ان تولية احد ابناء الصحابة كعبدالله بن عمرو وعبدالله بن الزبير . وبعد جدال
عنيف اتفقا على خلع علي ومعاوية وان يبخنار المسلمون واحداً غيرهما بالشورى . وكان
من دعاء عمر اثنان ما زال يدافع ابا موسى في الكلام حتى طلب هذا خلع الاثنين
فاصبح هو البادى في الكلام عند اصدار الحكم

فلما جاء اليوم المعين واجتمع الناس من الافطار وصلت اسماء ايضاً في ذلك
اليوم فوقفت بين الناس بحيث لا يعرفها احد فرأت ابا موسى وعمر في مجلس علي
دكة وبقية الناس في جانب آخر وكان علي رؤوسهم الطير ينتظرون ما يكون
من الحكم

فوقف اولاً ابو موسى فأصغى الناس لما قال فقال بصوت عال بحيث يسمعه
المحاضرون كافة « ايها الناس انما قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نرَ اصحح لامرها ولا
الم لشعبها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع علياً ومعاوية

وبولي الناس امرهم من احبوا . واني قد خلعت عليا معاوية فاستقبلوا امرهم وولوا من رأيتهم اهلاً » قال ذلك ونحى

وكان لقوله وقع عظيم ولبث الناس ينتظرون قول عمرو فاذا هو وقف وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه (علياً) وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية فانه ولي ابن عنان والطالب بدمي واحق الناس بمقامي »

فلما سمع اصحاب علي قوله طلقوا غدرهم وعرو وتعلل من ابي موسى وابتلى بالنشل ووجهوا ابا موسى واسوه فقال ما العمل وقد غدرني

اما اسماة فلما سمعت القولين علمت ان معاوية قد اشد ساعته وان رجال علي لا بد ان يتسلبوا بين من يقل الحكم ومن لا يقبله فلم تعد تستطيع صرا على البقاء هناك فخرجت من بين الجمع لا تلوي على شيء وقد صغرت نفسها . وما زالت سائفة والخدام معها حتى انت شجرة منفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت بنفسها فجعلت تنكر في حالها وما اتفق لها من النشل المتوالي من كل الوجه وخصوصاً موت التمس وضياح اسم والدعا وفشل رجال علي وخروج الخلافة من بين محكم الحكمين . فغلب عليها اليأس فلم تر لها فرجاً الا بالبكاء والحبيب فنظرت الى ما حولها فاذا هي منفردة وليس من يسمع بكاءها فافأ طلفت لنفسها العنان حتى كاد يفي عليها وما زالت تشقى وتزيد شقيقاً كلما ذكرت علياً او والدتها او محمداً . حتى تعبت وجف دمعها فآلقت رأسها على حجر وماتت ولكنها لم تستغرق في النوم فترأى لها طيف محمد فأفاقته مذعورة وهي تقول « اهلاً بجهنمي لا تعزية لي الا ب... انه في مصر الآن ... هل من يعلم بما حل بامر الخلافة ان عمراً قد كاد فيها كيداً عظيماً ... آه يا محمد هل من حيلة نخدع بها علياً رجل هذه الامة ... لا اظن الامر بعد الآن الا صائراً الى معاوية

» اما انا المسكينة اليئسة المجهولة النسب والتميسة الحظ فرمما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء وربما كانت تعاسني هي التي جرت كل هذه المصائب لكي اموت مقهورة ... » وسكنت هنيئة ثم انتهت بفتنة وهي تقول « محمد محمد ... انت تعزيتي في احرائي ومصائبي فلم لي اليك فاعش بقربك فانك لذي افضل من الوالد والوالدة والاب والاخت . انت ملجائي وملاذي . ولكن علياً سيدي وفخري بل اذهب اليه واموت في الدفاع عن امره . ولكن ... »

الفصل الثالث والثمانون

﴿ الخوارج في الكوفة ﴾

وفيا في مخاطب نفسها لحت الخادم عائلاً بالمجاذين وهو يسرع نحوها
فقال ما وراءك

قال التفت ولما اسرح المجاذين بشرزمة من رجال الشام ركب معررين وفيهم
عمر بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه وسمعت عمراً يقول لقد استقام لنا الامر ولم
يبق عليّ الا ان افتح مصر فاذا دانت لي عدته الى ولايتها ثم لا يبقى في يدي الا
العراق والشحار معد عليها ونفخها

فلما سمعت ذكر مصر ونفخها اقبلت بدنها وتذكرت محمداً فيها فقالت في نفسها
بل اذهب الى مصر الآن واري ما يأول اليه امرها . ثم التفت الى الخادم وقالت
وما ظلك في مسيرهم الى مصر

قال لا ادري متى يسرون ولكن لا بد لهم من الشخص الى الشام اولاً وتدير
امورهم ثم يجملون على مصر

فلبثت مدة تتردد بين ان تسير الى مصر لترى محمداً او الى الكوفة لترى علياً وما
آل اليه امر الخلافة عنه . فلما رأت امر الحيلة على مصر بطيئاً عوّلت على قصد الكوفة
سرياً ثم تعود الى مصر بعد ان تخار علياً بنجدة محمد . ولكنها رأت ان تكتب الى
محمد تخبره بعزمها وتبثه باحوالها استعداداً للناء فكتبت اليه ما نصه :

« من اماه المحبة المنيمة الى حبيبها محمد بن ابي بكر

« اذا لم يكن بلغك ما اصابني بعد سفرك الى مكة اخبرك اني بميت الشام اجث
عن اسم والدي فرأيت حامل السراقر الى بيت المقدس فلبثت هناك مدة قاسية
فيها من الخطر والعذاب الواك ساقصها طيك متى اجئنا ان شاء الله ثم فررت الى
بيت المقدس اسأل عن القسيس حامل السرفقالوا انه سار الى انطاكية فتصدتها
فأبطأ حضوره . وتلمت في اثناء ذلك بحيلة اهل الشام على مولانا امير المؤمنين في
صنين فحضرت المعركة وشهدت ما نصبة عمرو بن العاص من الجبل برفع المصاحف ثم

ما كان من امر التحكيم ما اظنه يبلغك من انذنة هذه الغاية ولكني متى التقيت بك اقصة عليك مفصلاً

ولما الآن فاكتب هذا اليك والطلب لولا الامل ببقائك ذاب وطار شعاعاً . فقد اصبحت بتيمة حزبة مجهولة النسب لان ذلك القديس الشيخ قضى نعمة ولما في صنفين . ولا نسل عن حالي لما رجعت الى الطائفة ورأيت الناس يحتفلون بمجازه فلهئت وبكيت وانجحت ولولا الامل بفرك لتضيت على نفسي بالنمل . وكيف بلذ طعام او منام لفتاة احقدت بها التماساً وتولتها الخوس من كل جاس لم تدرع في امر الا فشت . فاصبحت يا محمد بتيمة غريبة متروكة لا اعرف من هو والذي بعد ان رجوت بان يكون احد كبار الصحابة . فضلاً عما اتاني من البلاد بسبب ذلك الرجل الاموي ولا اسمي لان اسمي يؤلمني

« واعلم ان كل ما قاسيته من الشقاء انعمي من ذاكرتي بمجرد الامل بلتيا حبيبي ومنتهى املي محمد . . . آه ما لذ ذكر هذا الاسم بعني »
« وكنت قد عولت على القدوم اليك على اثر حكم الحكمين اليوم لو لم اكن في شغل على حال الخلافة وعلى مولاي وفخري بل فخر المسلمين كافة اعني يا الامام علي امير المؤمنين . فما اتي شاخصة الى الكوفة لعلي استطيع خدمته ثم آتي اليك . ويكفني من فربك ان اراك واسمع حديثك . وارجو ان يكون لي نصيب في جدك فاذا حل عمرو بن العاص على مصر كما سمعت لا يلتقي فيها متوقفاً يسلمها اليه فغارب سوية فاما نعيش معاً ولما نموت معاً والسلام »

ولنت الكتاب وجعلته في انبوب من القصب ودفعته الى الخادم وادعته ان يوصله الى محمد بن ابي بكر في مصر ويبقى هناك حتى تأتي في لانها ستلحق به جالاً . فمضى الرسول وبقيت هي وحدها وبعد قليل ركبته الى اذرح واستأجرت دليلاً سار في ركاها الى الكوفة وهي مع ذلك ميالة الى مصر لان قلبها هناك وخصوصاً بعد ان سمعت بعزم عمرو على فتحها فوصلت الكوفة بعد ايام فلم ترَ علياً فسألت عنه فقبل لما انه خرج لحرب الخوارج في النهرطان

فقال ومن هم الخوارج

قالوا الذين نتموا على علي لانه رضي بالتحكيم

فقال اعوذ بالله من هؤلاء النوم يحملون امير المؤمنين على قول التحكيم ثم

ينهبون عليه لانه قبل و

وفكرت في الامر ومصير وشاورت نفسها في انذاب لصرة عليّ او الخروج الى مصر لمشاهدة محمد . وقضت في ذلك اياماً وفيها هي تفكر في ذات يوم رأت في الكوفة رجلاً واضطرباً فقلت ما ذلك . قالوا ان الامر استقام في الشام لمعاوية حتى انفذ الى مصر من يفتيها انذ عمراً فاتمها الاول . فأرسل عاملها بذلك الى الامام يستخبر

فلم يبق عندها شك في المسير الى مصر فأسرفت الى جوادها وركبت وقد يشت ما اصابها من الفشل وتولاهما من الحس وسارت وهي تعال نفسها ببقايا محمد حيث لا رقيب ولا منازع . وكانت قد ملّت الاسفار والاضطراب على غير جدوي فعمّلت في باطن سرها ان تقيم في مصر لا تلتفت الى شيء . وهي لا تدري ولسانها عليها بما ينتظرها هناك ما لم يتخطر لها ببال ولا يستطيع الصبر عليه انس ولا جان

الفصل الرابع والثمانون

فتح مصر

قد تقدم ما كان من اجتماع دعاة عثمان في مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دبر معاوية من الحيلة حتى انس ما بينه وبين علي . وما كان من تولية محمد بن ابي بكر . فلما تولاهما محمد بعث رجلاً من خاصته لحرب اهل غربتنا القائمين بدعوة عثمان فقتلوه وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فبلغ ذلك عليّاً فقال ما لمصر الا احد الرجلين يعني قيساً او الاشتر وكان قد عزل قيساً فلم يرجع اليه فبعث الى الاشتر وكان قد عاد بعد صنفين الى عمله في الجزيرة . فلما حضر اخبره خبر مصر وقال ليس لما غيرك فاخرج اليها فاني لو لم اوصك اكنيت برأيك . فخرج الاشتر وشخص الى مصر . وانت معاوية عيونك بذلك فعظم عليه وكان قد طبع بمصر لكثرة خبراتها يستعين بها على اعماله وحروبه . فعلم ان الاشتر ان قدمها كان اشد عليه من محمد بن ابي بكر وكان على حدود مصر يوشع بلد اسم القلزم بالقرب من مكان السويس يغلب للقدام من الشام الى مصر ان يرفو وكان القلزم في حوزة معاوية

فبعث معاوية الى صاحب خرجه في القلزم يخبره بمسير الاشتر الى مصر وقال له
« فان كفتنيو لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت »

فلما مرَّ الاشتر بالقلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فتزل عنه
فأناه بطعام فلما أكل أناه بشرية من عمل قد جعل فيها سماً فسقاه فأت فظلت
مصر بامرء محمد بن أبي بكر . فازداد طبع معاوية فيها وهو يرجو منها خيراً فاستشار
عمرًا فقال عليّ بها اني فاتحها الاول ومن أولى بها مني . وجرد جيشاً كبيراً وسار
قاصداً مصر فلما علم محمد بمحلوله بعث الى الامام عليّ يستعجده وعلت اسماء بذلك
فقدت كما مرَّ

وكان محمد لم ينظر اسماء منذ افترقا في الصرع يوم خرج مع اخنوخ ام
المؤمنين الى مكة . وكان قد علم بما دار بينها وبين الامام عليّ على اثر وقعة الجمل
بشأن خطبتها للحسن . اخبر بذلك الحسن نفسه وهو لا يدري انه مناظر عليها . فاخبره
كيف ان والدك جعل غموض نسبها مانعاً من زواجه بها فسر ذلك وهو على يقين
من بقاء اسماء على عهد . واخبره الحسن ايضاً انها سارت الى بيت المقدس لاستطلاع
اسم والدها . ونظراً لانشغالو بامارة مصر وما احاط بها من المشاكل وما قام فيها
من الثورات المتوالية التي اضرم نارها دعاة عثمان في خربتها وغيرها لم يتمكن من
مكائنها ولكنه كان يسأل عنها وينجس اخبارها . فكان نارة يعرف مقرها وطورها
لا يعرفه . وآخر ما علمه انها كانت في مجلس الامام عليّ يوم خالته اصحابه في قبول
الحكيم وسمع ما اظهرته هناك من المحبة والغيرة فتذكر حديثها وتصورها امامه نذير
ييديها وشكك وتهدد فارتاح لتلك الذكرى واشتاقتم نسمة للقيام

على انه تذكر ما رآه الامام عليّ في غموض نسبها حتى جعله مانعاً من الاقتران
بها فقال في نفسه « اذا عرفت والدها كان امرها مشكلاً لان الحسن لا يقبل عنها
واذا ارادها الحسن وطلبها والدك فكيف اطلبها انا » فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر
حتى وكد ان لا تعرف والدها فتكون اقرب اليه ولو بدون اقتران . وسوّلت له الغيرة
ان لا يأخذها احد منها خور من ان يأخذها الواحد دون الآخر

وما زال يردد هذه التصورات في ذهنه حتى جاءه كتاب اسماء الاخير من
اذبح وعلم بموت القميس وضباع المر وما نشر الو اسماء في كتابها من رغبتها في

المعشة معه كاختٍ او صديقة فحقق صدق مودتها وبقاءها على العهد فانبطت شدة
ولبت بتتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس بولائه حاج اشجائه
بعد ان طال زمن الفراق وكان كلما تلا الكتاب تصور ابناء واقفة بين يديه
تخاطبة ويخاطبها

ولكن استثناء تذكرها لم يطل لانشغالو بهام الحرب . فينما هو ذات يوم في
النسقاط عاصمة الديار المصرية في ذلك الحين جاءه عمومة بجبراهل الشام طائمه
حاملون عليه بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمدا يطلب اليه التسليم فارسل محمد الكتاب الى علي
يستجبه فكتب اليه علي ان يجمع شيعته ويندبهم للقتال ووعده بانقاذ الجيوش . فآخذ
محمد في التأهب من عنده من الرجال فجهز كنانة بن بشر في النين وسار هو في
ائمه بالنين

اما عمرو فانه دخل مصر من الشرقية وجعل يروح الكتاب كتيبة بعد كتيبة
وكافة يلقى كتيبة وينزفها حتى كاد النشل يحيط بجيود الشام لولم تأتهم نجدة قوية
بقيادة معاوية بن حديج فاشند أزرهم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدة لتقاعد اهل العراق عما دعاهم اليه علي ولكنهم حاربوا
حرباً شديدة دافعوا فيها دفاع الابطال ونزل كنانة عن فرسه وما زال يقاتل
حتى قتل ^(١)

الفصل الخامس والثمانون

﴿ محل الواقعة ﴾

وسارت ابناء من الكوفة وهي كلما تقدمت نحو مصر ازدادت هولاجها
على محمد . وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى السير بجوار المدن
استئناسا بالاس ومخافة العطش في الصحراء والجوادل يصبر على العطش فسارت على

خفاف الثرات ثم تحولت الى الشام حتى وصلت دمشق فسمعت هناك بمسير حملة عمرو فأخذت نجحت عن الغالب فعلمت ان عمراً بهت يستنجد معاوية وإن جيش مصر غالب . فصرّت ولم تلبث في دمشق إلا ريثما استراحت وركبت تلتبس مصر . ولما دنت من المبرش وقيل لما انها على حدود مصر تذكرت ما قاله رئيس دير البصرة عن والدتها وانها ولدتها في مصر وانها عرفت بزيدياً هالك . فهاجت احزانها ولكن ابتكارها بمجد شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرت أولاً بالفرما وهي مدينة كانت في ما يجاور بور سعيد الآن . وما صدقت انها وصلت هناك حتى اخذت نجحت من حال الحرب بين محمد وعمرو فأخبروها ان عمراً جاءه النجدة بعد ان كاد ينشل فشدد ولحظت من خلال حديث القوم انهم على دعوة عمرو وانهم مبالون الى معاوية فانقضت نفسها وخرجت من الفرما لاتلوي على شيء ومجنت عن مكان القتال فقالوا انه في ضاحي النمطاط فجدت في المبر . وهي في كل سفرها لا تنام من الليل الا قليلاً حتى وصلت بلبس فرأت اهلها في مخرج ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط بك او شد زنته او عصب راسه فعلمت انهم عائدون من قتال . فاضطربت حولها واستنصت منهم عما كان فقالوا ان جنود الشام تكاثروا بها انضم اليهم من اهل مصر ممن هم على دعوة عثمان وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وان كنانة بن بشر قتل ونشنت جند مصر . فساءلت عن محمد فلم يبينها بخبر مخبر فاختلج قلبها في صدرها فقالت ومتى كان ذلك . قالوا كانت الواقعة اول امس وان عمراً دخل النمطاط

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فلم تستعص صبراً فركبت وخرجت تلتبس مكان الواقعة وهي سائرة وعينها شائعة الى الامام لاتبالي بما يهددها من الخطر وسدل الليل ثقابه فلم تعد تستطيع التطلع الى بعيد وخافت ان يثبه عن الطريق فلبثت تفكر في الامر وهي سائرة الهولينا . وقد تهيأت للدفاع بملاحها اذا اعترضها معترض فما لبثت ان رأت الافق يبرز ثم اطل القمر واضاء فقلته بالترحاب واحسب عند رؤيته بانفراج الازمة ولكنها رأت بعضه ناقصاً وهو قبل ربه الاخير فخل لها لشدة مواجهتها بالحرب انه خارج من المعركة وقد شطاب وجهه بالسيف ولما طلع القمر استنارت به وجددت في المبر تلتبس النمطاط . وكانت لما خرجت

من بليس نرى بعض المارة قادمين اليها افراداً وازواجاً ولكنها لم تنك تبعد عنها حتى خأت الطريق من الناس فظننت نفسها سائرة في طرق لا تؤدي الى الانحطاط فوقفت وتبينت المجاهات حيناً فرأت انها اخطأت الجهة والتفتت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فمرجت يميناً حتى اصبحت في ارض زراعية وسارت تلتبس الجنوب والقرى الى يسارها يعلو رويداً رويداً حتى اصبح يربها الاشباح عن بعد . ووادي النيل ارض متبسطة لا جبال فيها ولا اودية

ومضى معظم الليل وهي سائرة حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد وهو شديد في مصر بعد منتصف الليل حتى في ابان الصيف . فترجلت ومشت تلتبس الدفء وقادت جوادها وراهما والجوهادى والارض خالية من الناس لا نسمع غير وقع حوافر فرسها وشخير

وفيما هي ماشية تفكر في حالها سمعت جوادها يصهل وقد اجفل فالتفت الى ما اجنله فرأت شجراً منطرحاً على الارض واشتمت رائحة النانة . فدنست من التبرج فاذا هوجلة قتيل جانفة فحنق قلبها وعلت انها على مقربة من مكان الواقعة فتشددت وتجلدت وقد شعرت منذ رأت تلك الحجة بارتعاش نسبة الى البرد وما هو في الحقيقة الا نتيجة ما طرق ذهنها من التصورات المرعبة عن محمد

ومشت والجواد وراهما والرائح تتعاضم ثم رأت جوادها اجنل ثانية اجنلاً عظيماً من جينة جواد وراهما جيف كثيرة تطايرت عنها النور محملة في الجوارح وصفت بطيراتها تصوناً زاد الفرس اجنلاً . فارتبكت في امرها وهي تود البحث بين تلك الجيف مخافة ان يكون محمد بينهم والجواد ينعها بافعالها وصيلا فعمدت الى شجرة شدة اليها وعادت وقلبها يخفق وركبتها ترمضان وعيناها شاخصتان الى تلك الساحة وفيها البحث ملغاة ازواجاً وانثاءً وبين اولئك القتلى من استلقى على ظهره وبسط ذراعيه كأنه يستقبل طفلاً يستغيث به ولكنه حول وجهه الى احد المجانين كأنه شعر بقببح منظره وقد جعله الليلى جلدأ على عظم واكلت بعضه النور — لئلا يخاف الولد منه . ورأت آخر مكأ على بطنه وقد قبض باحدى يديه على رمح وبالاخرى على التراب ورأت هناك رؤوساً مدرجة وجثثاً بلا رؤوس متراكبة بعضها فوق بعض . واهرب ما رأت رجل وامرأة مانا متعاقبين ولم تعرف المرأة الا من ثوبها لان الوجع لم تعد تتميز

ولا ازيدك علماً بحالة اسماء ساعته قد كانت تجر نفسها جرّاً بين تلك الجبف وهي تحاذر ان تدوس على يد اورجل أو رأس وقلبي يخفق خفقاناً شديداً تكاد نسمع صوته في اذنها . ولوثأتى لها ان تنظر الى وجهها برآة لرأته اشدّ استغناء من وجه تلك الجبث . وتعبت من التفرس بالوجع والثياب واثرت تلك الرائحة الكريهة في رأسها مع ما كانت فيه من التعب والجوع فأصابها دوار وخافت ان تسقط فوق القنلى فاستدركت نفسها ونجحت الى الشجرة التي شدّت فرسها اليها وجلست هناك ولم تدت رأسها الى جذعها تلمس الراحة . ولكن افكارها ظلت تائهة ولم تخرج صورة محمد من امام عينها . ولم تكك تلقى رأسها حتى غلب عليها العباس فأغمضت جنبها فتصوّرها محمد مقتولاً فارتعدت فرائصها ونهضت مذعورة . وفيما هي تنهض رأت الفرس يده رأسه الى الارض فالتفت اليه فرأته ألنقط دميّاً مضطه بين اسنانه فسمعت له فقفاً كنفش القصبه اذا كسرت بين الاضراس ثم ما لبثت ان رأت الفرس يلتقط تلك الهناة فلمحت فيها دميّاً ايض فتناولته فاذا هو قصبه وفيها رقّ هو كتابها الى محمد لا يزال في قصبتها كما ارسلته اليه فازداد ملالها وتحمقت ان محمد آكان في تلك الواقعة وتلك القصبه معه فسقطت من جيبه في اثناء الدفاع . . فأين هو . . . وكانت قد بشت من وجوده هناك وفي ذلك البأس فرج لانها تحقق نجاة من تلك الواقعة فلما وجدت كتابها خافت ان يكون محمد قتل هناك فعادت الى الجبث نجت فيها

وكان الفرق قد تكبد السماء وصفا الجؤوظهر كل شيء امامها جلياً واضحاً كأنها تنظر اليه في رابعة النهار . وفيلا تخاضح في بحثها عن محمد الى تمنّ ونجر ولولحت طرف ثوبه او عمامته ولو عن بعد لعرفته لان صورته نصب عينها . ولكن الانثاب والمائم تشابه . فلا تسل عن خفقان قلبها وارتعادها كلما رأت شيئاً يشبه



الفصل السادس والثمانون

* البحث عن محمد *

وما زالت في ذلك حتى لاح الفجر ونبتت الوجوه فدارت بين القتل تجدد البحث فطلع النهار وفي تجول وتفرس فلم تراثراً لمحمد فبحثت انه لم يقتل في تلك المعركة . فلما سكن روعها من هذا التبل احست بالنصب والنماس والجوع فالتفت الى ما حولها فرأت هواتا تكاد توارى لعمدها فعلت انها منازل بعض اهل القرى فقولت اليها تلمس ملعاماً لما وعلناً لجوادها فوصلت المكان وحيت اهله . فرأت هناك امرأة معها صبيان عراة يهيمون حولها وهي تحلب لم لبناً من غنمة . فلما رأى الصبيان اسماء قادمة على فرسها صاحوا باهم فزعت وفزعوا جميعاً . فتركوا الغنمة ودخلوا الكوخ فنادتهم اسماء وطببت خاطرهم فعادوا فقالت لم هل عدكم علف لهذا الجواد قالوا نعم واعتذرنا لحوقهم بانهم قاسوا في تلك الاثناء امراً من الجند المحارب لانهم كانوا يهيمون كل ما فصل اليه ايديهم

فأكرموا وفادة اسماء وجاؤها باللبن ولجوادها بالعلف والتمست حصيراً تنكئ عليه فنهض صاحب الدار فأخذ النرس وشده الى وتد وجاء بحصير كان قد سجد تحت فراشوا اعواماً حراً عليه فانكأ اسماء على ذلك الحصير في ظل الكوخ ونامت نوماً عميقاً لم تنق منه الا قبيل الغروب

ولم تنتع عينيها حتى رأت رسولها الاخير الذي اقتذته الى محمد من اذرح واقفاً عند رأسها فصاحت فيو اين كنت ومن اين اتيت . . اين هو محمد

فعضت على شفتي السفلى وأشار بعينيه يلمس سكونها لتلا يسمها احد اهل البيت فنهضت ونفخت اهل الكوخ بغطية لفاء خدمتهم وسلمت النرس الى ذلك الرسول وسلمت الى جانيه وسأله عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذي جاء به الى ذلك المكان فقال ابشري يا مولاتي ان مولاي محمداً قد نجا من هذه الواقعة

فقالت واين هو . . وماذا تم له اخبرني

قال اعلي يا سيدتي اني ما فارقت سيدي محمداً يوماً واحداً منذ جئته بكتابك

وقد آتست فيه انعطافاً فنجوي لا ادري سببه وحينما توجه سرت في ركابوا اما راجلاً او راكباً . ولما كانت الواقعة منذ يومين في هذا السهل وقتل كنانة بن بشر قائد مقدمته تفرق رجاله عنه حتى اصبح وحيداً فالتحمت عليه ان يخرج من المعركة خوفاً من ان يقتل

فلما وصل الرسول الى هذا الحد امتنع لون اسماه وشخصت ببصرها لساع نقة الحديث وخفق قلبها

فقال « ولما هو فقد كان عازماً على البناء في ساحة القتال الى الموت فألتحمت عليه بالخروج فأطاعني فمشينا حتى انتهينا الى خربة (١) في ناحية الطريق بالقرب من هذا الجبل (وأشار الى القلم) فأوليا اليها خاتنين . وقد مضى علينا هناك يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رأيت سيدي ظمأً امتناً ذنقه في الخروج لا يتو بهبض الماء والطعام وأوصاني ان ابحت عن كتابك فقد كان في جيبي اثناء المعركة وفقد منه »

فقالت « اما الكتاب فقد وجدته بل وجده هذا الجواد . وابن هو محمد الآن هلم بنا اليه ومعا الماء »

فقال « انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

قالت « احمل له الطعام والماء . وهلم بنا »

قال « الا نظلين طهنا بأمنا »

قالت « لا تلبث الشمس ان تغيب ونجيم الظلام فلا يراها احد . وارى ان نتي هذا الفرس هنا قليلاً بدل طهنا »

فأخذ الرجل الفرس وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجع بقربة مملوءة ماء وبأرغفة وشيء من الخبز

الفصل السابع والثمانون

﴿ الحربة ﴾

مضيا وقد خيم الظلام والرجل يمضي امامها يدلها على الطريق وفي تكاد تعثر

بأذيالها للهناء وسرعتها . وقضت مسافة الطريق لا تتكلم لانشغال خاطرها بما توقعت
من التأثر عند لقيا محمد

وقضيا ساعة سائرين والليل دامس لا يكادان يميزان الطريق لولم بكل جبل
المقطم ظاهراً امامها في الافق . فجعلاه وجهتها لان محباً محمد بالقرب منه . وكانا
يمران نارة بين خيام وأوتة في اعشاش او أكواخ صفوة حتى وصلا الى جانب المقطم
فتقدم الرجل وسارت اماء في اثره ومشى هو يتلس الطريق بين انقاض بعض الاخرية
وهي تنبئة وقلبها يخفق توقفاً للبخنة التي ستصيبها عند المفايلة بعد طول الغيبة . وكان
قلبها يرقص فرحاً لما تتصور انها آتة بالما . والطعام

وبعد هنيهة اخفى الدليل في ظلة مدلمة هناك فنادته بصوت مخفض فقال انا
وصلنا . فدخلت في اثره الى بيت خرب لم يبق منه الا المجدران وبعض السقف ولم تكن
تدخل حتى سمعت الرجل يقول « اين انت يا مولاتي » فلم يجبه احد . فقالت اماء
« العلة كان هنا وغاب »

قال « تركته في هذا الخربة »

قالت فلنتش عنه في غيرها لعل الخرب تشابه عليك . وقشاً كل الخرب
المجاورة فلم يبقنا له على اثر حتى تعبوا وبلا الفتش فقالت اماء « ما ظلك بهيب نفوس »
قال « لا ادري واخشى ان يكون عمرو قد عرف بمكانه فبعث في القبض عليه
وهو اعزل لا سلاح معه »

فلما سمعت ذلك اتفزعر بعدها وقالت « وكيف العمل الآن »

قال « ابي رهين اشارك في ما تأمرين »

قالت « عد بنا الى حيث كنا نلث هناك الى الصباح ثم تسير انت للبحث عنه »
قال حسناً . وعادا حتى اتيا الكوخ وعرفاه من صوت الفرس فانه حالما اشتم
رائحة القادمين حتى صهل ورفس الارض بمخافه
وبانت اماء عند تلك المرأة وبكر الرجل في الصباح للبحث عن محمد ومكانه
ولبت في هناك في انتظاره



الفصل الثامن والثمانون

﴿ خبر الفاجعة ﴾

وابطاً الرجل في رجوعه فانشغل خاطر اساء وتدمت لاتها لم تسر في للتنفيس معه . واضمت الشمس ولم يرجع فازداد قلها ولم يعد بطيب لها مقام فمضت وراء تلك الاكواخ الى الجهة التي تتوقع ان يكون رسولها قادماً منها حتى بعدت مسافة . وفيما هي تتطلع في آخر الطريق رأت شهجاً مسرعاً نحوها عرفت من قياضها ان رسولها فاخرج قلبها وتخصت اليه ببصرها لترى ما يدوم له فاذا هو ما زال مسرعاً حتى وصل اليها وهو يلهث من شدة التعب وقد عطش البغلة واحمرت عيناه وكلال العرق جبينه

فصاحت فهو ما وراءك .. قل ... ما خبرك ... هل وجدت محمداً .
قالت ذلك وقلها يزداد في الخفقان

فقال وهو يلهث لها شديداً « آء يا مولاتي ... نعم وجدتة ... ولكنه ... ولكنه في خطر القتل ... »

فصاحت « وكيف ذلك ومن يقتله »

قال « انهم غيروا على مكاء في الخربة قبل وصولها اليها بالامس ... آء ضاق صدري من التعب اهليتي لانتشق المطر ... وقد دلم عليه بعض ابناء المحرام فحملوه وهو اعزل الى النسطاط ... »

فقالت « وبعد ذلك .. ما ذا جرى »

قال — لما مضيت من عندك في هذا الصباح تصدت النسطاط رأياً لاني اعلم انه لا يذهب الى مكان اذا لم يقبضوا عليه فوصلت الجامع وتظاهرت بالملاة فرأيت هناك عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن ابي بكر اخا سيدي محمد وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو « انتقل اخي صبراً ابست الى ابن حديج فانهو تنه » ^(١) فقلت ان معاوية بن حديج هو الذي قبض عليه ويريد قتله . فطار صولي ووددت ان اعرف اين هو ابن حديج لاسير اليه فسمعت عمراً يقول لبعض رجاله « اذهب الى ابن

حديج ان يكف عن قتل محمد ويأتني به » فخرجت في اثر ذلك الرسول حتي وصلت الى مكان وسط بين الحرة والنمطاط رأيت فيه جمعا متكاثرا بينهم ابن حديج ومعه رجاله احاطوا بمولاي محمد وقد رقى جسمه من العطش والجوع . . . آه من اولاد المحرام . . . وتقدم رسول عمرو الى ابن حديج وابلقه امر عمرو فاجاب » قتلتم كنانة ابن بشر واخلي انا محمدا اكفاركم خير من اولكم مهابت مهابت « (١)

ولا نسل عن اسماء وثمة اصغائها لمقال الرجل وكيف كان وجهها يبلون . فلما سمعت ذلك الكلام تطاولت بعنقا وحدقت ببصرها لترى ما تم بعد ذلك وهي تقول » جزام الله شرًا على هذا القول . . لا لا اظنه يقتله بلا امر عمرو ولكنه اسماء الادب »

فقال الرجل ولو اقتصرت اسماءه على ذلك لكان خيرا ولكنه منع سيدي الماء فقد سمعت باذني طلب منهم ان يسقوه فقال له ابن حديج بوقاحة واستخفاف » لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابدأ انكم منعم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والنساق « (٢)

فلما سمعت اسماء ذلك قالت » خسي النذل » واصاحت بسمها . فاتم الرجل كلامه وقال — فاجابة سيدي محمد » يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يعني اوليائه ويظني اعداءه انت وامالك اما والله لو كان سفي يدي ما بلغت مني هذا »

فلم تعد اسماء تستطيع صبرا على استماع الحديث وهي تود ان تعرف النتيجة عاجلا فقالت » وماذا جرى اخيرا »

قال سمعت ابن حديج يقول له » اندري ما اصنع بك ادخلك جوف حمار ثم احرقة عليك بالنار »

فصاحت اسماء والدمع يساقط من عينيها وهي تشدد وتجلد » خسي ابن اليهودية والله انه لا يحسر على ذلك »

فقال الرجل » فلما سمعت قول ابن حديج اسرعت لاخبرك لاني رأيت في اوجه القوم المبادرة الى الشر »

فالتفت أسماء وراءها فرأت الكوخ بعيداً ولا سبيل لها إلى الرجوع ولم تعد
تمالك عن المبادرة إلى محمد فقالت « وهل المكان بعيد من هنا »
قال إنه قريب

فقالت هلم بنا اليوم ومشت وهي لا تدري كيف تنقل قدميها لتجلبها ولتضعها والرجل
لا يستطيع اللحاق بها لأنه كان لا يزال نعباً وليس في قلبه نار تستجلب خطواته كما
تستجلب خطوات أسماء . فمشت نصف ساعة ولم تدرك المكان فندست لحيها مائتية
وقد كانت تظن المسافة أقصر من ذلك

الفصل التاسع والثمانون

﴿ قضي الأمر ﴾

ثم اشرفا على ساحة . فقال الرجل « كأننا في هذه الساحة والظاهر أنهم ساروا
إلى الفسطاط » فمشت حتى أتت المكان الذي كأننا فيه فرأت آثار دم وكأن
شيئاً جرح على الأرض جرحاً . فارتعدت فرائصها وجد الدم في عروقها وصاحت
« ويلاه ويلاه انهم قتلوه ... قتلوه ... آه يا محمد يا محمد ... يا حبيبي »
فقال لها الرجل « وكيف عرفت ذلك »

قالت « أما ترى الدم وتارجر الجيفة » قالت ذلك ولصقت وجهها وأخذت
الدمع على خديها ومشت تتبع آثار الجرح وعيناها لا تريان الطريق لما يغشاها من
الدمع ولم تمش قليلاً حتى اشتفت رائحة شواء . فسمحت عينها وتطلعت فرأت دخاناً
يتصاعد من خربة . فأيقنت أنهم قتلوه وأحرقوه في جوف الحمار كما قالوا

فهرولت إلى الخربة لا تاري على شيء فرأت هناك جيفة حمار حولها النار موقدة
وجوفها مشقوق فتفرست في ذلك الشق فرأت من خلال اللهب رأس محمد مغمض
العينين كأنه في سبات عميق فصاحت « محمد يا محمد ... لقد صح قولهم وفعلاً
ما أرادوا انهم قتلوه قتلهم الله » وهمت أن تلقي نفسها في النار فأمسكها الرجل بشوئها
وقدم إليها أن لا تقع . فطلمت وجهها وحطت شعرها وأخذت في التدب والمويل

وهي تمنع عنها كل لحظة وتنظر الى حبيبها من خلال اللهب فتراه لا يزال قائماً فتنادي
فلا يجيب ففهم ان تلقى نفسها فوقه والخادم يسكنها
فضاقت بها الحبل فجعلت تدور حوله وتندب بل تندب نفسها وتقول « آه
يا نعماسي وثماني .. آه يا حبيبي يا محمد انك لم تصب حنك الا لنص طالعي ولو
لم احبك لم تمت .. ويلاه واسفاه ماذا اعدد من الفحوس المهدقة بي ... لم يبق
عندي شك في اني ولدت شوماً على نفسي وعلى كل من هم حولي ... ولدت لا أعرف
والدي ولما دنا زمن معرفتي اياه ماتت امي ... آه يا والدتي الحنونة
ترلت في دار عنات فقتل ذلك الخليفة وكان قتله شوماً على الاسلام فقامت الننة
وقتل فيها جماعة من غيرة الصحابة . قتل فيها ثلثة والزبير والوف من المسلمين توسدوا
الثرى وجرت دماؤهم مجرى الاعهر . وسعيت في ثلثي الفتنه بقلبي وبدي ولساني فلم افر
لان التفادير كانت تماكني . بكفني ما قاسيته من مروان . ثم فتح لي باب اعرف به
والذي الحقني ورجوت ان يكون احد كبار الصحابة فما زالت الاحوال توغرني
وتقدمني حتى مات حامل السر قبل ان اراه . ولا ريب انه كان في شوق ان يطلعني
على ذلك السر اكثر من شوقي انا للاطلاع عليه

« نعم عا كني الدهر ولكنه لم يصب مني مثلاً لان آمالي كانت عالة بك يا حبيبي
يا محمد ... قلت بكل صائي املاً بلقائك وقمت ان اعيش معك بعيشة
الاخت او الخادمة او الامة ... ولكن آه .. آه .. لولا هذه الآمال لم تقتل انت لانك
انما قتلت لغام نعماسي فاما هو . سب القتل ... كيف تموت .. كيف يخطأ بدنك
بالتراب بل كيف تموت هذه المونة الشنيعة وابقي انا حية ... كلاً ثم كلاً ... »
قالت ذلك والقت نفسها في اللهب قبل ان يبادر الخادم الى منها فالتهب شعرها
ولكن الرجل اسرع الى اطفائهم بعد ان اشتعل معظمه ونح بعض وجهها وهي ما
زالت تحاول الفاء نفسها في اللهب عن غير هدى وقول « انركوني دعوني انام
مع حبيبي محمد ... دعوني اعاقه »

فاستدما الرجل وحملها الى جانب فأجلدها على الارض وقلبه يكاد يتنطر على
حالمها وخاطبها فلم تسمع . ثم افافت من غفلتها فنظرت الى اللهب وقالت بصوت
خافت « لقد مات عطشاً فكيف اشرب الماء . بعده وقد مات جائعاً فكيف آكل

الطعام بعده ... انت روح اساء فكيف تعيش اساء بلا روح . انك آمال اساء فكيف تحيا اساء بلا آمال ... آه ما احلى الموت وما الك «

ثم وقفت بفتة والتفت الى ما حولها كأنها استيقظت من رقاد وقالت بلهجة الجبد والسكينة « وأفضل من الموت يحزنك ان آخذ بمارك ... ولكن من ... انهم اجمعوا على هذه المصيبة ... أاستجد الامام علياً ولا اراني الا شوثماً عليه ولم يعمل عملاً منذ عرفني الا عاد بالنص عليه . أأعيش لاريد نعاسة مولاي الامام علي رجل هذه الامة وخير من مثي على سطح الارض بعد الرسول (صلم) ... انك امير المؤمنين بالرغم عنهم اجمعين .. ولكنهم اجمعوا على خلافك تبعاً في الدنيا واست لا مطيع لك الا في الآخرة ... الآخرة ... »

ثم سكنت هنيئة وهي مطرقة كأنها تفكر في امر ذي مال ثم قالت « الآخرة ... نعم ان الآخرة خير من هذه الدنيا دنيا التقاء ... هل تلتقي هناك بعد الموت .. أجل تلتقي .. لا بد من عالم آخر تلتقي فيه لا الله عادل لا يرضى ان اقضي شباهي سعياً في تعزير كلمتي وصرت اس عم سيو قلب محض وبنه سليمة ولا ارى من نتيجة انعاني غير اللاء والتقاء . ثم ارى حبيبي وممتني املي يحرق امام عيني في جنة مشته وهو اسن اول الخلائء وشقيق زوج الرسول الطاهرة ... فلا بد من عالم آخر ينال فيه كل ذي حق حقه . هناك تلتقي ... تلتقي هناك . إذن لماذا اعيش هنا ... الزيادة التقاء وما في ثنائي حبة بعد محمد الا طول اغترابي عنه ... بل كيف يموت محمد وانتي انا بصيرة عنه والموت احسن وسيلة تجمعني به . دعوني احترق بناره فيختلط رمادي برماده كما احترقت في حياته فاتخذ قوادي بنفواده ... الموت الموت »

قالت ذلك وهمت بان تلتقي نفسها في اللهب ثم انجمت ووقفت والتفت الى يمينها ويسارها كأنها تنتش عن شيء ... ثم نظرت الى السماء وصاحت « بل اموت فالتقي هناك والدتي ايضاً فعساها ان تخبرني عن اسم والدي » ثم جست رأسها بيدها فرأته غارياً من الشعر وشعرت بها اصابها من الحرق فلم ينال بل تقدمت الى تلك الحجة الملتببة وكانت النارق قد اكلت معظمها فظطرت الى وسطها لعلمها ترى رأس محمد ثانية فانها هو قد اسود ولم يعد يتميز من سائر اجزاء الحجة فصاحت

« محمد محمد . . محمد . . الوداع الوداع يا حبيبي يا أملي يا رجائي يا أخي يا شقيقي
يا سيدي . . . الوداع الوداع . . لا بل اللقاء اللقاء . . . كيف اودعك ونحن
ذاهبان معاً . . . اللقاء اللقاء يا ما أحلى اللقاء ولو في النار . . . »
قالت ذلك والفتت نفسها في اللهب كأنها تعاقب محمداً ووجهها فوق
وجهه . . فاسرع الرجل الى امتثالها فاذن في تخليج اختلاج الموت وكان اللهب
قد خنتها
فكفى الخادم لذلك بكاء مرّاً وصبر حتى خمدت النار فجمع رفات الحبيبين وضماها
الى مدفن واحد وترحم عليهما

﴿ انتهت الرواية ﴾

هكذا انتهت حياة عذرائنا القرشية بعد ما قاسته من العناء في نصرة الحق فلم
تلق غير الشقاء . ولا غرو اذا بكأها القارئ فقد بكيناها قبله . وهي تمثل النعاسة
التي تحرق ببعض اولى الصل فلا يتألمون جزاء لفصلهم ورسم غير الشقاء ولولا
تأسيهم بدار المخلد لما تنو حزانى بائسين
ويمرّ علينا ان تكون نهاية هذه الرواية محزنة وفي اول رواية ختمناها على هذه
الصورة ولكن حوادثها قضت علينا بذلك . وكيف يكون ختامها غير محزن وفتناها
التي مدار حديثنا عليها عاقت بمحمد بن ابي بكر الذي قضى التاريخ بموته على هذه
الصورة . فقد قضى عليها بالنعاسة منذ أحبتة وذلك شأن الخلق يسرون في الحماية
الدينا لا يدرون مصيرهم ولا ما خبأته الاقدار لم فقد يفرحون بكسب اوي يتجهون
بمولود او يلذون بحبيب والاقدار تنعدم بهذا بعواظهم حتى اذا جاءهم امر من
رهبان غير ما يرجون وذاقوا غير ما يتوقعون . والله في خلقه حكمة لا تتركها العقول

الملك والشهاب

✽ رواية تاريخية ادبية . الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف منشيء الملal ✽

تضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح واف عن اوصاف الامير بشير الشهابي الكبير والمغفور له محمد علي باشا وولك المرحوم ابراهيم باشا مع ذكر احوال تري مصر والتمام واخلاق اهلها اثناء المدة المشار اليها . ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في مصر والشام والمورة مع الاشارة الى الحملة الفرنسية واسماها

والمحور الذي تدور عليه الحكاية الملوك الشارد وهو الملوك الذي نجما من مذبة الملوك في القلعة . والرواية تشوق الى القراءة لتناسق حوادثها ولا يبدأ قارىء بمطالعتهما الا اضطر الى انماها بالرغم عنه . عدد صفحاتها نحو مائتي صفحة . منها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش ونصف

قلائد الحب

✽ رواية تاريخية غرامية . جزآن ✽

✽ تأليف منشيء الملal ✽

في الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام واسماها يعني عن وصفها شرح فيها المؤلف ظهور الاسلام وانتشاره وما آلت اليه حال العرب بعد ذلك مع بسط حال جاعليتهم وما قاموا به وما كان لظهور الاسلام من التأثير في سائر احوالهم وعادتهم واخلاقهم ما لا يمكن الوقوف عليه الا بمطالعة المجلدات الضخمة ثم ما كان من الجهاد في نشر الاسلام وما تم على اثر ذلك من الفتوح في جزيرة

العرب والشام والعراق . ومن ابطالها جيلة بن الایهم ملك غسان وابوهييدة
ابن الجراح قائد جند المسلمين في الشام وخاند بن الوليد والتعمان بن المنذر
وهرقل امبراطور الروم وفيه تنصيل نخ مكة وبصرى ودمشق وبيت المقدس
والمداين وواقعة اليرموك والقادسية ووصف الكعبة وكيف تكسرت اصنامها
وغير ذلك . وقد نشر الجزء الاول منها في السنة الخامسة « الهلال » والجزء الثاني
في السنة السادسة ثم نشر الجزآن على حدة . ثمن كل منها عشرة غروش واجرة البوسطة
غرش ونصف وثمن الجزئين معاً بما فيه اجرة البوسطة ٢٤ غرشاً

إِسْمَاءُ ابْنِ أَبِي مَرْثَدَةَ

✽ رواية تاريخية غرامية . الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف منشيء الهلال ✽

هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتتمثل على ام حوادث
التاريخ الاسلامي وأكثرها تعلقاً باقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاته
وخصوصاً فتح مصر وبان حفيظة اسباب ذلك النفع وما كان من حال اقبط
مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً او هي
عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تثيل حركات الجند وملابسهم
ومداولات القواد في خيامهم ونصورهم وما جال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب
حكاية يقرأها المطالع ولا يل بل يزداد اشتياقاً اطالعتها وهو يجسب نفسه بقراءة قصة
فكاهية فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ النفع وحوادثه كأنه شهيد بنفسه . ومن
ابطالها عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعيرج قائد جند الروم
فيها وغيرها . ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرش ونصف



التيح العجنا

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

الجزء الاول

ينضم مختصر تاريخ مالک اسيا وافر يقا القديمة والحديثة بعد ذکر مقدمات
جغرافية عمومية وحكاية الخلطة والطوفان وتغرق الانسان
وفي الكتاب كثير من الرسوم لزيادة الايضاح . وعدد صفحاته ٢١٦ صفحة
وفيه من الرسوم ٢٥ رسماً ثمة ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش واحد

جغرافية مصر

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

الطبعة الثانية

طبعت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في اواخر سنة ١٨٩١ ولم تفس سنة ١٨٩٢
حتى نزلت نسخة كلها وزاد اقبال انطالعهم على انتائهم فاعيد طبعة ثانية . ولما
كانت تقاسيم المديريات والمحافظة لا تبنى على حالها زمناً طويلاً لما يطرأ عليها
من التغيير والتبديل لما تراه الحكومة من تجديد التنظيم والترتيب فقد كاتب المؤلف
كل مديرية ومحافظة على حدة وتلقى الاستعلامات الحقيقية عن آخر تقسيم لها حتى
تكون هذه الطبعة أكثر تدقيقاً من سابقتها وأوفر فائدة . ثمن النسخة ٣ غروش مصرية
واجرة البوسطة ٢٠ بارة ولما ارع خارطات ثمنها غرشان

تاريخ انكلترا

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

صدر الجزء الاول من تاريخ انكلترا وفيه تاريخها من اول عهدا الى
انقضاء دولة البوركية سنة ١٤٨٥ مزيّناً بالرسوم والاشكال ثلثة ٤ غروش صاغ
واحدة البوسطة ٣٠ مارة

مَطْبَعَةُ الْمَلالِ

لما رأينا اقبال الناس على الكتابة والتأليف والطبع والاعلام اشتغال
مطبعتنا في الاكثر بطبع مطبوعاتنا الخصوصية حتى كثيراً ما كنا نضطر
الى الاعتذار عن طبع شيء للمؤلفين الآخرين . فبمنا نستحضر عدداً اخرى
من أتعين طرز واجمل وضع في اوربا فوق ما لدينا من الصدوق وقد وصل منها
آلة « ماكنة » كبيرة من طرز الوزبه المشهور بدقته وصحته فاصبحت
مطبعة الملال مستعدة لقيام بطبع الكتب على ما اشتهرت به من الجودة
والاتقان . واذا كان صاحب الكتاب او مؤلفه خارج القاهرة لم يوفى حال
تحول بينه وبين مراجعة المسودات فالمطبعة تقوم بذلك بعد المخاطبة



